

علي ونينو

## علي ونيو

رواية

قربان سعيد

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م  
حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/١٤٥٤٧

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 558 - 2

# علي ونينو

رواية

قربان سعيد

ترجمة:

عبد المقصود عبد الكريم

---

دار العين للنشر



### بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

سعيد، قربان

علي ونينو: رواية/ قربان سعيد؛ ترجمة عبد المقصود عبد الكريم.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٢ ٥٥٨ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الألمانية

أ- عبد الكريم، عبد المقصود (مترجم)

ب- العنوان

٨٣٣

رقم الإيداع / ١٤٥٤٧ / ٢٠١٩

هذه الترجمة العربية لكتاب:

**Ali & Nino**

**By: Kurban Said**

Copyright©1972 by Pocket Books

Arabic Translation©by Elain publishing House for Translation,

All Rights Reserved



يكتنف الغموض حياة قُربان سعيد. حيث ولد ليف نوسيمبوم (قربان سعيد اسم مستعار) في باكو سنة 1905، وهو ابن لمعلمة ألمانية ورجل أعمال يهودي. اعتنق الإسلام في شبابه وغير اسمه إلى أسعد به. انضم في أوائل عشرينيات القرن العشرين إلى الدوائر الأدبية والصحفية في برلين. وانتقل إلى فيينا في ثلاثينيات القرن العشرين. وفي 1938 أُبعد من ألمانيا إلى إيطاليا، حيث مات عام 1942 في بوزيتانو حين جرح نفسه حتى لا يتم ترحيله. طعن نفسه في القدم فأصيب بتسمم في الدم.





لهذا الكتاب تاريخ غريب، فقد ظهر للمرة الأولى في فيينا عام 1937، في وقت غير مناسب لرواية عن الحب والزواج بين شخصين من عرقين مختلفين، فتعرض للنسيان سنوات طويلة.

عُثِرَتْ على الرواية في كشك لبيع الكتب في برلين بعد الحرب. قرأتها وأعدت قراءتها، وأخبرت كل أصدقائي بمدى خسارتهم لعدم معرفتهم الألمانية. في النهاية تُرجمت إلى الإنجليزية ونشرتها دار هُتشنسن. ولم يكن أحد آنذاك يعرف شيئاً عن "قربان سعيد". وكل ما تذكرته أرملة الناشر الأول أن الاسم مستعار، ولم تكن تعرف المؤلف أو اسمه الحقيقي. وحين نُشرت الرواية في أمريكا وصلت رسائل من أصدقائه ومعارفه السابقين ذكروا أن اسمه الحقيقي أسعد بيه، وينحدر من أسرة يهودية من باكو، حيث ولد عام 1905، وماتت أمه وهو طفل صغير، واتخذ اسم أسعد بيه حين اعتنق الإسلام. وحين اشتعلت الثورة في وطنه، فر مع أبوه ومعلمته الألمانية إلى اسطنبول.

ومن اسطنبول رحلوا إلى برلين، حيث التحق أسعد بإحدى المدارس

المخصصة لأطفال المهاجرين الروس ثم التحق بالجامعة. بدأ الكتابة وهو طالب في الجامعة، وبسرعة صار كاتبًا وصحفيًا مرموقًا. كتب عددًا من الكتب تحت اسم أسعد بيه، كانت سيرة في معظمها - ومنها على سبيل المثال "محمد"، "رضا شاه"، "نيقولا الثاني"، و"لينين". وكتب الرواية باسم قربان سعيد. ولم يكتب سوى روايتين هما "علي ونيو" و"الفتاة ذات البوق الذهبي".

تزوج من أمريكية وانهار الزواج حين انتقلت الأسرة إلى فيينا. قرّت الأسرة من النازيين عام 1938، وحين وصل النازيون إلى النمسا هرب أسعد إلى إيطاليا حيث مات. دُفن في مقبرة عليها شاهد إسلامي تقليدي، رسمت عليه عمامة، قرب خليج أمّلفي. دُفن والمصحف تحت رأسه حسب وصيته.

ولا يمكن أن أضيف إلا أنني شديدة الزهو باكتشاف هذا الكتاب وإنقاذه من النسيان.

جِنيا جَرَمَن

## المقدمة

وراء هذا الكتاب الرائع قصة غريبة وغامضة. حين قدمت لي أول مرة نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة لقراءتها؛ لم أكن قد سمعتُ بالمؤلف المثير للدهشة، لأن "قربان سعيد" اسم مستعار ويبدو أن لا أحد يعرف بالتأكيد الاسم الحقيقي للرجل الذي اختار هذا الاسم. هذا كتابه فقط، وبقدر وضوح الكتاب يكتنف الرجل الغموض. ولا يُعرف عنه إلا ما يلي: كان تناريًا، وحين خضع وطنه لسلطة الاتحاد السوفيتي حديث التأسيس، قرر مغادرته. ذهب إلى فيينا، وكانت في ذلك الوقت وسطًا متناغمًا ومتحضرًا يمكن فيه للكاتب المبدع أن يتنفس هواء الحرية. وهناك كتب -بالألمانية طبعًا- "علي ونينو" ونشرها عام 1937.

وفي ذلك العام كان وسط أوروبا في قبضة هتلر والنازيين. ولم يكن مؤلف هذا الكتاب، كعاشق للحرية، أقدر على تحمل مناخ النازية من تحمل مناخ الشيوعية السوفيتية. فر مرة أخرى، هذه المرة إلى إيطاليا، ولم تكن إيطاليا في ذلك أفضل من البلاد التي غادرها. ومات هناك؛ أين، وتحت أي ظروف، لا أعرف ولا أظن أن هناك من يعرف.

ربما يكشف البحث الدءوب، بدون شك، المزيد من الحقائق عن

"قربان سعيد". وإلى أن يكتب شخص ما كتابًا عنه على غرار "البحث عن كورفو"، سيكون من الصعب أن نعرف عنه أكثر من الحقائق الضئيلة التي ذكرتها. ليست هذه هي القضية عموماً. كتابه بين أيدينا، "الحياة الحقيقية الغالية لروح بارعة". ومنه يمكن أن نعرف أي نوع من الرجال كان. من المؤكد أنه كان يتمتع بالعبقرية، عبقرية من القوة بحيث تبرز على السطح وتشد انتباه جنيا جرمن، وهي فنانة كانت تعيش في برلين في ذلك الوقت. عثرتُ على نسخة شبه مجهولة من طبعة للكتاب صدرت في فيينا ورأت على الفور أنه جدير بالترجمة ليتعرف عليه الناطقون بالإنجليزية. وندين لمبادرتها بالكثير.

\* \* \*

"علي ونيو" عمل جدير بالقراءة حتى ولو لم يكن رواية بارعة تأخذنا، كقراء غربيين، إلى عالم نسعد بوجوده. تتيح لنا، لبضع ساعات، رؤية الحياة بعيون مسلم. ويمكن أن يكون هذا وحده سبباً لقراءة الكتاب، حيث أن المعتقدات والمواقف الإسلامية غامضة عادة بالنسبة للغربي، وهذه القصة تساعدنا على رؤية كم تبدو طبيعية وصائبة في سياقها الخاص.

علي خان شرفنشير، الابن الأصغر لعائلة كبيرة، من أهل الصحراء. وكما يقول له ددياني الحكيم العجوز:

"لك روح رجل صحراوي. ربما كان هذا هو التقسيم الحقيقي للرجال: رجال الغابة ورجال الصحراء. تأتي نشوة الشرق، النشوة الجافة، من

الصحراء حيث تُسكّر الرياح الحارة والرمال الجافة الرجال، حيث العالم بسيط وبلا مشاكل... أرى رجل الصحراء بوجه واحد، ولا يعرف إلا حقيقة واحدة، وهذه الحقيقة تملأ عليه حياته".

ويصدق هذا القول على علي خان. إنه يصوغه بطريقته. حين يسأله شارارين الأرميني المتحذلق، في المشهد ذاته: "تأتي النور من الجبال، وتأتي النور من الأدغال، فماذا يأتي من الصحراء؟" يجيب: "يأتي الأسود والمقاتلون". هذا حقيقي، بالإضافة إلى أن شخصية الأسد والمحارب تنم عن شيء واحد.

يتمتع علي خان بمزايا رجل الصحراء: الشجاعة والمباشرة والولاء التام للتقاليد والمعتقدات الطبيعية بالنسبة له، والتي يقبلها بعقله وتتغلغل في دمه ونخاعه. ليس متعصباً لكنه لا ينفر من التعصب. يحترم صديقه سيد مصطفى، وهو بلا شك ممن يصفهم الغرب بالتعصب، بسبب النظرة الأحادية الخالصة لمعتقداته. ويتمتع، في الوقت ذاته، بالذكاء والتعليم العالمي بدرجة تجعله يدرك أن العالم الذي يمثلته سيد مصطفى يتمزق سريعاً. غضب سيد بسبب تسلل بعض رجال مدينته، من الشيعة المخلصين، للانضمام إلى الجيش التركي. من منظور سياسي، يرى علي خان صواب ذلك، حيث يحارب الأتراك قيصر روسيا الجار القوي الذي يظلم ويستغل، ويشن غارات لا تتوقف على أذربيجان، كاشفاً عن العداء لتقاليدها الآسيوية، كما يرسل المدرسين ليلقنوا السكان مفاهيم أوروبية من قبيل الرغبة في السيارات، ويغمر عموماً عالماً راسخاً بأفكار مرفوضة تركز على الجشع المادي. رائع

بالنسبة لباكو - باكو علي خان لا باكو قيصر - أن ينجح الأتراك في سحق الروس. لكن سيد مصطفى يستنكر فكرة التعاون مع الأتراك؛ الأتراك المهرطقون، تخلوا عن الإيمان الحقيقي، وأفضل للمرأة أن يحافظ على إيمانه من أن يحقق انتصارات بمفهوم هذا العالم. وحين يسأله علي خان: "هل علينا باسم الإسلام أن ندافع عن صليب القيصر ضد هلال الخليفة؟" يصمت سيد لافتقاره إلى جواب، ويمتقع وجهه "بحزن رهيب". لكن علي خان -وهنا نصل إلى قلب القصة- لا يتخلى عن سيد مصطفى بسبب موقفه المتصلب. لم ير صديقه أبدًا كائنًا متحجرًا، تسيطر عليه أفكار عفا عليها الزمن، ومن المناسب تركه في عناده. بالعكس إنه يحبه ويعجب به:

"لا يجب أن يتخلى عن جزء من الإيمان الحقيقي، حتى لو أدى ذلك إلى عودة إمبراطورية فارس وقوتها مرة أخرى. الموت أفضل من العثور على ينبوع الأبهة الدنيوية بالخوض في مستنقع الإثم. ومن ثم لفه الصمت ولم يعرف ماذا يفعل. ولذا أحبه، ذلك الحارس الوحيد على عتبة إيماننا الحقيقي".

علي خان الذي يحب سيد مصطفى لصلابته، هو ذاته لا يرغب في هذه الصلابة. بالعكس، إنه يعتبر نفسه مسلمًا متمدًا، قادرًا على وضع المسلمات وتكييف إيمانه مع الظروف المتغيرة بشرط ألا يمس ذلك جوهره. حين يتزوج من نينو، الفتاة الجورجية المسيحية التي يحبها، لا يطلب منها اعتناق الإسلام. ويشعر بالسعادة حين ينصحه سيد مصطفى، من أعماق إيمانه الراسخ، بأن يتقدم ويتزوج ممن يحب، على أساس أن المرأة لا تتمتع

بروح خالدة على أية حال، ومن ثم فمعتقداتها الدينية ليست ذات بال. يبدو له هذا الموقف انتصارًا للحدس العام وتسامحًا يتجاوزان ضيق أفق المتعصبين المسلمين الذين سيعترضون بالتأكيد على هذا الزواج. يدرك أن سيد يسلم بأن أي أبناء من هذا الزواج سيتربون على أصول المذهب الشيعي، ويدرك أيضًا أن نينو لن تستطيع أبدًا فهم هذا المنطق. لكن المشكلة يتم تأجيلها لأن أول ثمار هذا الزواج بنت، وعلي خان مقتنع بالتأجيل؛ إنه شاب واقع في الحب.

في النهاية، لم تؤثر القوة المتصلبة التي تسيطر على علي وزوجته نينو على موقفيهما كمسلم ومسيحية. القوة التاريخية الغاشمة لسياسة التوسع الإقليمي في أوروبا. تم خلع القيصر لكن روسيا مازالت قائمة ومازالت قوة عربية متعطشة للتقدم والقوة. عيون باردة جشعة مثبتة على مقاطعة بها مصادر طبيعية وقوة بشرية. عاقب القياصرة الشعوب فيما وراء القوقاز بالكراييج ويعاقبهم السوفييت بالسياط. ثمة وقت قصير، حين تنفس الاتحاد السوفيتي الوليد أنفاسه الأولى، وقت كوميدي تراجيدي حين تأسست جمهورية أذربيجان المستقلة، وقت ترتدي فيه نينو الأزياء الغربية، وتؤسس منزلها على الطراز الغربي، وتستقبل الضباط البريطانيين وزوجاتهم في حفلات عشاء تنكرية كالتي تقام في لندن. لكن يتم تحديد الهدف "جاء المفوضون الروس بوجوه كئيبة مأكرة. وقعوا بسرعة وبلا مبالاة معاهدات لا نهاية لها، تتكون من فقرات وأعمدة وحواشي". وقبل أن يحف الخبر، يصل الجيش الأحمر.

علي خان نبيلٌ، تربى على تقاليد ترى أن من السمات الرئيسية للنبيل أن يموت بإرادته في المعركة في الوقت المناسب. "مات معظم أجدادك في ساحات المعارك". ومن هنا تأتي المقاومة على الجسر، صوت البندقية الآلية الوحيدة، سقوط الجسد في قاع النهر الجاف.

\* \* \*

نتيجة للمسافة الكبيرة التي تفصلنا عن طبيعة تلك الأحداث، وفجوة الزمن التي تتسع باستمرار، لا نفكر غالباً في الغرب في مصير سكان ما وراء القوقاز والعملية الطويلة من الضم والاستغلال بالقوة مما أوقع هذا الجزء الرائع من العالم تحت سيطرة القوة الأوروبية الشرقية. وكان علينا أن نلتفت إلى هذا الجزء من وقت لآخر، ليس فقط لأن كل التاريخ الإنساني يهم الملاحظ المتأمل، لكن لأن هذه القوة، في تدميرها المستمر للثقافات وتبسيطها المهمجي لمجتمع معقد، صورةٌ تكررت كثيراً في عالمنا المعاصر، وما زالت تتكرر يومياً. (هل قربان سعيد يشاهد الأحداث في التبت، أتساءل في دهشة؟ أم في نيجيريا؟) ولهذا السبب رأيت أن "علي ونيو" تستحق اهتمامنا. إنها رواية مدهشة، كتبت بدقة وبراعة.

علي خان مخلوق صلب جدير بالثقة. كل ما يأتي به يتوافق تماماً مع ما نعرفه عن شخصيته، بدون حاجة للتنبؤ. وهو ما يصح على كل الشخصيات الرئيسية في الكتاب: والد علي خان، وأصدقائه سيد مصطفى وإلياس بج ومحمد حيدر، ونشارانين المتشائم، وبالطبع نينو ذاتها. (قد تتهاوى القصة كلها إذا لم نر، بيقين تام، الأسباب التي جعلت نينو جذابة بصورة لا تُقاوم



في عين علي خان). لكن خلق شخصيات بارزة ومُقنعة لا يمثل إلا نقطة البداية في الغاية التي يسعى إليها الروائي. فهو يحكي أيضًا قصة تتطور منطقيًا من مواقف ضمنية؛ وهذه القصة تجسد درامياً ما يحاول المؤلف أن يقوله - ملاحظات عن حياة إنسانية يسعى إلى تقديمها للقارئ. ويأتي كل هذا مع تشويق في بنية الرواية. يكمن السر في القدرة، التي تبدو غريزية عند الروائي الحقيقي، على بناء الأحداث التي تتواءم بصورة طبيعية مع نسج القصة وتحمل قوة رمزية. يتمتع قربان سعيد بموهبة بارزة في صياغة هذه الأحداث. نشعر عند كل ذروة في القصة بأن الحدث مشبع بالرمزية، مع أنه تلقائي دائماً، ولا نشعر أبداً بأنه دخيل أو مُفحم. حين يفر نشارارين بنينو، على سبيل المثال، يطارده علي خان ويتصارع الرجلان ويُقتل نشارارين. ذلك هو الإطار الظاهر للحدث. لكن قربان سعيد يشغل هذا الإطار بتفصيل يضيفي الدراما على الحدث ويعيد إلينا القدرة على تخيل الفجوة الشاسعة بين الرجلين وعالميهما، وتمزق مصير نينو بينهما بصورة يرثى لها. يخطفها نشارارين في سيارة، سيارة إنجليزية كبيرة وغالية تشبه صندوقاً مطلياً. يطاردهما علي خان بالطبع على حصان؛ ليس أي حصان، لكنه جواد ذهبي أسطوري من جياد القائد مليكوف، أحد اثني عشر حصاناً ذهبياً في العالم، حيوان مقدس قال عنه مليكوف بزهو: "لا امتطي هذا الحصان إلا حين يعلن القيصر الحرب". الحيوان الذهبي ضد الآلة المطلية: روعة الأعماق مقابل روعة مدهونة من الخارج! حين يقابل علي خان خصمه في ساحة الموت، يغرس أسنانه في جسده كالذئب، ويعطل السيارة بمسدسه

بالتصويب على الإطارات، وبخنجره يطعنه طعنة قاتلة، لكنه يستخدم أسنانه أثناء الصراع كبدوي متعطرس وهمجي يقاتل دفاعاً عن رفيقته.

هذه الرمزية في كل أجزاء الكتاب، خاصة حين يجد علي خان نفسه منجرفاً في التيار الديني وتراه نينو من موقع التميز في حفلة شاي أقامتها على الطريقة الأوروبية فينتابها شعور مفاجئ بالهلع والاشمئزاز. أو مرة أخرى في عشاء أقيم في بيت علي خان بعد تعيينه ملحقاً في شعبة شئون أوروبا الغربية. لكن وجودها لا يقتصر على هذه الأجزاء. ينجح قربان سعيد أيضاً في الكشف عن التأثيرات الساطعة في الوقت المناسب وبللمسة مناسبة. معالجاً الحيات الفردية المنغرس في أعماق التقاليد الاجتماعية والتاريخية المعقدة، يقدم لنا مراتٍ ومراتٍ تجاوراً دالاً للتفاصيل الصغيرة، وتوضيحاً ساطعاً غير متكلف وبالغ التأثير:

"حين عدت إلى البيت استلقيت على الديوان. حجرة آسيوية دائمة البرودة. في الليل يملؤها البرد كماء ينحدر إلى بئر، وفي النهار يدخلها المرء قادماً من الحر وكأنه يدخل حماماً بارداً. فجأة رن جرس التليفون. أتى صوت نينو شاكياً: 'علي خان، إنني أموت من الحر والرياضيات، تعال ساعدني!'"

صوت نينو عبر التليفون مقتحماً الصمت البارد في غرفة علي خان وشاكياً من الحر (في بيتها المبنى على الطراز الأوروبي وتتم فيه التهوية بصورة علمية، بدون شك) وصعوبة الواجب المدرسي، هو صوت عالم

سيحطم عالمه. وأمام كتابة من هذا النوع، نعرف أننا في حضرة ليس مجرد كاتب يسجل فقرة مثيرة في التاريخ الحديث، بل في حضرة فنان حقيقي، لا يجب أن يمر عمله "بحثاً عن السلوى".

جون وين



# 1

كنا خليطاً غريباً، أربعون تلميذاً في درس من دروس الجغرافيا في ظهيرة يوم حار في المدرسة الثانوية، مدرسة الإمبراطورية الروسية الإنسانية، فيما وراء القوقاز: ثلاثين مسلماً، أربعة أرمن، بولنديين، ثلاثة طائفين، وروسياً واحداً.

لم نكن نعرف الكثير عن خصوصية الموقع الجغرافي لبلدتنا، إلا أن الأستاذ سائين حدثنا بطريقته الباردة الخالية من الإثارة وقال: "تمتد الحدود الطبيعية لأوروبا من القطب الشمالي شمالاً إلى البحر المتوسط جنوباً، ومن المحيط الأطلنطي غرباً إلى داخل حدود الإمبراطورية الروسية، عبر جبال الأورال مروراً ببحر قزوين وما وراء القوقاز، شرقاً. يرى بعض الدارسين أن المنطقة جنوب جبال القوقاز جزء من آسيا، ويعتقد آخرون، من منظور الثورة الثقافية فيما وراء القوقاز، أن هذه البلاد تعتبر جزءاً من أوروبا.

ومن ثم يا أبنائي عليكم إلى حد ما مسئولية تحديد إن كانت مدينتنا تنتمي لأوروبا التقدمية أم لآسيا الرجعية".

وارتسمت ابتسامة رضا على شفتي الأستاذ.

صمتنا لحظة غارقين تحت وطأة جبال الحكمة وثقل المسئولية التي وضعت على أكتافنا فجأة.

رفع محمد حيدر يده، وكان يجلس في الصف الأخير، وقال: "من فضلك سيدي، يجب أن نبقى في آسيا".

وعمت الفصل نوبة من الضحك. كان محمد حيدر يعيد الصف الثالث، وبدا الأمر وكأنه سيبقى فيه عامًا آخر إذا بقيت باكو ضمن آسيا. لأن هناك مرسوم وزاري يسمح لسكان روسيا الآسيوية بالبقاء في أي صف كما يحلو لهم.

قطب الأستاذ سانين حاجبيه وكان يرتدي الزي المذهب المخصص لمدرسي المدارس الثانوية الروسية: "محمد حيدر، تريد أن تبقى آسيويًا؟ هل يمكن أن تقدم سببًا واحدًا لهذا القرار؟"

تقدم محمد حيدر وامتقع وجهه ولم ينطق بكلمة. فتح فمه وقطب حاجبيه وزاغت عيناه. وبينما كان الأربعة الأرمن والبولنديان والثلاثة الطائفيون والروسي سعداء للغاية ببلاهته، رفعت يدي وقلت: "سيدي، أود أنا أيضًا أن أبقى في آسيا".

"علي خان شرفنشير! أنت أيضًا! حسنًا، تقدم".

مط الأستاذ سانين شفته السفلى ولعن، في صمت، المصير الذي ألقى به على شواطئ بحر قزوين. ثم سلك حنجرته وقال بصوت جهوري: "أنت على الأقل هل يمكن أن تقدم لنا سيباً؟"

"نعم. أحب آسيا".

"أوه، تحبها، هل تحبها؟ حسناً، هل زرت بلدًا من البلاد المتخلفة تخلفًا حقيقياً، هل زرت طهران على سبيل المثال؟"

"أوه، نعم، في الصيف الماضي".

"وأنت هناك، هل وجدت شيئاً من المقتنيات العظيمة في الثقافة الأوروبية، سيارات على سبيل المثال؟"

"أوه نعم، وجدت سيارات فخمة. تحمل الواحدة منها ثلاثين شخصاً على الأقل. لا تسير داخل البلدة، تنتقل من مكان إلى آخر داخل البلاد".

"تلك التي تسمى أتوبيسات، وتستخدم هناك لعدم وجود خطوط سكك حديد. هذا تخلف. اجلس، شرفنشير".

ابتهج الثلاثون آسيويًا ابتهاجًا شديدًا، بدا ذلك من نظرتهم. كظم الأستاذ سانين غضبه، يفترض أن يجعل تلاميذه أوريون طيبون. سأل فجأة: "حسناً، هل زار أحدكم برلين على سبيل المثال؟" لم يكن اليوم يومه - رفع ميكوف الطائفي يده وقال إنه زار برلين وهو ولد صغير. تذكر بوضوح مترو الأنفاق البالي العتيق، قطارًا صاخبًا وسندوتش من فخذ الخنزير أعدته له أمه. وانتابتنا نحن الثلاثين مسلماً حالة من السخط العميق.

واستأذن سيد مصطفى لمغادرة الفصل، لأن كلمتي "فخذ الخنزير" أصابته بالغثيان. وانتهى النقاش حول باكو وموقعها الجغرافي.

دق الجرس، فغادر الأستاذ سانين الفصل متنفساً الصعداء، واندفع أربعون تلميذاً خارج الفصل. كانت الفسحة الكبيرة، وكان أمام المرء ثلاثة أشياء يمكن أن يفعلها: أن يعدو إلى الفناء لبدأ الشجار مع تلاميذ المدرسة المجاورة، لأنهم يرتدون أزياء بأشرطة وأزرار ذهبية، بينما نقنع بالأشرطة والأزرار الفضية، أو نتحدث سويًا بصوت عال باللغة التتارية، لأن الروس لا يفهمونها وكانت ممنوعة منعًا باتًا - أو عبور الشارع بسرعة والتسلل إلى ليسيوم الملكة تامار المقدسة للنبات. وهو ما قررت أن أفعله. النباتات يتجولن في الحديقة، بفساتين زرقاء محتشمة ومرايل بيضاء. لوح لي عائشة بنت عمي. كانت تسير مع نينو كيباني وكل منهما تمسك بيد الأخرى، وكانت نينو كيباني أجمل فتاة في العالم. حين حدثت الفتاتين عن معركة الجغرافيا عبرت أجمل فتاة في العالم عن اشمئزازها بأجمل أنف في العالم وقالت: "علي خان، أنت غبي. احمد الرب لأننا في أوروبا. لو كنا في آسيا لألزموني بارتداء الحجاب، وما كنت لتراني". استسلمت. سمح لي الموقع الجغرافي غير المحدد لباكو بالنظر إلى أجمل عيني في العالم. تركت الفتاتين وانتابني شعور بالغم فتهربت من المدرسة وقضيت بقية اليوم في اللعب. نظرت إلى الجمال وإلى البحر، فكرت في أوروبا وآسيا، في عيون نينو الجميلة، وحزنت. اقترب مني متسول بالي الوجه واليدين بفعل المرض. أعطيته بعض النقود، حاول تقبيل يدي لكنني كنت هلعا



فانتزعتها منه. شعرت، بعد عشر دقائق، بأنى أهنته، وقضيت ساعتين بحثاً عنه، لأصحح الأمر. لم أعثر عليه فعدت إلى البيت معذب الضمير. كان ذلك منذ خمس سنوات.

حدثت أمور كثيرة في هذه السنوات الخمس. وصل ناظر جديد، كان يحلو له أن يقبض على ياقاتنا ويرجنا، وكان ضرب التلاميذ ممنوعاً منعاً باتاً. شرح لنا مدرس الدين بإسهاب شديد مدى رحمة الله بنا لأننا ولدنا مسلمين. انضم إلينا اثنان من الأرمن وروسي، ورحل مسلمان: واحد لأنه تزوج في السادسة عشر، والآخر لأنه قُتل في الأجازة في عملية ثأرية. وأنا، علي خان شرفشير، زرت داغستان ثلاث مرات، وزرت تفليس مرتين وكسلوفودسك مرة، وزرت إيران مرة لأعيش مع عمي، وكدت أرسب في أحد الأعوام لأنني لم أعرف الفرق بين جرُنْدِيوم وجرُنْدِيَفيوم. ذهب والدي إلى الملا في المسجد ليستشير، فقال له إن اللغة اللاتينية ليست سوى ضلالات عقيمة. ارتدى والدي كل ما يملك من الزينة التركية والإيرانية والروسية، وذهب إلى الناظر، وتبرع ببعض الأجهزة لمعمل الكيمياء ونجحت. وضع إعلان في المدرسة يحرم على التلاميذ تحريماً تاماً دخول المدرسة بمسدسات مشحونة، تم توصيل التليفون إلى المدينة، ومازلت نينو كيباني أجمل فتاة في العالم.

والآن كل ذلك على وشك الانتهاء، لم يتبق على امتحان آخر العام إلا أسبوع واحد، في البيت أفكر في جدوى دفع رسوم اللغة اللاتينية على شط بحر قزوين. أحب غرفتي في الطابق الثاني من منزلنا. تغطي حوائطها

سجاجيد داكنة اللون من بخارى وأصفهان وكوشان. عليها نقوش لحدائق وبحيرات، غابات وأنهار، كما رآها نساج السجاجيد بأحاسيسه، بصورة لا يدركها الإنسان العادي، وتبدو بالغة الجمال في عيني الخبير. جمعت البدويات في الصحراوات البعيدة الأعشاب لهذه الألوان من شجيرات برية شائكة، وعصرتها أصابع طويلة ونحيلة. ويعود سر إعداد هذه الألوان الرائعة إلى مئات الأعوام، وكثيراً ما يحتاج النساج لأكثر من عقد من الزمان لإنهاء عمله الفني. ويعلق على الحائط مليئاً برموز سرية وإيماءات ومشاهد قنص فرسان يجاربون، مع بيت للفردوسي، أو اقتباس من أعمال السعدي، لزخرفة الأطراف. تبدو الغرفة مظلمة لوجود عدد كبير من البسط والسجاجيد. في الغرفة أريكة منخفضة وكرسيان صغيران مطعمان بعرق اللؤلؤ، ووسائد ناعمة، وبين كل ذلك، أشياء غير ضرورية مبعثرة، كتب المعرفة الغربية: الكيمياء والفيزياء وحساب المثلثات - مواد همقاء ابتكرها برايرة ليخلقوا انطباعاً بأنهم متحضرون. طويّت الكتب وصعدت إلى سطح المنزل. حيث أستطيع رؤية عالمي، الجدار الهائل لحصن المدينة وبقايا القصر وخطوط عربية على البوابة. كانت الإبل تسير عبر انحناءات الشوارع وكواحلها رقيقة لدرجة تجعل المرء يود عناقها. انتصب أمامي برج العذراء، المحاط بالأساطير والمرشدين السياحيين. خلف البرج يبدأ البحر، بحر قزوين عديم الهوية بكل معنى الكلمة، الرديء الذي لا يسبر غوره، ووراء تمتد الصحراء - صخور خشنة وأعشاب شائكة: ساكنة خرساء لا تُقهر، أجمل منظر طبيعي في العالم. جلست هادئاً على السطح. وكأن وجود مدن أخرى وأسطح أخرى ومشاهد أخرى أمراً لا يعنيني. كنت أحب البحر المنبسط

والصحراء المنبسطة وبينهما البلدة القديمة. تأتي حشود صاحبة بحثًا عن البترول وحين يعثرون عليه ويغتنون، يغادرون مرة أخرى، ليسوا أهل باكو الحقيقيين. لا يحبون الصحراء.

أحضر الخادم الشاي. شربته وأنا أفكر في الامتحان. لم يكن يخيفني. سأنجح بالتأكيد. وإذا لم أنجح فذلك لا يهم. سيقول الفلاحون في ضياعنا إنني لا أستطيع الابتعاد عن بيت الحكمة. وكان ترك المدرسة مؤسفًا حقًا. الزي الرمادي، بأزراره الفضية وشرائطه وعقدة شريط القبعة، بالغ الأناقة. سأشعر بالخزي في الملابس المدنية. لن أرثديها طويلاً. سأرثديها لصيف واحد فقط - ثم أذهب إلى موسكو للالتحاق بمعهد لازاريف للغات الشرقية. قررت ذلك بنفسني، لأنني سأتفوق هناك على الروس. سيكون تعلم كل ما يمثل طبيعة ثانية بالنسبة لي أمرًا بالغ الصعوبة بالنسبة لهم. وزني معهد لازاريف من أجل الأزياء: معطف أحمر وقلادة ذهبية وسيف حاد مطلي بالذهب وقفاز جلدي طوال أيام الأسبوع. إذا لم يرتد المرء زياً فسيحتقره الروس. وإذا احتقرني الروس فسوف ترفض نينو الزواج مني. لكن، يجب أن أتزوج نينو ولو كانت مسيحية. الجورجيات أجهل نساء الأرض. ماذا لو رفضت؟ حسناً، سأستعين ببعض الرجال الشجعان وأخطفها على صهوة حصاني وأعبر الحدود الإيرانية إلى طهران. وهناك ستوافق، هل يكون أمامها غير ذلك؟ كانت الحياة في عيني، من على سطح منزلنا في باكو، جميلة وبسيطة.

لمس الخادم كريم كتفي قائلاً: "حان الوقت"، فانتبهت. في الأفق، وراء

جزيرة تَرْجِين، ظهرت سفينة بخارية. وإذا وثقت في قصاصة مطبوعة من الورق، في تلغراف جاء به موظف مسيحي، فسيصل عمي مع زوجاته الثلاث ومُخصَّيْن على تلك السفينة. علىَّ أن أقبله. نزلت السلام عدوًّا إلى عربة في انتظاري. انطلقنا بسرعة إلى الميناء الصاخب.

كان عمي رجلًا مرموقًا. أنعم عليه الشاه نصر الدين بلقب أسد الدولة، وما كان لأحد أن يناديه بغير هذا اللقب. له ثلاث زوجات وعدد كبير من الخدم، وقصر في طهران، وضياع واسعة في مازندران. جاء إلى باكو لعلاج إحدى زوجاته، زينب الصغيرة. لم تتجاوز الثامنة عشر، وعمي يحبها أكثر من زوجتيه الآخرين. لم ترزق بأطفال، ويود عمي أن ينجب منها. لم تنفع معها أحجبة دراويش كربلاء أو تعاويد حكماء مشهد، ولم تنفع معها نصائح عجائز طهران، الخبرات في فنون الحب. وقامت حتى برحلة إلى همدان. حيث ينتصب تمثال هائل للأسد، نُحِتَ من الصخر الأحمر، يرنو بعيدًا عبر الصحاري الشاسعة بعيون سحرية عجيبة. أقامه ملوك قداماء، تم نسيانهم تقريبًا. تزور النساء، منذ قرون بعيدة، هذا الأسد، ويقبلن عضوه الهائل متمنيات أن يرزقن بأطفال وينعمن بالأمومة. ولم يُجِدِ الأسد نفعًا مع زينب المسكينة.

جاءت إلى باكو بحثًا عن مهارة أطباء الغرب. مسكين عمي! عليه أن يصطحب معه زوجتيه الآخرين المستتين اللتين لا تحظيان بحبه. لأن الشريعة تنص على: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ حِفْظُكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾. والعدل بينهما يعني معاملتهما بالتساوي،

اصطحابهن في الرحلة إلى باكو على سبيل المثال.

لم يكن ذلك يعني شيئاً بالنسبة لي. يقع مكان النساء في الأندرن، في الجزء الداخلي من البيت. لا يمكن لرجل مهذب أن يتحدث إليهن، أو يستفسر عنهن، أو يعرض عليهن خدماته. إنهن ظل الرجل، حتى لو كان الرجل لا يشعر بالسعادة إلا في الظل. إنه أمر طيب يتسم بالحكمة. في بلادنا مثل شعبي: "للمرأة إحساس بقدر شَعْر البِيضَة". كائنات يفتقرن إلى الإحساس، ويجب مراعاتهن حتى لا يتسببن في كارثة تحل بهن وبالأخرين. أعتقد أنها قاعدة تتسم بالحكمة.

اقتربت السفينة البخارية من المرسى. وضع جنود أقوياء بصدور مشعرة سلم المهبوط في موضعه. أسرع المسافرون في النزول: روس وأرمن ويهود، نزلوا بسرعة وعجلة كما لو كانوا حريصين على كل دقيقة. لم يظهر عمي. ربما قال: "العجلة من الشيطان". وبعد أن غادر كل المسافرين السفينة ظهر "أسد الدولة" في صورة أنيقة على ظهر السفينة؛ يرتدي معطفًا بثنية صدر من الحرير، وطاقية صغيرة سوداء من الفرو، وخفًا. صُبِغَتْ لحيته الطويلة وأظافره بالحناء في ذكرى استشهاد الحسين الذي قُتِلَ منذ ألف عام دفاعًا عن الإيمان الحقيقي. عيناه ضيقتان ومجهدتان وخطواته بطيئة. وراءه ثلاث شخصيات في خُمُر سود، يبدو عليهن التوتر: إنهن زوجاته. وراءهن المخصَّيَّان: أحدهما يشبه سحلية جافة حكيمة، والآخر ضئيل، منتفخ ومزهو لأنه حامي شرف سعادته. نزل عمي ببطء. عانقته وقبلت كتفه الأيسر توقيراً له، ولم يكن ذلك ضروريًا في مكان عام. لم التفت إلى

زوجاته. ركبنا العربى وتبعنا الزوجات والمخصّصيّان فى عربتين مغطّاتين. كانت منطقتنا رائعة، لذا أمّرتُ السائس بالانحراف إلى طريق المنتره لتحظى المدينة بإعجاب فخامة العم.

نينو تقف فى المنتره، نظرت إلى بعينين ضاحكتين. حك عمى لحيته الأرسقراطية وسألنى عن أخبار البلدة. "لا يوجد شيء مهم"، قلت ذلك لأنى أعرف أن من واجبى البدء بأشياء تافهة لأصل بعد ذلك إلى المهم. "فى الأسبوع الماضى قام داداش بج بطعن بج أكوند حتى الموت، لأن أكوند سادى عاد إلى البلدة وهو يعرف الخطر الذى ينتظره، فقد خطف زوجة داداش بج منذ ثمانى سنوات. طعنه يوم عاد. يفتش البوليس عن داداش بج. لن يعثروا عليه مع أن الكل يعرف أنه فى قرية مرّداكىنى. يرى الحكماء أن داداش بج فعل ما يجب". هزّ العم رأسه موافقًا. هل هناك أخبار أخرى؟ "عثر الروس على البترول فى بيبي إبيات. وجلبت شركة نوبل الكبرى آلة ألمانية كبيرة إلى البلد، لتملأ جزءًا من البحر، وتحفر لاستخراج البترول". اندهش عمى بشدة. وقال: "الله، الله"، ومط شفثيه تعبيرًا عن عبوس شديد. "وفى البيت كل شيء على ما يرام، وبإذن الله سأغادر المدرسة خلال أسبوع".

واصلتُ الحديث والعجوز يستمع بتركيز، وحين اقتربت العربى من البيت، نظرت جانبًا وقلت بلا مبالاة: "وصل المدينة طبيب روسى شهير. يقول الناس إنه واسع المعرفة، يرى الماضى والحاضر فى وجوه الناس، ويتنبأ بالمستقبل". أغلق العم عينيه على حزن نبيل. وبهدوء تام سأل عن اسم

الحكيم، وشعرت برضاه التام عني. وهو ما يعرف بيننا بالسلوك الطيب  
والتربية الأرسقراطية.





## 2

فرشت على السطح المنبسط بسط ناعمة، كثيرة الألوان بأسلوب بربرى غريب. جلسنا أنا وأبي وعمي، مربعي الأرجل، وكان هناك حاجز يحمينا من الرياح. وقف الخدم خلفنا ممسكين بالمصابيح. وأمامنا على السجادة مجموعة كاملة من أطيب الأطعمة الشرقية الشهية: كعك بالعسل، فاكهة بالسكر، شيش كباب، وأرز بالدجاج والزبيب. أثارت إعجابي براعة أبي وعمي، كما أثارت من قبل. بدون أن يحرك أي منهما يسراه على الإطلاق قطع كسرة كبيرة من الخبز الأسود وكورها ووضعها في فمه. برشاقة فائقة وضع إصبعين وإبهام يده اليمنى في الأرز الدسم الذي يتصاعد منه البخار، وأخذ حفنة منه، وقبض عليها بقوة محوِّلاً إياها إلى كرة، ووضعها في فمه دون أن تسقط حبة واحدة. لماذا يتباهى الروس كل هذا التباهي ببراعتهم في تناول الطعام بالسكين والشوكة؟ حتى أغبى إنسان يمكن أن يتعلم

ذلك في شهر. أعرف كيف أتناول الطعام في سهولة تامة بالسكين والشوكة وأعرف كيف أتصرف على مائدة أوروبية. لكنني حتى مع بلوغي الثامنة عشرة، لا أستطيع تناول قدر كبير من الأطباق الشرقية ببراعة أرستقراطية تامة، كما يفعل أبي وعمي، باستخدام إصبعين وإبهام اليد اليمنى فقط، بدون أن تسقط ذرة من الطعام، حتى في كف أي منهما. تصف نينو طريقتنا في تناول الطعام بالبربرية. تتناول أسرة كيباني الطعام على المائدة دائماً، بالطريقة الأوروبية. ونحن لا نفعل ذلك إلا في حضور ضيوف روس، وتنزعج نينو من فكرة جلوسي على الأرض وتناول الطعام بيدي. وتنسى أن والدها لم يمسك بالشوكة إلا في العشرين.

انتهينا من تناول الطعام. غسلنا أيدينا، وتلا العم دعاءً قصيراً. رفع الطعام من أماننا. وقدمت لنا أكواب الشاي الثقيل الغامق، وبدأ عمي يتحدث كما يفعل المسنون بعد وجبة شهية؛ إطناب مع بعض الثثرة. لم يتحدث والذي كثيراً، ولم أنطق بكلمة طبقاً للعرف. وكعادة عمي دائماً حين يأتي إلى باكو، تحدث عن أيام الشاه نصر الدين العظيم، حين لعب هو نفسه دوراً بالغ الأهمية في البلاط، وإن كان مبهماً بالنسبة لي. قال عمي: "لثلاثين عاماً، كنت من المقربين في حاشية ملك الملوك. اصطحبني جلالته ثلاث مرات في أسفاره الخارجية. وفي تلك الأسفار عرفت عالم الكفار أكثر من أي شخص آخر. زرنا قصور الملوك والأباطرة حيث قابلت ألع الشخصيات. إنه عالم غريب وأغرب ما فيه طريقة تعاملهم مع نسائهم. تتجول النساء، حتى نساء الأباطرة والملوك، عاريات في القصور، ولا

يستنكر ذلك أحد. ربما لأن المسيحيين ليسوا رجالاً بمعنى الكلمة، وربما لسبب آخر، العلم لله وحده. وعلى العكس يستنكر الكفار أشياء لا ضرر منها. ذات يوم دعي جلالته إلى وليمة في قصر القيصر. جلست الإمبراطورة بجواره. كان في طبق جلالته قطعة رائعة من الدجاج. تعبيراً عن الكياسة تناول جلالته تلك القطعة السمينة ببراعة بإصبعيه وإبهامه ووضعها في طبق الإمبراطورة. شحب وجه الإمبراطورة، وبدأت في السعال، انتابتها حالة من الهلع. وسمعنا فيما بعد أن عددًا كبيرًا من رجال الحاشية والأمرء في قصر القيصر بهتوا من لطف الشاه. إلى هذه الدرجة يقلل الأوروبي من شأن نسائه.

يظهرون عريهن على الناس جميعًا، ولا يبالين بلطفهم معهن. بعد انتهاء الوجبة عانق السفير الفرنسي زوجة القيصر ودارا حول البهو على أصوات موسيقى صاخبة. لم يبال القيصر أو حراسه، لم يتقدم أحد للدفاع عن شرفه. ورأينا في برلين ما هو أعجب. دعينا إلى أوبرا 'الأفريقية'. وقفت على خشبة المسرح سيدة مفرطة السمنة وغنت بصوت رهيب. كرهنا صوت المرأة كرهًا شديدًا. لاحظ الإمبراطور فيلهلم ذلك وعاقب المرأة في الحال. في المشهد الأخير جاء عدد كبير من الزوج حاملين محرقة كبيرة. ربطوا المرأة من يديها ورجليها وحرقت ببطء حتى الموت. وسعدنا كثيرًا بذلك. وبعد ذلك قال لنا شخص إن تلك النار لم تكن إلا نارًا رمزية. ولم نصدق، لأن المرأة صرخت هلعًا بالضبط كما فعلت حورية العين التي حرقها الشاه في طهران قبل أن نبدأ رحلتنا".

جلس العم صامتاً مستغرقاً في أفكاره وذكرياته بعض الوقت، ثم أخذ نفساً عميقاً وواصل: "ثمة أمر يتعلق بالمسيحيين لا أستطيع فهمه. لديهم أقوى الأسلحة وأمهر الجنود وأحسن المصانع التي ينتجون فيها كل ما يحتاجون إليه ليقهروا أعداءهم. كل إنسان يبتكر شيئاً ما لقتل الآخرين بسهولة وبسرعة وبأعداد هائلة يبجل، يصنع ثروة كبيرة ويستحق التكريم. هذا حسنٌ وصحيحٌ. الحرب حتمية. ومن ناحية أخرى يبني الأوروبيون الكثير من المستشفيات، ومن يداوي جنود أعدائه ويطعمهم يبجل ويكرم أيضاً. وكان الشاه، سيدي الشهير، يرتبك حين يرى أن الرجال الذين يفعلون الأضداد يكافئون بالدرجة نفسها. ذات مرة جرى حديث بينه وبين الإمبراطور في فيينا حول ذلك، وكان الحصول على تفسير لهذا السلوك العبثي مستحيلاً. ومع ذلك يحتقرنا الأوروبيون، لأننا قد نتخذ أربع زوجات، مع أنهم كثيراً ما يتخذون أكثر من أربع، ولأننا نحيا ونحكم كما أمرنا الله".

دخل الليل. صمت العم. بدا ظله كظل طائر نحيل عجوز. فرد ظهره وسعل كما يفعل المسنون، وقال بحماس: "حتى لو كان الأمر كذلك، مع أننا نفعل كل ما يأمرنا به ربنا ولا يفعل الأوروبيون شيئاً مما يأمرهم به ربهم، إلا أن قوتهم تنمو باستمرار، وتراجع قوتنا. من يخبرني بالسبب؟" لم نستطع أن نقدم له سبباً. نهض العجوز المجهد ونزل السلام إلى غرفته. وتبعه والدي. رفع الخدم أكواب الشاي. بقيت وحيداً على السطح وطار النوم من عيني.

لف الظلام بلدتنا، فبدت كحيوان في كمين، يستعد للانقضاض أو

اللعب. كانت هناك بلدتان، واحدة داخل الأخرى، كنواة في بندقة. خارج الحائط القديم كانت البلدة الخارجية بشوارعها الواسعة وبيوتها العالية وسكانها الصاخبين الشرهين في طلب المال. شيدت هذه البلدة الخارجية لأن البترول يتدفق من صحارينا ويجلب الأثرياء. كان فيها مسارح ومدارس ومستشفيات ومكتبات ورجال بوليس ونساء جميلات يكشفن عن أكتافهن. إذا جرى إطلاق نار في البلدة الخارجية فهو دائماً بسبب الفلوس. تبدأ الحدود الجغرافية لأوروبا في البلدة الخارجية، حيث كانت نينو تعيش. داخل السور القديم البيوت ضيقة ومتعرجة كالخناجر الشرقية. تخرق المآذن القمر اللطيف، فتختلف تماماً عن منصات البترول التي نصبته شركة نوبل. يرتفع برج العذراء على الحائط الشرقي للمدينة القديمة. وقد أمر محمد يوسف خان، حاكم باكو، ببنائه على شرف ابنته، التي كان يتمنى أن يتزوجها. ولم يتحقق هذا الزواج من المحارم أبداً. ألفت الابنة نفسها من البرج وأبوها الذي يحبها بجنون يتعجل الدخول إلى غرفتها. وتعرف الصخرة التي وقعت عليها وماتت بصخرة العذراء. أحياناً تغطي هذه الصخرة بالزهور، هدية لعروس في اليوم السابق ليوم الزفاف.

سالت دماء كثيرة عبر القرون في أزقة بلدتنا. وهذه الدماء تجعلنا أقوياء وشجعان. تقع بوابة زيزياناشفيلي أمام بيتنا، حيث سالت أيضاً دماء نبيلة، وأصبحت جزءاً من تاريخ عائلتنا. كان ذلك منذ سنوات طويلة، حين كان وطننا، أذربيجان، تابعاً لإيران، وحسن قولي خان يحكم العاصمة باكو. حاصر الأمير زيزياناشفيلي بلدتنا، وهو جنرال جورجي في جيش

القيصر. أعلن حسن قولي خان الاستسلام للقيصر الأبيض العظيم، وفتح البوابة، وترك الأمير زيزياناشفيلي يدخل. دخل الأمير البلدة على صهوة حصانه بصحبة نفر من ضباطه. أقيمت وليمة في الميدان الواقع خلف البوابة. وأشعلت النيران في محارق وتم شواء ثيران كاملة. تجرع الأمير زيزياناشفيلي كميات كبيرة من الخمر، ومال برأسه الثقيل على صدر حسن قولي خان. ثم انتزع جدي، إبراهيم خان شرفشير، خنجرًا كبيرًا معقوفًا وقدمه إلى السيد حسن قولي خان. تناول حسن قولي خان الخنجر وقطع رقبة زيزياناشفيلي ببطء. تناثر الدم على رداءه، لكنه واصل القطع حتى انفصل رأس الأمير في يده. وضع الرأس في كيس ممتلئ بالملح، وحمله جدي إلى طهران حيث قدمه إلى ملك الملوك. وقرر القيصر أن يثار من القتال. أرسل جيشًا إلى باكو. حبس حسن قولي خان نفسه في القصر وأخذ يصلي ويفكر في الغد. وحين تسلق جنود القيصر السور فر عبر نفق إلى البحر ومن هناك إلى طهران. قبل أن يدخل النفق كتب جملة واحدة زاخرة بالحكمة: "من يفكر في الغد لا يمكن أن يكون شجاعًا".

في الطريق من المدرسة إلى البيت كثيرًا ما أتجول في القصر المهدم. أتجول في قاعة العدل الخالية المهجورة بصفوف أعمدتها المغربية الضخمة. من المفترض أن يذهب المواطنون الساعون إلى العدل إلى القاضي الروسي خارج السور. لكن لا أحد يذهب إلى القاضي الروسي، وإذا ذهب أحد فسيحترقه الحكماء، ويخرج له الأطفال ألسنتهم في الشوارع. ليس لأن القضاة الروس سيئون وظالمون. إنهم بالعكس طيبون وعادلون بصورة

لا يجبها أهلنا. يوضع السارق في السجن، حيث يجلس في زنزانتة النظيفة، ويقدم له الشاي، بل وقد يوضع فيه السكر أيضًا. لا أحد يكسب شيئًا من وراء ذلك، وخصوصًا المسروق. يستنكر الناس ذلك ويحققون العدل بطريقتهم الخاصة. بعد الظهر يأتي المدعون إلى المسجد حيث يجلس الحكماء المسنون في حلقة ويصدرون أحكامًا طبقًا لقوانين الشريعة، قانون الله: "العين بالعين، والسن بالسن". في الليل يتسلل، أحيانًا، أشخاص ملثمون عبر الأزقة. يلمع الخنجر كالبرق، تنطلق صرخة واهية، وينفذ العدل. تجري الضغائن الدموية من بيت إلى بيت. أحيانًا يحمل كيس عبر الأزقة في أحلك ظلمات الليل. أنين مكتوم، صوت ارتطام ضعيف في البحر، ويختفي الكيس. في اليوم التالي يجلس رجل على أرض غرفة، ورداؤه ممزق، وعيناه مفعمتان بالدموع. لقد نفذ شرع الله: الموت للزانية. بلدتنا مليئة بالأسرار والأمور الغامضة، في أركان خفية وأزقة صغيرة. أحب هذا اللغظ الواهي في الليل، والقمر على الأسطح، وأوقات بعد الظهر الحارة الهادئة في ساحة المسجد في مناخ التأمل الصامت. شاء الله أن أولد هنا، مسلمًا شيعيًا، على مذهب الإمام جعفر. قد تشملني رحمته ويتوفاني هنا، في الشارع نفسه، في البيت نفسه حيث ولدتُ. أنا ونينو، المسيحية التي تتناول الطعام بالسكين والشوكة، نينو ذات العينين الضاحكتين، نينو التي ترتدي جوربًا حريريًا محكمًا.





### 3

كان زي حفل خريجي المدرسة بياقة مزينة بالفضة. أبازيم الأحزمة الفضية والأزرار الفضية تبرق. الملابس الرسمية الرمادية مكوية ومازالت دافئة. وقفنا في ساحة المدرسة الكبيرة هادئين بلا قبعات. بدأ الجزء الديني من الاختبار، وفيه نتضرع جميعاً لرب الكنيسة الأرثوذكسية ليساعدنا، كنا أربعين ولم يكن بيننا سوى اثنين من أتباع كنيسة الدولة.

بدأ القس الأرثوذكسي الصلاة، بثياب الاحتفالات، ثياب مثقلة بالذهب، وشعره الطويل المعطر، والصليب الكبير في يده. كان الهواء معبّاً بالبخور، سجد المدرسون والاثنا عشر التابعان لكنيسة الدولة. رنت كلمات القس، التي ينطقها بترنيمات الكنيسة الأرثوذكسية، في آذاننا. كم سمعناها، بملل وضجر، خلال الأعوام الثمانية: "لتكن بركة الرب مع الحاكم المسيحي التقي القوي، القيصر نيقولا الكسندروفيتش... ومن أجل

كل البحارة والمسافرين، من أجل كل من يتعلموا ويعانوا، من أجل كل المقاتلين الذين يفقدون أرواحهم في ميدان الشرف دفاعاً عن الدين الحق، من أجل القيصر والوطن، ومن أجل كل المسيحيين الأرثوذكس باركنا يا رب..". بحلقت في الحائط ضجرًا. كان هناك إطار ذهبي ضخمة يحمل صورة الحاكم التقي القوي، القيصر، بالحجم الطبيعي، وكان يبدو كأيقونة بيزنطية تحت النسر الهائل. كان وجه القيصر طويلاً، وشعره أصفر، ينظر إلى الأمام بعينين مشرقيتين باردتين. وعدد كبير من النياشين على صدره. ثماني سنوات أحاول إحصاءها وأفضل دائماً في العد نتيجة للزينة المفرطة. في السابق كانت صورة الإمبراطورة معلقة بجوار صورة القيصر، لكنها رفعت من مكانها. امتعض المسلمون من فستانها القصير، وامتنعوا عن إرسال أطفالهم إلى المدرسة.

شعرنا بالهيبة والقس يصلي. كان ذلك اليوم، رغم كل شيء، أكثر الأيام إثارة. من الصباح الباكر قدمت أقصى ما في وسعي ليمر بشكل يناسب الموقف العظيم. أولاً عزمت على أن أكون لطيفاً مع كل من في البيت، وكان معظمهم نياماً. ثم في الطريق إلى المدرسة تصدقت على كل المتسولين الذين قابلتهم - فقط لأشعر بالأمان. كنت مثاراً لدرجة أنني أعطيت أحدهم روبلاً كاملاً بالإضافة إلى خمسة كوبيكات. وحين أسرف في شكري قلت بكل نبل: "لا تشكرني، بل احمد الله الذي جعل يدي وسيلة لتوزيع الإحسان". بالتأكيد لن أرسب بعد اقتباس هذه العبارة التي تنم عن الورع.

انتهت الصلاة. شكلنا طابوراً وسرنا إلى منضدة الممتحنين. جلسوا

في صف خلف المنضدة الطويلة وبدوا كأنهم من وحوش ما قبل التاريخ،  
 لحى سوداء ونظرات كثيبة وأزياء الاحتفالات المذهبة. كان كل شيء مهيباً  
 ومرعباً، حتى لو كره الروس رسوب تلميذ مسلم، لأن لنا جميعاً أصدقاء،  
 وأصدقاءؤنا شبان أقوياء يحملون الخناجر والمسدسات. يعرف المدرسون  
 ذلك ويرهبون الأشقياء المتوحشين الذين هم تلاميذهم بقدر ما يرهب  
 التلاميذ المدرسين. معظم الأساتذة يعتبرون إرسالهم إلى باكو عقاباً من الرب.  
 وحوادث الاعتداء على المدرسين وضربهم في الأزقة المعتمدة ليست نادرة.  
 ولا يعثر على المعتدي أبداً، ويرسل المدرس إلى مكان آخر. لهذا يغضون  
 الطرف حين ينقل التلميذ علي خان شرفشير حل مسائل الرياضيات من  
 ميتالنيكوف الذي يجلس بجواره. فقط ذات مرة وأنا أغش اقترب مني  
 المدرس وهمس في يأس: "ليس بهذه الطريقة المكشوفة يا شرفشير، لسنا  
 وحدنا!"

وهكذا مر امتحان ورقة الرياضيات بسلام. تجولنا بسعادة، وتنفسنا  
 الحرية في شارع نيقولاي. وكان برنامج اليوم التالي يشمل امتحان ورقة  
 اللغة الروسية. جاءت المواضيع، كما كان الحال دائماً، في رسالة مقفولة  
 بالختم من تفليس. فض الناظر الختم وقرأ بصوتٍ مهيب: اكتب مقالاً  
 عن "الشخصيات النسائية في أعمال تورجنيف باعتبارها تجسيداً للمرأة  
 الروسية". وقد حصلت على درجات ذلك اليوم بقدر ما امتدحت الروسيات.  
 وكانت ورقة الفيزياء أصعب. وحين كانت المعرفة تخذلني كان فن الغش  
 يساعدي. وهكذا مر امتحان الفيزياء أيضاً على خير، ووافقت اللجنة على  
 منح الراسبين يوم راحة. ثم بدأت الامتحانات الشفوية. وفيها لا يفيد المرء

إلا ما حصله. عليك تقديم إجابات معقدة لأسئلة بسيطة. وكان امتحان الدين هو البداية. كان مدرس الدين، الملا، يجلس عادة بهدوء في الخلفية، لكنه جلس ذلك اليوم فجأة في الصدارة، في رداء طويل فضفاض، مرتدياً الوشاح الأخضر، الذي يرتديه خليفة النبي عادةً. كان عطوفاً على تلاميذه. لم يسألني إلا عن شعار العقيدة، وحصلت على الدرجة النهائية بعد أن رددت كولد طيب شعار الشيعة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلي ولي الله"، والجزء الأخير له أهمية خاصة، لأنه يميز بين الشيعة الأتقياء والأخوة السنيين، ومنهم من سيشمله الله ببعض رحمته. هكذا علمنا الملا، وكان رجلاً يتبنى آراء ليبرالية.

ولم يكن مدرس التاريخ ليبرالياً على الإطلاق. سحبت ورقة فيها موضوع لم يكن جيداً. كان بها: "انتصار ماداتوف في جنجا. ولم يسترح المدرس أيضاً للموضوع. في معركة جنجا قتل الروس غدرًا إبراهيم خان شرفشير الشهير، جدي، الذي ساعد حسن قولي خان في قطع رأس الأمير زيزياناشفيلي. "شرفشير، من حقك أن تطلب تغيير السؤال". كانت كلمات المدرس لطيفة. نظرت بارتياح إلى الإناء الزجاجي الذي يحتوي القصاصات التي كتبت عليها الأسئلة، وتبدو المسألة أمام الجميع وكأنها يانصيب. كان من حق كل تلميذ تغيير نصيبه مرة واحدة. ولا يفقد إلا فرصته في الحصول على أعلى الدرجات. لكنني لم أشأ أن أغامر بالخط. على الأقل كنت أعرف كل ما يتعلق بموت جدي. في الإناء الزجاجي أسئلة بالغة الصعوبة عن فردريك ويلهلمز في بروسيا، أو عن أسباب الحرب الأهلية الأمريكية. من يعرف هذه الأشياء؟ هزرت رأسي رافضاً. ثم تحدثت، بأفضل ما أستطيع ومتحلياً

بأكبر قدر من الأدب، عن الأمير عباس ميرزا الإيراني، الذي خرج من تبريز مع جيش من أربعين ألف رجلاً لطرده الروس من أذربيجان. وكيف قابله الجنرال الأرميني ماداتوف المرسل من قبل القيصر بجيش من خمسة آلاف رجلاً في جنجا، وأطلق نيران البنادق على الإيرانيين، الذين لم يسبق لهم أن سمعوا بالبنادق، وكيف سقط الأمير عباس ميرزا من على صهوة حصانه وزحف إلى خندق. تفرق الجيش، وأسر إبراهيم خان شرفنشير وأطلقت النار عليه حين حاول الفرار عبر النهر مع حشد من الفرسان. "لم يكن انتصار الروس بسبب شجاعتهم بل نتيجة التفوق التقني لبنادق ماداتوف. وكانت محصلة الانتصار مقاطعة تركمنشاي الآمنة، حيث وافق الإيرانيون فيها على دفع الإتاوات، وأدى اغتصابها إلى دمار خمس ولايات". بهذه الإجابة ضيعت النجاح حفاظاً على الشرف. كان عليّ أن أقول: "كان الانتصار نتيجة لبسالة هائلة أبداها الروس مما أرغم جيش العدو، الذي يبلغ عدد رجاله ثمانية أضعاف عدد رجالهم، على الفرار. وكانت محصلة الانتصار ضم مقاطعة تركمنشاي الآمنة، وبقوتها تمكنت إيران من الاتصال بثقافة الغرب وأسواقه". لكنني لم أبال، كان شرف جدي يعني بالنسبة لي ما يعنيه تماماً الفرق بين أن "أنجح بشرف" وأن "أنجح".

وكانت النهاية. ألقى ناظر المدرسة كلمة أخرى، أعلن بصوت ينم عن نبل وهذوء أخلاقي أن علينا الالتحاق بالجامعة، هبطنا السلام عدواً كمساجين أطلق سراحهم. كانت الشمس ساطعة. ورمال الصحراء الناعمة تغطي الشوارع. تلقينا التهئة من شرطي يقف في الركن وكان يحرسنا على مدى ثماني سنوات، ووهبه كل واحد منا خمسة كوبيكات. انطلقنا في

المدينة وكأننا عصابة من الأشقياء، نصيح ونصرخ. أسرعنا إلى البيت، واستقبلت استقبال الإسكندر بعد انتصاره على الفرس. تطلع إلى الخدم بإجلال. وأمطرنى والدي بالقبلات ووعدني بتحقيق ثلاث أمنيات - أي شيء أطلبه. وشعر عمي بأن هذا الرجل الحكيم يجب أن يكون في طهران، حيث يمكنه التصميم على تحقيق التفوق.

حين انتهت البهجة الأولى تسلفت إلى التليفون. لم أتحادث إلى نينو منذ أسبوعين. تقضي الحكمة بأن يبتعد الرجل عن النساء حين تكون حياته في مفترق الطرق. رفعت مقبض الآلة الضخمة، وأدريت الجرس وصحت في الساعة: "3381!" ورد صوت نينو: "نجحت يا علي؟"

"نجحت يا نينو."

"مبروك يا علي!"

"متى وأين يا نينو؟"

"في الخامسة عند بحيرة حديقة الحاكم يا علي". لم أستطع مواصلة الحديث. خلف ظهري ترصدني أذن أهلي بفضول، وأذن الخدم والمخصيين. وخلف ظهر نينو - أمها الأرستقراطية. من الأفضل أن أتوقف عن الكلام. والصوت بلا جسد، عمومًا، أمر بالغ الغرابة ولا يمكن أن يكون مصدر متعة حقيقية.

صعدت السلم إلى غرفة كبيرة مخصصة لوالدي. كان يجلس على الديوان، وعمي بجواره، يتناولان الشاي. وقف الخدم بجوار الحائط محدقين فيّ. لم ينتهِ الامتحان، وما كان لينتهي إلا بعد أمد طويل. لأنني آنذاك كنت على مشارف حياة الرشد، وعلى الأب أن يرشد الابن إلى حكمة

الحياة، بوضوح وعلى الملأ. كانت مؤثرة وتقليدية. "بني، الآن وأنت تبدأ حياتك أذكرك مرة أخرى بواجبات المسلم. نحن هنا في بلد الكفار. إذا أردنا أن نحافظ على أنفسنا من الاضمحلال فعلينا بالحفاظ على التقاليد القديمة، وعلى أسلوب حياتنا. أكثر من الصلاة يا بني، ولا تشرب الخمر، ولا تُقَبِّل نسوة غريبات، واعطف على الفقراء والمساكين. واستعد دائماً لسل سيفك دفاعاً عن العقيدة. إذا مت في ساحة المعركة فسأحزن عليك أنا الرجل العجوز، أما إذا عشت بلا شرف فسيجللني العار، أنا الرجل العجوز. لا تنس أعداءك، لسنا مسيحيين. لا تفكر في الغد، لأن ذلك قد يجعلك جبناً. لا تنس الإسلام أبداً، طبقاً للتفسير الشيعي للإمام جعفر". وبدا عمي والخدم وكأنهم في نشوة دينية. استمعوا إلى كلمات أبي كما لو كانت وحياً. ثم نهض أبي وأمسك بيدي وقال، وقد صار صوته فجأة عنيفاً ومزليلاً: "التمس منك شيئاً واحداً، لا تمارس السياسة! افعل ما شئت إلا ممارسة السياسة!" عاهدته على ذلك بضمير مستريح. كانت السياسة بعيدة عن تفكيري. ولم تكن نينو مشكلة سياسية. عانقني والدي مرة أخرى. كبرت بالفعل آنذاك.

وفي الرابعة والنصف عبرت زقاق الحصن باتجاه المنتزه، وأنا في زي الحفلة. ثم انحرفت يميناً خلف قصر الحاكم إلى حديقة أقيمت بجهود هائلة في صحراء باكو. كان شعور غريب. مربي حاكم البلدة في عربته، ولم انتبه إليه ولم أقدم له التحية العسكرية كما كنت أفعل على مدار السنوات الثماني السابقة. انتزعت من كابي الشريط الفضي، شارة المدرسة الثانوية في باكو. فبدوت كخريج. تجولت في المنتزه كمدني، وفي لحظة تهور فكرت

في إشعال سيجارة، ليراني الجميع. لكن كراهيتي للدخان كانت أقوى من إغواء الحرية. تخلّيت عن فكرة التدخين وحولت وجهتي إلى الحديقة. كانت حديقة واسعة متربة، أشجارها عارية وتبدو حزينة، وطرقها مرصوفة بالإسفلت. على يمينها سور الحصن القديم. في الوسط تنتصب الأعمدة الرخامية البيضاء لنادي المدينة. وبين الأشجار عدد لا يحصى من الأرائك. وكان يقف بين النخيل المغبرّ ثلاثة من طيور الفلامنجو، وكانت البحيرة القريبة من النادي، إذا جاز أن نسميها بحيرة، فهي عبارة عن خزان ضخم مستدير وعميق مبني من ألواح من الحجارة. فكر مجلس البلدة في ملئها بالماء ليسبح فيها الإوز العراقي. وكان ذلك صعباً. كان الماء عزيزاً ولم تكن هناك إوزة عراقية واحدة في البلاد. كان الخزان يحدق في السماء باستمرار كمحجر عين خال لعملاق ميت.

جلست على أريكة. الشمس ساطعة وراء البيوت الرمادية المتداخلة بصورة عشوائية في الميدان ووراء أسطحها المنبسطة. استطالت خلفي ظلال الأشجار. مرت بي امرأة في خمار أزرق مقلّم تطرّع بمداسها. برز فوق الخمار أنف معقوف. بدأ خدر غريب يزحف في جسدي. جميل ألا ترتدي نينو الخمار. هل أود ذلك؟ لا أتذكر شيئاً. رأيت وجه نينو في ضوء الشمس الغاربة. نينو كيياني - اسم جورجى جميل، من أبوين محترمين يعيشان عيشة أوروبية. ماذا كان ذلك يعني؟ نينو شقراء لها عينان قوقازيتان واسعتان، داكنتان وضاحكتان تحت رموش طويلة ورقيقة. تميز الجورجيات هذه العيون الحلوة المرحّة. لا تجدها في وجه بنت أخرى، سواء كانت أوروبية أم آسيوية. جفون رقيقة تشبه الهلال، ووجه يشبه وجه العذراء. حزنت.



أحزنتني المقارنة. أمام الرجل الشرقي مقارنات كثيرة. لكن هؤلاء النسوة لا يشبهن إلا السيدة مريم، وهي رمز لعالم غريب وغامض. تطلعت إلا الطريق الإسفلتي في حديقة الحاكم، وقد غطته رمال رائعة من الصحارى الشاسعة. أغلقت عيني. ثم سمعت ضحكة مستهترة بجواري: "يا قداسة القديس جورج! انظر، روميو غلبه النوم في انتظار حبيبته جوليت!" قفزت من مكاني. نينو تقف بجانبني، لم تبدل الزي الأزرق المحتشم لليسيوم تamar المقدسة. كانت شديدة النحافة، بدرجة لا تتواءم مع الذوق الشرقي. وهذا العيب بالذات جعلني أشعر بأنني حام حنون. كانت في السابعة عشر، عرفتها منذ سارت في شارع نيقولا في أول أيامها في المدرسة. جلست نينو. لمعت عيناها. "نجحت رغم كل شيء؟ خفت عليك كثيرًا".

وضعت ذراعي حول كتفها.

"كان أمر مثير. لكن الله يساعد من يخشاه".

ابتسمت نينو. "في خلال عام عليك أن تمثل لي دور الرب. ماذا سأفعل في الامتحان إذا لم تجلس تحت طاولتي وتهمس لي بحلول مسائل الرياضيات".

استقر الأمر منذ سنوات طويلة، منذ كانت نينو في الثانية عشرة، جاءت في الفسحة، غارقة في دموعها، تعدو عبر الطريق، سحبني إلى فصلها، جلست طوال الدرس تحت طاولتها أهمس لها بحلول مسائل الرياضيات. منذ ذلك اليوم وأنا بطل في عيني نينو.

سألت نينو: "ما أخبار عمك وحريمه". امتقع وجهي، يجب أن

تبقى شئون الحريم سرية. لكن أمام براءة الفضول الذي أبدته نينو تتراجع كل قواعد الأعراف الشرقية. تاهت يدي في شعرها الداكن: "حريم عمي على وشك العودة إلى ديارهن، ومن المدهش أن الطب الغربي يبدو أنه ساعدهن مع أن ذلك لم يتأكد بعد. وهو ما يتوقعه عمي ولا تتوقعه زينب زوجته".

قطبت جبهتها الطفولية: "كل ذلك سيئ. أبي وأمي ضد ذلك تمامًا. الحريم أمر مخز". تحدثت كتلميذة تردد درسا حفظته. لمست شفتاي أذنها: "لن ألتزم حرياً على الإطلاق يا نينو".

"لكن أظن أنك ستجعل زوجتك تلبس الخمار!"

"ربما، على حسب الظروف. الخمار مفيد، يحمي من الشمس والغبار ونظرات الغرباء".

امتقت نينو: "ستبقى آسيوياً على الدوام يا علي. ما المشكلة في نظرات الغرباء؟ تود المرأة أن تبهج".

"تبهج زوجها فقط؛ وجه مكشوف، وظهر عار، وثديان شبه مكشوفين، وجوارب شفافة على سيقان ملفوفة - كل هذه عهود على المرأة أن تصونها. الرجل الذي يرى كل ذلك يرغب في رؤية المزيد، ولإنقاذ الرجل من هذه الرغبات، على المرأة أن ترتدي الخمار".

نظرت إليّ نينو في ذهول. "هل تظن أن فتاة في السابعة عشرة وفتى في التاسعة عشر يتحدثان عن مثل هذه الأمور في أوروبا؟" "لا أظن ذلك".

قالت نينو بصرامة وضغطت على شفتيها: "علينا ألا نتحدث عنها".  
انسابت يدي على شعرها. رفعت رأسها، وأخر شعاع من شمس الغروب  
يسطع في عينيها. ملت عليها... فتحت شفتيها بحنان واستسلام. قبلتها  
قبلة طويلة لا تعرف الاحتشام. تنهدت. وتخلصت مني. صمتنا وحدقنا  
في الشفق. ثم نهضنا ببعض الارتباك. غادرنا الحديقة ويدي في يدها.  
قالت ونحن نسير: "هل ارتدي الخمار حقاً أم تفني بوعدك؟" ابتسمت في  
حياء. عاد كل شيء رائعاً وبسيطاً من جديد. رأيت بيتها.

قالت: "سآتي بالطبع إلى حفلتك".

"ماذا ستفعلين في الصيف يا نينو؟"

"في الصيف؟ نذهب إلى شوشا في كراباخ، لكن لا يجمع بك الخيال.  
هذا لا يعني أن تأتي أنت أيضاً إلى شوشا".

"حسناً، سأراك في شوشا حين يحل الصيف".

"يا لك من مزعج. لا أعرف لماذا أحبك". وأغلق الباب وراءها.  
ذهبت إلى البيت. ابتسم أحد المخصيين اللذين بصحبة عمي ابتساماً  
عريضة، المخصي الذي يشبه سحلية صامتة وحكيمة: "الجورجيات  
جميلات يا خان. لكن لا يجب تقبيلهن على الملاء، في الحداث العامة، حيث  
يسير كثير من الناس". قرصت أذنه الباهتة. يمكن أن يكون المخصي صفيقاً  
كما يجب. إنه محايد، ليس رجلاً وليس امرأة. مضيت إلى أبي: "وعدتني  
بتحقيق ثلاث أمنيات. أعرف الأولى الآن: أريد قضاء هذا الصيف في  
كراباخ وحدي". رمقني والذي بنظرة طويلة، ثم هز رأسه مبتسماً.



## 4

كان سينال أغا فلاحًا بسيطًا من قرية بنيجادي القريبة من باكو. كان يمتلك مزرعة صغيرة في الصحراء الجافة المغبرة، وكان يزرعها إلى وقت قريب، وكلما أتى زلزال أحدث صدعًا في مزرعته الفقيرة وتدفقت من هذا الصدع أنهارٌ من البترول. ومنذ ذلك الوقت لم يعد سينال أغا في حاجة إلى البراعة أو المهارة. لم يستطع الفرار من الثروة التي تهطل عليه. كان ينفق منها بكرم وبلا حدود، فتتجمع لديه ثروة أكبر، كانت عبئًا عليه حتى حطمته. كان يشعر بأن العقاب سيأتي حتمًا هذا الحظ السعيد عاجلاً أم آجلاً، عاش حياته في انتظار هذا العقاب كأنه مجرم في انتظار الإعدام. بنى مساجد ومستشفيات وسجون. حج إلى مكة، أسس ملاجئ للأطفال. لم يمهله القدر. خانت زوجته بنت الثامن عشرة، وقد تزوجها وهو في السبعين، فثار لشرفه كما جرى العرف بوحشية وعنف، وأصابه إعياء

شديد. تفرقت عائلته، تركه أحد الأبناء، وجلب آخر على نفسه عارًا لا يوصف باقتراف إثم الانتحار. كان يعيش في قصر من أربعين غرفة في باكو، هزيلًا حزينًا مقوس الظهر. وكان إلياس بج، الابن الوحيد الذي بقى له، أحد تلاميذ فصلي، والحفلة ستقام في بيت والده سينال أغا في ردهة كبيرة، سقفها من أجود أنواع الكريستال.

في الثامنة وصلت إلى الدرج الرخامي الواسع. كان إلياس بج واقفًا هناك يرحب بالضيوف. كان مثلي يرتدي زيًا قوقازيًا في حزامه خنجر حاد رائع. منذ ذلك الوقت حظينا أيضًا بهذا الامتياز. "السلام عليكم، يا إلياس بج!" صحت وأنا ألمس كابي بيدي اليمنى. تصافحت أيدينا على الطريقة الوطنية القديمة: ضغطت بيمناي على يميناه وضغط بيسراه على يساري: "سنغلق الليلة مستوطنة الجذام". همس إلياس بج. هزرت رأسي طربًا.

كانت مستوطنة الجذام ابتكارًا سرّيًا من ابتكارات فصلنا. لم يكن لدى المدرسين الروس فكرة عما يجري في بلدتنا وفي محيطها، وقد عاشوا وعملوا هنا لسنوات. كنا في نظرهم مجرد مواطنين متوحشين، وقد نؤكد لهم ذلك. هكذا ادعينا وجود مستوطنة للجذام قرب باكو، وإذا أراد أحد منا التزويغ من المدرسة، يذهب مندوب الفصل ويخبر مدرس الفصل، وأسناناه تصطك ببعضها، بأن بعض المرضى هربوا إلى بلدتنا، والشرطة تبحث عنهم. ويظن أنهم مختبئون في جزء من البلدة يسكنه التلاميذ الذين عزموا على الزوغان. يشحب لون المدرس ويأذن للتلاميذ بالابتعاد حتى

يتم القبض على المرضى. قد يستغرق الأمر أسبوعاً، وربما أكثر، على حسب الظروف، ولم يخطر أبداً ببال مدرس أن يستفسر من مكتب الصحة عما إن كانت هناك بالفعل مستوطنة قريبة للجذام. في تلك الليلة ستغلق مستوطنة الجذام.

دخلت الردهة وقد اكتظت بالفعل. الناظر يجلس في الركن، ومن حوله المدرسون، مرتدياً ملابس وقورة وفخمة بهذه المناسبة. ذهبت حيث يجلس وانحنيت احتراماً له. كنت المتحدث باسم التلاميذ المسلمين حين نتعامل مع الناظر، لأنني كنت أتمتع بغريزة قرد في التعامل مع اللغات واللهجات. بينما كان معظمنا يظهرون فشل غير الروس في نطق أول جملة روسية، كنت أستطيع حتى تقليد اللكنات الخاصة. كان ناظر المدرسة من بطرسبرج، وكنت أخاطبه "بلهجة بطرسبرج"، أي كنت ألثغ في نطق الحروف الساكنة وابتلع الحروف اللينة. وهذه الطريقة في النطق ليست بالغة الجمال، لكنها تعني الانتماء إلى طبقة راقية جداً جداً. لم يخطر ببال الناظر أبداً أنني أسخر منه، وأني كنت سعيداً بإضفاء صبغة روسية متنامية على هذه المنطقة الحدودية البعيدة.

قلت بلطف: "مساء الخير سيدي".

"مساء الخير يا شرفنشير، هل تخلصت من رعب الامتحانات؟"

"أوه، نعم سيدي. لكن من حينها أعاني من صدمة هائلة".

"أي صدمة؟"

"صدمة تتعلق بمستوطنة الجذام. كان ابن عمي سليمان هناك. تعرف أنه ملازم أول في فوج السليان. وقد ساءت صحته وكان عليّ الاعتناء به".

"لكن ما علاقة ذلك بمستوطنة الجذام؟"

"أوه؟ سيدي ألا تعرف؟ أمس هرب كل المرضى وساروا باتجاه البلدة. واستعدت سرّيتان من فوج السليان للتعامل معهم. احتل المرضى قريتين فحاصر الجنود القريتين وأطلقوا النار على كل من عشروا عليه سواء كان مريضاً أم لا. والحرائق تشتعل في كل البيوت الآن. أليس هذا مرعباً سيدي، لم يعد لمستوطنة الجذام وجود. سقطت من أجساد المرضى الأجزاء البالية، وحناجرهم تجلجل، أخرجوا من البلدة، وصب عليهم الزيت ببطء واحترقوا حتى الموت". ظهرت حبات من العرق على جبهة الناظر. وفكر بجدية في أن يطلب من الوزير نقله إلى مكان أكثر تحضراً.

قال بصوت أجش: "بلاد بشعة، أناس بشعون. لكن، ترون يا أبنائي أهمية وجود حكومة وحكام أكفاء يستطيعون العمل بسرعة". التف تلاميذ الفصل حول الناظر يستمعون بابتسامة عريضة إلى محاضرة عن أعجاد النظام. انتهت مستوطنة الجذام. وكان على التالين لنا ابتكار فكرة يتذرعون بها.

سألت ببراعة: "هل تعرف سيدي أن ابن محمد حيدر في السنة الثانية في مدرستنا؟"

"ماذا؟" جحظت عينا الناظر. كان محمد حيدر آفة المدرسة. كان يقضي ثلاث سنوات على الأقل في كل صف. تزوج في السادسة عشر،



وظل يذهب إلى المدرسة. كان ابنه في التاسعة، والتحق بالمدرسة نفسها. في البداية حاول الأب السعيد أن يجعل الأمر سرًا. وذات يوم جاء إليه في الفسحة الكبيرة طفل صغير قصير وبدين قال باللغة التتارية، وهو يتطلع إليه بعينين واسعتين وبريئتين: "بابا، إذا لم تعطني خمسة كوبيكات لأشتري شيكولاتة فسأخبر أُمِّي أنك نقلت واجب الرياضيات من شخص آخر". ارتبك محمد حيدر ارتباكًا شديدًا ولطم الطفل الوقح على خده، وطلب منا أن نخبر الناظر في الوقت المناسب عن أبوته.

تساءل الناظر: "هل تعني أن ذلك التلميذ الذي في الصف السادس، محمد حيدر، له ابن في الصف الثاني؟"

"نعم. إنه يطلب منك العفو. يريد أن يكون ابنه تلميذًا مثله. رائع حقًا أن تنتشر رغبة ملححة في المعرفة الغربية". امتقع وجه الناظر. واحتار صامتًا فيما إذا كان وجود الأب والابن في المدرسة ذاتها ضد قواعد المدرسة ولوائحها. لم يتوصل إلى قرار. فسمح للأب والابن بمحاصرة حصن الحكمة الغربية.

انفتح باب صغير. أزاح ولد في العاشرة الستائر الثقيلة جانبًا، وأدخل أربعة موسيقيين سود من إيران. مضى بهم إلى ركن الردهة وجلسوا على السجادة. صنعت آلاتهم العجيبة في إيران منذ قرون. صدرت نغمات حزينة. وضع أحد الموسيقيين يده على أذنه - الوضع التقليدي للمغني الشرقي. هدأت القاعة. ضربة أخرى على الرق مفعمة بالحماس. بدأ المغني يشدو بصوت عال:

"تشبه خنجرًا فارسيًا.

فمك كالياقوت البراق.

لو كنت السلطان التركي لأخذتك لزوجتي،

وعلقت اللؤلؤ في صفائك،

وقبلت كعبيك.

ووضعتك في إناء ذهبي

يا قلبي".

صمت المغني. وارتفع صوت جاره عاليًا ومؤلمًا. صرخ مفعماً بالكراهية:

"وكل ليلة

تعدو كفأر

عبر الفناء إلى بيت الجيران".

صدر صوت الرق بوحشية. وصدر نشيج عن كمان بوتر وحيد. وصرخ

المغني الثالث بصوت باكي:

"إنه مخادع وكذاب

يا للهول، يا لسوء الحظ، يا للعار!"

ساد الصمت لحظة، وبعد ثلاثة فواصل موسيقية قصيرة، أو أربعة،

بدأ المغني الرابع بصوت رقيق ورومانسي ومؤثر:

"ثلاثة أيام أسنُّ الخنجر،

وفي الرابع، طعنت عدوي حتى الموت.

مزقته إربًا.

أخطفك يا حبيبي على صهوتي،

وأعطي وجهي برداء الحرب

وانطلق معك إلى الجبال".

وقف الناظر ومدرس الجغرافيا بجواري. قال الناظر بصوت خفيض:

"يا لها من موسيقى بشعة، نهيق حمار قوقازي في الليل. أتعجب، ماذا

تعني هذه الكلمات؟"

"ربما لا تعني شيئًا. إنها مثل الموسيقى تمامًا".

كنت على وشك أن أنسحب مبتعدًا، حين لاحظت حركة الستارة

الدمقسية الثقيلة التي ورائي. تلفت حولي بحذر. كان رجلٌ عجوزٌ شعره

أبيض كالجليد وعيناه تشعان ضوءًا غريبًا يجلس خلف الستارة، يستمع

للموسيقى ويصرخ؛ إنه سعادة سينال أغا، والد إلياس بج. يداه هزيلتان

وعروقه الزرقاء ترتجف. هذه اليد تكتب اسم صاحبها بصعوبة لكنها تحتكم

على ما يربو على سبعين مليون روبل. التفت بعيدًا عنه. فلاح بسيط يفهم فن

المغنين أكثر من المدرسين الذين أكدوا نضجنا. انتهت الأغنية. بدأ الموسيقيون

رقصة قوقازية. تجولت في الردهة. التلاميذ يقفون معًا في مجموعات. يشربون

الخمر، حتى المسلمون. لم أشرب. فتيات زملائنا وأخواتهم وأصدقاءهم يثرثرون في الأركان. كان هناك عدد كبير من الفتيات الروسيات بصفائر صفراء وعيون رمادية، أو زرقاء، وقلوب مغبرة بالمساحيق. يتحدثن إلى الروس فقط، وقد يتحدثن إلى الأرمن أو الجورجيين. وإذا اقترب منهن مسلم يرتكن ويقهقهن وينطقن بكلمات قليلة ثم يشحن بوجههن عنه. فتح شخص البيانو وبدأ يعزف فالسا. رقص الناظر مع ابنة الحاكم.

أخيراً! سمعت صوتها ناحية الدرج. "مساء الخير يا إلياس بج. تأخرت قليلاً، لكنها ليست غلطتي". اندفعت إليها. لم تكن نينو ترتدي ثياب المساء ولا زي ليسيوم تامار المقدسة. تدلت من كتفها صدرية مخملية قصيرة بأزرار ذهبية. التف خصرها بإحكام وبدأ نحيفاً بحيث يمكن أن ألفه بيد واحدة. وكانت ترتدي جيبة مخملية سوداء وطويلة تصل إلى قدميها، كاشفة عن نقط ذهبية في مداسها الجلدي. كان على شعرها كابٌ صغيرٌ مستدير يتدلى منه على جبهتها صفيين من العملات الذهبية الثقيلة. كان الرداء القديم الذي ترتديه أميرة جورجية في الاحتفالات وكان وجهها وجه عذراء بيزنطية. ضحكت العذراء. "لا تغضب يا علي خان. استغرق الأمر ساعات لأرتدى هذه الجيبة. عصرت نفسي فيها من أجلك فقط".

صرخ إلياس بج: "الرقصة الأولى معي!"

نظرت نينو إليّ، هززت رأسي موافقاً. لا أجد الرقص ولا أحبه. يمكن أن أثق في إلياس بج فيما يتعلق بنيو. إنه شخص مهذب. طلب إلياس بج من الموسيقيين عزف "صلاة شامل". وعلى الفور ارتفع صوت لحن وحشي.

قفز إلياس بج إلى وسط الردهة. واستل خنجره. وتحركت قدماه في إيقاع عنيف لرقصة الجبال القوقازية. تألق نصل الخنجر في يده. رقصت نينو بجواره. وبدت قدماها كدميتين صغيرتين غريبتين. بدأت حكاية شامل. صفقنا على إيقاع الموسيقى. كانت نينو الطائر الذي يُخطف... وضع إلياس الخنجر بين أسنانه. كطائر مفترس فرد ذراعيه وطوق الفتاة. لفت قدما نينو حول الردهة، ورسمت يداها اللدنتان كل مراحل الخوف، واليأس والخنوع. كانت تمسك بمنديل في يسراها. ارتجف كل جزء في جسدها. ولم يسكن في موضعه إلا عملات الكاب، المدلاة على جبهتها، هذه هي الطريقة الصحيحة، أصعب جزء في الرقصة. لا يمكن إلا لفتاة جورجية أن تقوم بهذا الدوران السريع المذهل دون أن تهتز قطعة عملة على الكاب. جرى إلياس خلفها. وأخذ يطاردها بلا توقف وهما يلفان ويلفان. وأصبحت إيماءات ذراعيه أكثر اقتراباً من السيطرة على الحركات الدفاعية لنيو التي ازدادت هلعاً. وقفت في النهاية، كأيل وقع في يدي صياد. دار إلياس بج أقرب وأقرب. عينا نينو واهنتان مقهورتان، ويدها ترتجفان. صدر عن الموسيقى صوت عواء قصير، فتحت نينو يسراها. رفرف المنديل ساقطاً على الأرض. فجأة طار خنجر إلياس بج إلى القطعة الحريرية الصغيرة وضربها في الأرض. انتهت الرقصة الرمزية.

بالصدفة، هل ذكرت أنني أعطيت إلياس بج خنجري قبل الرقصة وأخذت خنجره؟ نصل خنجري هو الذي اخترق منديل نينو؛ على المرء أن يأخذ حذره، وقد تعلمنا القاعدة الحكيمة: "أعقلها وتوكل".



## 5

"حين وضع أجدادنا العظماء، يا خان، أقدامهم أول مرة في هذه البلاد، حيث صنعوا لأنفسهم اسمًا عظيمًا ومهيبة، صاحوا: 'كارا باك!' - 'انظر - هناك يمتد الجليد!' وحين وصلوا إلى الجبال وشاهدوا الأدغال صاحوا: 'كاراباخ!' - 'الحديقة السوداء!' ومنذ ذلك الوقت وهذه البلاد تدعى كاراباخ. قبل ذلك كانت تدعى سونيك، وقبلها أغوار. عليك أن تعرف يا خان أننا بلد شهير موغل في القدم". سقط مضيفي مصطفى العجوز، الذي استأجرت معه غرفاً في شوشا، في صمت جليل. ثم شرب زجاجة صغيرة من عصير فاكهة كاراباخ وقطع شريحة من الجبن الغريب الذي يصنع في شكل عدد هائل من الجدائل ويشبه ضفيرة فتاة، ثم واصل: "تسكن الكاراوليك، الأشباح السوداء، جبالنا وتحرس الكثير من الكنوز، كما يعرف الجميع. توجد أحجار مقدسة في الغابات، حيث تتدفق عيون

مقدسة. لدينا كل شيء. تجول في البلدة وانظر حولك - هل يعمل أي إنسان؟ لن تجد إنساناً يعمل! هل هناك إنسان حزين؟ لا أحد! ستذهل يا سيدي!"

كان أمر مذهل حقاً، كم كان هؤلاء الناس كذابين بصورة مدهشة. لا توجد قصة لم يخترعوها لتعظيم بلادهم. أمس فقط زعم لي أرمني سمين إن كنيسة مَرَس المسيحية في شوشا شيدت منذ خمس آلاف سنة. قلت له: "لا تحكِ هذه القصص الطويلة. العقيدة المسيحية لم يمر عليها ألفا عام. لا يمكن أن يشيدوا كنيسة مسيحية حتى قبل التفكير في المسيحية". استاء الرجل السمين استياءً شديداً وقال بتأنيب: "أنت بالطبع إنسان متعلم، لكن اسمع من عجوز: ربما لم يمر على العقيدة المسيحية أكثر من ألفى عام في بلاد أخرى. لكن بالنسبة لنا، أهل كاراباخ، أرسل المسيح النور إلينا قبل الآخرين بثلاثة آلاف عام. وهذه هي المسألة". وبعد ذلك بخمس دقائق استمر يخبرني دون أن يهتز له رمش بأن الجنرال الفرنسي مور أرمني من شوشا. ذهب إلى فرنسا وهو طفل ليعلي اسم كاراباخ هناك أيضاً. حتى وأنا في الطريق إلى شوشا أشار سائق المركبة إلى جسر حجري ونحن على وشك عبوره وقال بزهو: "هذا الجسر بناه الإسكندر الأكبر وهو يتقدم لتحقيق انتصاراته الخالدة في فارس!" كانت "1897" بارزة بحروف كبيرة على حاجز الجسر، أشرت بهذا إلى سائق المركبة، فاكتفى بهز الرأس: "نعم سيدي، وضعه الروس فيما بعد، لأنهم غيورون من أمجادنا!"

شوشا بلدة غريبة. تقع على ارتفاع خمسة آلاف متر في الجبال، تحيط بها



الغابات والأنهار. يعيش فيها الأرمن والمسلمون معاً في سلام. لقرون كانت جسراً بين دول القوقاز وبلاد فارس وتركيا. شيد النبلاء الأصليون -آل نشارار وآل مليك الأرمن، وآل بج وآل أجلار المسلمون- بيوتهم في الهضاب والأودية حول البلدة. وكثيراً ما توصف أكوأخهم الطينية البسيطة، بجرأة تشبه جرأة الأطفال المحبة، بالقصور. ولا يكل هؤلاء الناس أبداً من الجلوس على السلام أمام أبواب منازلهم، وهم يدخنون الغليون ويتحدثون عن المرات التي أنقذ فيها جنرالات كاراباخ الإمبراطورية الروسية والقيصر ذاته، والمصير المرعب الذي كان ينتظرهم إذا أوكلت حمايتهم لأي شعب آخر. وقد أنهكني الكوتشي وأنهكتني سبع ساعات في ممر مضطرب للوصول إلى شوشا. والكشيون خدم مسلحون بالمهارة، وقاطعو طرق مسلحون بالنزوات. لهم وجوه المحاربين، مزودون بالخناجر والسيوف والبنادق والذخائر، غارقون عموماً في صمت مظلم وكئيب. ربما يتأملون بعض أعمال اللصوص والسرقات البطولية في الماضي، ربما كان هذا أسلوبهم ولا يعني شيئاً. أصر أبي على وجود كوتشي معي، لحمايتي من الغرباء وحماية الغرباء مني. مر كل شيء على ما يرام، كان رجل طيب، ينتمي لآل شرفنشير بصورة ما، وكان جديرًا بالثقة بطريقة تميز الخدم الشرقيين.

مر على وجودي في شوشا خمسة أيام، وأنا في انتظار نينو، يحكي لي كل من ألتقي به طوال اليوم أن كل الأغنياء والشجعان، بل وكل مشاهير العالم، خرجوا من شوشا. تطلعت إلى الحدائق الخاصة وأحصيت أبراج

الكنائس والمآذن. شوشا بلدة متدينة: سبع عشرة كنيسة وعشرة مساجد، عدد كبير بالنسبة لستين ألف مواطن. وكان هناك عدد لا يحصى من الأماكن المقدسة بالقرب من البلدة، ومن أهمها بالطبع المقبرة الشهيرة والكنيسة الصغيرة وشجرتا القديس ساري بج. جررت إلى هناك يوم وصولي، مع أصدقائي الجدد المتباهين. تبعد مقبرة القديس ساعة من شوشا. تحج البلدة كلها سنوياً إلى هناك، وتقام المآذب في الحفرة المقدسة. ويقوم الأتقياء المخلصون بالرحلة زحفاً على ركبهم. وهو أمر مرهق، لكنه يزيد بقدر كبير من التقدير الذي يحظى به الحجاج الأتقياء. نمت شجرتان مقدستان قرب مقبرة القديس. لمسهما تدنيس لهما. إذا لمست ولو ورقة من أوراقهما فستشل فوراً، هكذا كانت قوة القديس هائلة؛ مع أن هذا لم يحدث أبداً، ولا حدثت أية معجزة أخرى من تلك التي حكى لي عنها الجميع. ولأفتنع بذلك حكى لي بالتفصيل الشديد كيف تسلق القديس الجبال ذات مرة، حين حاصره الأعداء، على صهوة حصانه، ووصل إلى قمته حيث توجد شوشا الآن. وكان الأعداء على مقربة منه. فقفز حصانه قفزة هائلة على الجبال والصخور وبلدة شوشا كلها. وحيث انتهت قفزة الحصان، يمكن للمخلصين أن يروا حتى الآن، أثراً عميقاً في الصخرة، أثر حوافر الحيوان النبل. هذا ما قيل لي. وحين تجرأت على النطق ببعض الشكوك حول احتمال حدوث مثل هذه القفزة قالوا ساخطين: "لكنه يا سيدي كان حصاناً من كاراباخ".

ثم حكوا لي قصة حصان كاراباخ، قالوا: "كان كل شيء في البلدة جميلاً. وأجمل ما فيها حصان كاراباخ، وهو حصان شهير عرض أغا محمد، شاه

بلاد فارس، مقابله كل حريمه" - (هل كان أصدقائي يعرفون أن أغا محمد كان خصيًّا؟) - وقالوا: "هذا الحصان مقدس. فكر الحكماء قرونًا وتباروا حتى ولدت هذه المعجزة من تناسل أفضل السلالات: إنه أفضل حصان في العالم، حصان كاراباخ، الحصان الأحمر الذهبي الشهير، الحصان النبيل". سيطر الفضول عليَّ بعد أن استمعت إلى هذا الإطراء، وطلبت منهم أن أرى أحد هذه الأحصنة العجيبة. تطلع إليَّ المرافقون في إشفاق. "التسلل إلى حريم السلطان أسهل من الدخول إلى حظيرة أحصنة كاراباخ. لا يوجد إلا اثنا عشر حيوانًا أحمر أصيلاً في البلدة كلها. رؤيتها تعنى أنك لص أحصنة. فقط حين تشتعل الحرب يمطي المالك صهوة معجزته الحمراء الذهبية". هكذا اقتنعت بالحكايات التي سمعتها عن الحصان الأسطوري.

جلست آنذاك في فرندة في شوشا، استمع إلى ثرثرة مصطفى العجوز، في انتظار نينو، وقد أحببت هذا البلد المليء بحكايات خرافية. قال مصطفى: "يا خان، خاض جدودك غمار الحرب، لكنك جلست في بيت الحكمة وأصبحت رجل متعلم. وسمعت عن الفنون الرفيعة. يزهو الفُرس بالسعدي وحافظ والفردوسي، ويزهو الروس ببوشكين، وبعيدًا في الغرب وجد شاعر اسمه جوته، كتب قصيدة عن الشيطان".

قاطعته: "هل كل هؤلاء الشعراء من كاراباخ أيضًا؟"

"لا، أيها السيد النبيل، شعراؤنا أفضل، حتى لو رفضوا أن يجسوا كلماتهم في حروف ميتة. إنهم أكثر زهوًا من أن يكتبوا قصائدهم - إنهم يحفظونها".

"من هم هؤلاء الشعراء؟ الأشوك؟"

رد العجوز بثقة: "نعم، الأشوك، يعيشون في القرى حول شوشا، وغداً تُجرى مساجلة بينهم. هل تذهب إليها وترى ما يأتوا من معجزات؟" يعيش الشعراء الشعييون في كل قرى كاراباخ تقريباً. يؤلفون القصائد في الشتاء، وفي الربيع يخرجون إلى العالم ويرددون أغانيهم في الكهوف والقصور. لكن هناك ثلاث قرى تشتهر بالشعراء فقط، وهذه القرى معفاة من كل أنواع الضرائب والإتاوات تعبيراً عن التقدير الكبير الذي يحظى به الشعر في الشرق. وتاش كندا إحدى تلك القرى.

ومن نظرة واحدة نعرف أن رجال هذه القرية لم يكونوا فلاحين عاديين. هؤلاء الرجال يضعون شعراً مستعاراً طويلاً، ويرتدون ثياباً من الحرير، وينظرون إلى بعضهم البعض في ريبة. تسير نساؤهم وراءهم، وقد بدا عليهن الاكتئاب، وهن يحملن آلاتهن الموسيقية. اكتظت القرية بالأرمن وأغنياء المسلمين، أتوا من كل أنحاء البلاد للتعبير عن إعجابهم بالأشوك. اجتمعت الحشود التواقفة في الميدان الرئيسي الصغير. في الوسط وقف اثنان من أمراء الأغنية البواسل، جاءوا إلى هنا لخوض مباراة صعبة. نظر كل منهما إلى الآخر باستهزاء. والشعر الطويل على رأسيهما يرفرف في الهواء. صرخ أحدهما: "ثيابك ملطخة بالروث، وجهك وجه خنزير، موهبتك هزيلة كالشعر الذي يغطي بطن عذراء، ومن أجل حفنة من المال يمكن أن تؤلف قصيدة عن العار الذي يجلك".

رد عليه الآخر، وهو ينيح بشراسة: "تلبس ثوب قواد، صوتك صوت

مخصي. لا تستطيع بيع موهبتك، لأنك لم تكن موهوبًا أبدًا. تعيش على الفتات الذي يتساقط من على مائدة عبقريتي الحافلة".

هكذا استمر، كل منهما يسب الآخر بحماس لا يعرف الكلل. صفق الجمهور. ثم وصل عجوز رمادي الشعر له وجه حوارى وأعلن عن موضوعين للمنافسة: "القمر على نهر أراكسيس" و "موت الأغا محمد شاه!" تطلع الشاعران إلى السماء. ثم بدأ الغناء. غنيا عن الأغا محمد شاه المخصي الشرس، الذي سافر إلى تفليس، لاستعادة حيويته المفقودة في العيون الكبرى. وحين فشلت العيون في مساعدته، دمر المخصي البلدة وأعدم كل من فيها من الرجال والنساء بوحشية. وقاده مصيره أثناء عودته إلى كاراباخ. وفي الليل، وهو نائم في خيمته، طعن حتى الموت. لم يستمتع الشاه العظيم بالحياة. في حملاته عانى من الجوع، وأكل الخبز الأسود، وشرب اللبن الرائب. غزا بلادًا لا تحصى، ومات أفقر من متسول في الصحراء. الأغا محمد شاه المخصي. غنوا هذا كله في أبيات كلاسيكية. وصف أحدهما بإسهاب شديد ما عاناه المخصي في بلاد أجمل نساء العالم، بينما وصف الآخر بإسهاب ممائل إعدام هؤلاء النساء. كان الجمهور راضياً. تصبب العرق الغزير على جبھتي الشاعرین. ثم صاح الشاعر الذي كان أسلوبه أرق: "ماذا يشبه القمر على أراكسيس؟"

قاطعہ الشاعر الصارم: "وجه حبيبك"

صاح الشاعر الرقيق: "لطيف ذهب القمر!"

رد الشاعر الصارم: "لا، يشبه ترس محارب سقط". واستمر على

هذا النحو حتى استنفدا ذخيرتهما من التشبيهات. ثم غنى كل منهما أغنية عن جمال القمر، وجمال نهر أراكسيس الذي ينساب متموجاً في الأفق كضفيرة العذراء، وجمال العشاق الذين يأتون إلى ضفافه في الليل ليشاهدوا انعكاس القمر في مياه أراكسيس. أعلن عن فوز الشاعر الصارم، وببسمه شريرة أخذ عود المنافس. سرّت إليه. بدا كالحثاء، وقد امتلأ وعاءه بالنقود. سألته: "هل أنت سعيد بالفوز".

بصق بطريقة مقرزة. "هذا ليس انتصاراً يا سيدي. من قبل كانت هناك انتصارات. منذ مئات السنين كان يسمح للمتصر بقطع رأس المهزوم. وفي تلك الأيام كان الفن يحظى بتقدير عظيم. الآن نتسم بالرقعة. لا أحد يضحى بحياته من أجل قصيدة".

"أنت الآن أفضل شاعر في البلاد".

ردد: "لا، لست إلا حَرْفياً. لست أشوك حقيقياً".

"ماذا تعني بالأشوك الحقيقي؟"

قال الشاعر الصارم: "في شهر رمضان ليلة ساحرة تدعى ليلة القدر. في هذه الليلة تنام الحياة كلها لمدة ساعة. تتوقف الأنهار عن الجريان، وتكف الأرواح الشريرة عن حراسة خزائنها. يمكن سماع صوت نمو الحشائش وحديث الأشجار. تخرج الحوريات من الأنهار، ويصبح الرجال الذين يولدون في هذه الليلة حكماء وشعراء. في هذه الليلة على الشاعر أن يبتهل للنبي إلياس، الراعي المقدس لكل الشعراء. في الساعة المناسبة

يظهر النبي، ويترك الشاعر ليشرب من كأسه ويقول له: "من الآن تصبح أشوك حقيقياً، وترى كل ما في العالم بعيني". هكذا ينعم عليه، ويسيطر على العناصر: "تلبي صوته الحيوانات والبشر، الرياح والبحار، لأن كلمته تذخر بقوة النبي". استراح الشاعر الصارم على الأرض وأراح وجهه في يديه. ثم بكى بسرعة ومرارة. قال: "لا أحد يعرف في أي ليلة تكون ليلة القدر، ولا أحد يعرف في أي ساعة من الليلة تكون ساعة النوم. ومن ثم لم يعد هناك أشوك بمعنى الكلمة". قام ومضى إلى حال سبيله. وحيداً، يائساً وكئيلاً، كان ذئب البوادي في جنة كاراباخ الخضراء.





## 6

كان نبع البتشابور يلغط في قاعه الصخري الضيق. والأشجار ترفرف حوله كقديسين مرهقين. كان المشهد بديعاً: في الجنوب، تمتد مروج أرمينيا كمراعي الكتاب المقدس، جميلة، تعد بمحصول جيد. شوشا تختبئ خلف الهضاب. في الشرق، اختفت مزارع كاراباخ في غبار صحاري أذربيجان. اندفع النفس المتقد لنار زرادشت عبر الأفق على أجنحة رياح الصحراء. لم تهتز ورقة في البستان من حولنا، كأن آلهة العصور الكلاسيكية لم يبرحوا إلا من برهة وما زال سحرهم الذي خلفوه يتسكع وراءهم. ربما نار سجائرتنا من نيران كرست لهذا المكان المقدس. كان هناك من يجلس ومن يستلق حول اللهب على أبسطة متعددة الألوان في حفلة أقامها الجورجيون، وكنت معهم. كؤوس من النبيذ، أطباق مكدسة بالفواكه والخضروات والجبن مرصوة حول النار، حيث تدور اللحوم في الأسياخ. قرب النبع جلس

الساسندري، المغنون الجوالون. حتى أسماء الآلات التي كانت في أيديهم لها وقع موسيقى: دَيرِه، شيانوري، طارا، دِلييتو. بدأوا بأغنية من الباتيس، أغنية حب بإيقاع فارسي. طلبها سكان المدن الجورجية لإضفاء فتنة غريبة على المشهد. "مزاج ديونيسي"، هذا ما يمكن أن يطلقه مدرسو اللاتينية على هذه الطريقة العابثة المندمجة في تقاليد البلاد. وصل آل كيياني أخيراً، ودعوا كل من يستطيع إثارة البهجة إلى هذا الاحتفال الليلي في بستان شوشا.

جلس أمامي والدينو، وكان "تامادا"(\*) هذه الليلة، وقد نظم الاحتفال طبقاً للتقاليد الصارمة. كانت عيناه براقتين، وفي وجهه الضارب إلى الحمرة شارب أسود كث. أمسك بيده كأساً وشرب نخبي. رشفت من كأس مع أنني لا أشرب عادة. لكن التامادا كان والدينو ومن غير اللائق ألا ألبى دعوته. أحضر الخدم ماء من النبع. وهذه واحدة من أعاجيب لا تحصى في كاراباخ: اشرب من ماء النبع لتأكل ما تشتهي ولا تشعر بأى عرض من أعراض الإفراط في تناول الطعام. شربنا المياه فضاءت جبال الطعام. أم نينو تجلس بجوار زوجها قريباً من النار المشتعلة. وجهها حاد وعيناها باسمتان. أتت هاتان العينان من منجريا، من أفق الريون، حيث التقت ذات مرة الساحرة مديا بالمغامر أرجونوت جاسون. رفع التامادا كأسه: "كأس على شرف الأمير ددياني". شكره عجوز له عينا طفل، وبدأت الدورة الثالثة. فرغ الجميع من كؤوسهم. ولم يسكر أحد، لأن الجورجيين في الوليمة يشعرون بسعادة تغمر قلوبهم وتبقى رؤوسهم صافية كمياء البشابور، ومن بين خصائصها الخرافية القدرة على إبقاء الإنسان في حالة صحو.

(\*) Tamada: رئيس مأدبة في الولائم الجورجية وفي حفلات الزواج.

لم تكن حفلتنا وحيدة. كان البستان ساطعاً بنيران مشتعلة. تحج شوشا كلها إلى الينابيع أسبوعياً. تستمر الاحتفالات حتى الفجر. يحتفل المسيحيون والمسلمون معاً في وثنية ظلال البستان المقدس.

تبادلت النظرات مع نينو وكانت تجلس بجواري. كانت تتحدث إلى ددياني الأشيب. كان هذا حسناً ومناسباً. تبجيل المسن حباً للشاب. قال العجوز: "تعالى لتقضي معي بعض الوقت في قلعتي في زُجديدي على نهر الريون حيث اعتادت جواري مديا العثور على الذهب في ندف الجليد. وأنت أيضاً يا علي خان. سترى الأشجار القديمة في الغابة الاستوائية في منجرليا".

"سموك، بكل سرور، من أجلك فقط لا من أجل الأشجار".  
 "أي شيء تكن ضد الأشجار؟ إنها بالنسبة لي تجسيد لكمال الحياة".  
 قالت نينو: "علي خان يخشى الأشجار كما يخشى الطفل الأشباح".  
 قلت: "الأمر ليس بهذه الصورة. لكن المشاعر التي تكنها للأشجار كالمشاعر التي أكنها للصحراء".

رمشت عينا ددياني الطفولية، وقال: "الصحراء، الأرض الجرداء وصهد الرمال".

"سموك، يربكني عالم الأشجار. يمتلئ بالرعب والغموض، بالأشباح والعفاريت. لا تستطيع أن تتطلع إلى الأفق. تحاط من كل اتجاه؛ عالم مظلم. تضيع أشعة الشمس في شفق الأشجار. وفي هذا الشفق لا شيء يبدو حقيقياً. لا، لا أحب الأشجار. تخنقني ظلال الغابات، ويكبني حفيف

الأغصان. أحب الأشياء البسيطة: الريح والرمل والحجارة. الصحراء بسيطة كطعنة السيف. الغابة معقدة كالعقدة الجوردية. سموك، أتوه في الغابات".

تطلع إليّ ددياني مفكرا وقال: "لك روح رجل صحراوي، ربما كان هذا هو التقسيم الحقيقي للإنسان: رجال الغابة ورجال الصحراء. تأتي النشوة الجافة للشرق من الصحراء، حيث تسكر الرياح الحارة والرمل الجافة الرجال، حيث العالم بسيط بلا مشاكل. الغابات مليئة بالأسئلة. وحدها الصحراء لا تطرح أسئلة، ولا تقدم شيئا ولا تعد بشيء. لكن نار الروح تأتي من الغابة. أرى رجل الصحراء بوجه واحد، لا يعرف إلا حقيقة واحدة، هذه الحقيقة تملأ عليه حياته. لرجل الغابة أوجه كثيرة. يأتي المتعصب من الصحراء والمبدع من الغابات. ربما كان هذا هو الاختلاف الأساسي بين الشرق والغرب".

قاطعنا مليك نَشَارارين، وهو رجل بدين من أنبل عائلات الأرمن، جاحظ العينين، كث الجفون، ويميل للفلسفة والشراب: "لهذا نحب نحن الأرمن والجورجيين الغابة". انسجمنا معًا. شرب نخبي وصاح: "علي خان! تأتي النسور من الجبال، والنمور من الغابات. ماذا يأتي من الصحراء". أجبت: "الأسود والمقاتلون". وصفقت نينو سعيدة.

يلف لحم الضأن المشوي في الأسياخ. امتلأت الكئوس مرة بعد أخرى. امتلأت الغابة بالسعادة الجورجية. استغرق ددياني في المناقشة مع نشارارين، وتطلعت نينو إليّ وفي عينيها تساؤل مكرر. هززت رأسي. حل الظلام.

على ضوء النار بدا الناس كالأشباح أو اللصوص. لم يلتفت إلينا أحد. قمت وسرت ببطء إلى النبع. انحنيت على الماء وشربت بيدي. كان ذلك رائعا. أخذت أرنو وقتاً طويلاً إلى انعكاس النجوم على الماء. ثم سمعت خطوات تأتي من خلفي. تكسر غصن جاف تحت قدم صغيرة... مددت يدي وأمسكت نينو. توغلنا في الغابة. لم يكن من الصواب أن نترك النار، جلست نينو على حافة مرج صغير وشدتني إليها. التقاليد صارمة في كاراباخ السعيدة. أخبرني مصطفى العجوز، في حالة هلع تام، بأنه كانت هناك حالة زنا في البلاد منذ ثمانية عشر عاماً، ومنذ ذلك الوقت لم يعد محصول الفاكهة إلى ما كان عليه. نظر كل منا إلى الآخر، وكان وجه نينو شاحباً وساحراً في ضوء القمر. قلت: "يا أميرة"، فنظرت نينو إليّ شزراً. كانت في انتظار أن تصبح أميرة بعد أربع وعشرين ساعة، استغرق الأمر من والدها أربع وعشرين سنة ليكسب دعوى بشأن اللقب في بطرسبرج. وفي هذا الصباح تسلم برقية بقبول الدعوى. مما جعل الرجل العجوز يسعد سعادة طفل عثر على أمٍّ فقدها، واحتفلنا الليلة. كررت "يا أميرة" وأخذت وجهها بين يديّ. لم تقاوم. ربما احتست قدراً كبيراً من النبيذ الكاشتي، ربما خدرتها الغابة والقمر. قبلتها. كفاهها ناعمان ودافئان وجسمها لدن. تكسرت بعض الغصون الجافة. استلقينا على عشب طرى، نظرت نينو في وجهي. لمست حلمتي ثمديها المكتنزين. وصلني شعور جديد وغريب من نينو، غمرنا كلينا. توحدت مع الرغبات الأرضية الغامضة، كانت تعيش بإحساسها فقط. صار وجهها الصغير شديد الجدية. فتحت فستانها. لمع جلدها كحجر كريم في ضوء القمر. خفق قلبها ونطقت بكلمات متفرقة

عن الولع والاشتياق. دفنت وجهي بين ثدييها، كان جلدها عطراً ومذاقه مالخا بعض الشيء. ارتجفت ركبتها. انسابت الدموع على وجهها، قبلت تلك الدموع وجففت خديها المبتلين. نهضت آنذاك صامتة، غير واثقة من مشاعرها. كانت حبيبتني نينو لا تزال في السابعة عشر، وكانت تذهب إلى ليسيوم الملكة تامار المقدسة. قالت:

"أظن أنني أحبك حقاً يا علي خان، حتى بعد أن أصبحت أميرة".

قلت: "قد لا تبقيين على هذه الحال فترة طويلة". فنظرت نينو إليّ مرتبكة.

"ماذا تعني؟ هل سيسحب القيصر القلب مرة أخرى؟"

"ستفقدينه حين تتزوجين، لكن لا تبالي فخان لقب رائع أيضاً".

شبكت نينو يديها خلف رقبتها، وألقت برأسها إلى الخلف وضحكت: "قد يكون خان لقباً جميلاً، لكن ماذا عن خانة؟ لا يوجد لقب بهذا الشكل. وعموماً، تعرض الزواج بصورة مضحكة - إذا كنت تقصد عرض الزواج بكلامك؟"

"نعم، أقصد ذلك".

ضربت أصابع نينو وجهي واستراحت في شعري. "وإذا وافقت، هل ستكون ممتناً لغابة شوشا دائماً وتتصالح مع الأشجار؟"

"أعتقد أن الأمر سيكون كذلك".

"لكنك ستزور عمك في طهران في شهر العسل، وربما أزور، بدعوة

خاصة، إمبراطورية الحريم، وأشرب الشاي وأتحدث إلى نساء بدينات فيها".

"حقًا؟"

"وآنذاك سيسمح لي بالتطلع إلى الصحراء، حيث لن يكون هناك أي شخص يمكن أن ينظر إليّ".

"لا، يا نينو، لست في حاجة إلى النظر إلى الصحراء. لن تحيها".

وضعت نينو ذراعيها حول رقبتني وضغطت جبهتي بأنفها: "ربما أتزوجك يا علي خان. لكن هل فكرت في كل ما سيكون علينا التغلب عليه، بعيدًا عن الغابات والصحاري؟"

"مثل ماذا؟"

"أولاً، سيموت أبي وأمي حسرةً لأنني تزوجت مسلماً. وسيضغط عليك أبوك ويطلب منك أن اعتنق الإسلام. وإذا فعلت ذلك، سيرسلني القيصر - الأب الصغير إلى سيبيريا لأنني ضللت عن العقيدة المسيحية، وأنت أيضًا لأنك جعلتني أفعل ذلك".

ضحكت: "ثم نجلس في وسط البحر القطبي على جبل جليدي وتأكلنا الدببة البيضاء الكبيرة. لا يا نينو لن يكون الأمر بهذا السوء. لست في حاجة لاعتناق الإسلام، ولن يموت والداك حسرةً، وفي شهر العسل سنذهب إلى باريس وبرلين وتنظرين إلى الأشجار في بوى دى بولون وتيرجرتن، ما رأيك؟"

قالت في دهشة: "أحبك، لا أرفض، مازال هناك وقت طويل قبل أن أقبل. لن أهرب، لا تقلق. سأكلم والديّ حين انتهي من المدرسة، لكن لا تخطفني. افعل ما تشاء إلا أن تخطفني. أعرف أساليبكم: على صهوة حصان عبر الجبال ثم يبدأ العداء الدموي مع آل كيياني ويستمر زمناً طويلاً". غمرتها البهجة فجأة، وبدأ أن كل جزء منها يضحك: وجهها ويدها وقدمها وجلدها. كانت تركز على شجرة، مالت برأسها وتطلعت إليّ وأنا أقف أمامها. في ظل الشجرة بدت كحيوان غريب يختبئ في الغابة خوفاً من الصياد. قالت نينو "لنذهب"، وسرنا عبر الغابة إلى النار الكبيرة. فجأة ونحن في الطريق عنت لها فكرة. توقفت ونظرت إلى القمر. سألت في قلق: "لكن أطفالنا، إلى أي دين سينتمون؟"

قلت مراوغة: "أوه، أنا على يقين من أنهم سينتمون إلى دين رائع جداً ومقبول". نظرت إليّ بتوجس وصمتت لحظة تفكر. ثم قالت بحزن: "وعموماً، أأست كبيرة جداً بالنسبة لك؟ سأبلغ السابعة عشر قريباً، وزوجة المستقبل بالنسبة لك يجب أن تكون الآن في حوالي الثانية عشر". هدأت من روعها. لا، بالتأكيد لست كبيرة جداً. ماهرة جداً، ربما، أليس أمراً رائعاً حقاً أن تكوني ماهرة جداً؟ أحياناً يترأى لي أننا نحن الشرقيون جميعاً سننضج ونصبح مهرة في القريب العاجل. وأحياناً يترأى لي أننا جميعاً أغبياء وسذج. لم أعرف حقاً كيف أفكر: كنت مرتبكاً من الأشجار ونيو وبريق النيران البعيدة، وأكثر ما أربكني هو نفسي، فربما كنت أنا أيضاً قد تجرعت كثيراً من النيذ الكاشتي، تجولت مثل لص بدوي في هدوء حديقة الحب. لم يبد أن نينو تشعر أنها ضحية لص بدوي. بدت هادئة



صافية الذهن. اختفت كل آثار الدموع والضحكات والشوق الجارف.  
مما جعلني أعود إلى حالتي الطبيعية من جديد.

عدنا إلى نبع البتشابور، بدا أن غيابنا لم يلاحظ. ملأت كوبي بالماء  
وشربت بشراهة- كانت شفتاي ملتهبتين. حين وضعت الكوب التقيت عيني  
بعين مليك نشارارين الذي رمقني بنظرة مفهومة: بود وبعض التأييد.



## 7

استلقيت على الديوان في التراس أحلم بالحب. حبي يختلف تمامًا عن حب والدي وعمي وجدودي، ويختلف اختلافًا تامًا عما ينبغي أن يكون عليه. بدلًا من أن أقابل نينو عند النبع وهي تملأ إبريقها، قابلتها في شارع نيقولاوي وهي في الطريق إلى المدرسة. يبدأ حب الشرقيين عند النبع، عند خرب النبع الصغير في قرية، أو الفسقيات الرائعة في البلدات الغنية بالمياه. تذهب الفتيات إلى النبع كل مساء، يحملن جرارًا فخارية على أكتافهن. قرب النبع يجلس الفتيان في حلقة، يثرثرون عن الحرب والأسلاب، ولا يلتفتون إلى الفتيات. ببطء تملأ الفتيات الجرار، وبيطء يعدن من حيث أتين. الجرار ثقيلة مملئة إلى الحواف. قد تزلُّ قدما الفتاة فتدفع النقاب عن وجهها لتنظر تحت قدميها بيسر. كل مساء تذهب الفتيات إلى النبع، وكل مساء يجلس الفتيان في إحدى زوايا الميدان، هكذا يبدأ الحب في الشرق. صدفةً، بمحض

صدفة ترفع إحدى الفتيات عينيها وترى الفتیان. لا يلتفتون على الإطلاق. وحين تعود الفتاة من جديد يدير أحدهم وجهه ويتطلع إلى السماء. قد تلتقي نظرتيه ونظرة الفتاة وقد لا تلتقيان، فيحتل شخص آخر مكانه في اليوم التالي. وحين تلتقي نظرات شخصين بضع مرات عند النبع يعرف الجميع أن الحب بدأ. ويأتي كل شيء بعد ذلك بصورة طبيعية: يلف الولد المحروم من الحب في القرية حول البلدة ويغني الأغاني الشعبية، يتفاوض أقاربه حول مهر العروس، ويحسب الحكماء عدد المقاتلين الذين سيولدون من هذا الزواج. كل شيء بسيط، كل الخطوات مقررّة ومعدة سلفاً.

لكن ماذا بشأنني؟ أين نبعي؟ أين نقاب نينو؟ الأمر غريب: لا ترى المرأة خلف النقاب لكنك تعرفها: تعرف عاداتها وأفكارها ورغباتها. النقاب يخفي عينيها وأنفها وفمها، ولا يخفي روحها. روح المرأة الشرقية ليست مشكلة. تختلف النساء السافرات اختلافاً تاماً. ترى عيونهن وأنوفهن وأفواههن، وربما ترى أكثر وأكثر، ولن تعرف أبداً ما يختفي وراء هذه العيون، حتى لو اعتقدت أنك تعرف الفتاة جيداً. أحب نينو إلا أنها تحيرني. تسعد حين ينظر إليها رجال آخرون في الشارع. بينما يثير ذلك اشمئزاز فتاة شرقية طيبة. تقبّلني. ربما ألمس صدرها وأربت على فخذيها، حتى قبل الخطوبة. حين تقرأ قصص الحب تصبح عيناها رقيقتين وحالمتين وكأنها تحن إلى شيء ما. وحين أسألها عما تحن إليه تهز رأسها دهشة - لا تعرف. لا أتمنى أكثر من أن تكون معي. أظن أنها زارت روسيا كثيراً. اعتاد أبوها أن يأخذها معه إلى بطرسبرج، ويعرف الجميع أن كل الروسيات مجنونات. عيونهن

مفعمة بالشوق، وكثيرًا ما نحن أزواجهن، ونادرًا ما ينجبن أكثر من طفلين. هكذا يعاقبهن الله! لكنني أحب نينو. أحب عينيها وصوتها وطريقة كلامها وتفكيرها. سأتزوجه، وستكون زوجة طيبة ككل الجورجيات، حتى لو كن مستهترات أو خاليات البال أو حاملات. إن شاء الله.

تبدل حالي. أرهقني كل هذا التفكير: من الأفضل بكثير أن أغلق عيني وأحلم بالمستقبل، وهو يتعلق بنينو. يبدأ المستقبل يوم أتزوج نينو. سيكون يومًا رائعًا. لن يُسمح لي برؤيتها. لا يجب أن يرى العريس والعروس بعضهما يوم العرس لتمر ليلة العرس على خير. يأتي أصدقائي، بالسلاح وعلى صهوات الجياد، بنينو، بنقاب كثيف. في ذلك اليوم ترتدي اللباس الشرقي. يطرح الملا الأسئلة، ويقف أصدقائي في أركان الردهة، يهمسون بتعاويد ضد العنة. هكذا تنص التقاليد، فلكل إنسان أعداء كثر يشهرون خناجرهم يوم العرس، ويتحولون بوجوههم إلى الغرب هامسين: "أنيساني، بانيساني، ماماورلي، كانياني- لن يستطيع أن يفعلها، لن يستطيع أن يفعلها، لن يستطيع أن يفعلها". لكن، حمدًا لله، لي أصدقاء طيبون، وإلياس بج يحفظ كل التعاويد التي تحمي المرء في هذه المواقف. نفصل بعد العرس مباشرة. تذهب نينو إلى صديقاتها وأذهب إلى أصدقائي. نودع شبابنا. وبعد ذلك؟ بعد ذلك؟

لوهلة أفتح عينيَّ أشاهد الأريكة الخشبية وأشجار الحديقة، ثم أغلقهما مرة أخرى فأرى المستقبل بصورة أفضل. يوم العرس أهم يوم في حياة الإنسان وربما كان اليوم الوحيد المهم في حياته، وهو أيضًا يوم بالغ الصعوبة.

الذهاب إلى غرفة الزفاف ليلة العرس ليس سهلاً. عند كل باب من الممر الطويل يقف أناس مقنعون لا يسمحون للعريس بالمرور إلا بعد أن يضع في أيديهم عملات معدنية. في غرفة الزفاف يخفي الأصدقاء المقربون ديكاً أو قطاً أو أي شيء غير متوقع. على أن أنظر حولي بحذر. أحياناً تقهقه عجوز في السرير وتطلب هي الأخرى نقوداً قبل أن تغادره. أنا وحدي أخيراً. يفتح الباب وتدخل نينو. في هذه اللحظة يبدأ أصعب جزء في العرس. تبسم نينو وتنظر إليّ في ترقب. جسمها مضغوط في كورسيه من جلد الماعز. ممسوك بأربطة ومغلق من الأمام بعقد شديدة التعقيد. شدتها معاً أيد خبيرة ليصعب حلها على العريس. على أن أفكها جميعاً بنفسني. غير مسموح لنينو بمساعدتي. ربما ساعدتني. لأنها عقد معقدة بشكل رهيب، يحل بي العار والخزي إذا قطعتها. على الرجل أن يظهر قدرته على التحكم في النفس ففي الصباح التالي يأتي أصدقاؤه ليروا العقد المحلولة. الويل للتعيس الذي لا يستطيع كشف قدرته على حلها. يكون أضحوكة البلدة كلها. في ليلة العرس يشبه البيت خلية النمل. يقف الأصدقاء وأقارب الأصدقاء وأصدقاء أقارب الأصدقاء في الطرقات وعلى السطح وربما في الشارع، ينتظرون وربما يفقدون صبرهم إذا استغرق الأمر وقتاً طويلاً. يطرقون على الباب، ويثيرون الجلبة والضجيج، وفي النهاية تنطلق طلقة المسدس الذي ينتظر صاحبه في لهفة. وعلى الفور يبدأ إطلاق النار في الهواء حائثاً ومشجعاً. ينطلقون خارج المنزل ويشكلون مجموعة من حماة الشرف، ولا يسمحون لنينو ولي بالخروج من المنزل إلا إذا اعتبروا أن الأمور كانت على ما يرام. نعم، سيكون عرساً مذهشاً، على الطريقة القديمة الرائعة، كما تنص تقاليد آبائنا.

لابد أنني استغرقت في النوم. فحين فتحت عيني كان الكوتشي يقرص على الأرض ينظف أظافره بخنجره الطويل. لم أشعر به حين أتى. تساءلت متثائبًا في خمول: "ما الأخبار أيها الأخ الصغير؟"

رد بصوت ضجر: "لا شيء مهم، سيدي الصغير. تشاجرت نساء الجيران، فرحار وقفز في البئر ومازال فيه". وضع الكوتشي خنجره في جرابه وواصل بلا مبالاة: "يعتزم القيصر إعلان الحرب على عدد من ملوك أوروبا".

قفزت ونظرت إليه مرتبكا: "ماذا؟ أية حرب؟"

"أوه، مجرد حرب عادية".

"ماذا تعني؟ ضد من؟"

"عدد من ملوك أوروبا. لا أتذكر أسماءهم. إنهم كثر. دُون مصطفى أسماءهم".

"استدعه فورًا".

هز الكوتشي رأسه استنكارًا -يا له من فضول أخرق!- ثم اختفى عبر الباب وعاد مع مضيئي. ابتسم مصطفى ابتسامة عريضة لأنه كان يشعر بالتفوق، وتألّق لأنه كان يعرف كل شيء. بالطبع أعلن القيصر الحرب. المدينة كلها تعرف ذلك، قرر بحكمته أن يحارب.

صرخت ساخطًا: "لكن على من أعلن القيصر الحرب؟" انقض مصطفى على محفظته وأخرج منها ورقة صغيرة دُون فيها ملاحظاته. سلك خنجرته

وقرأ بترفع وصعوبة: "على قيصر ألمانيا وإمبراطور النمسا وملك بافاريا وملك بروسيا وملك سكسونيا وملك ورتمبرج وملك المجر وكثير غيرهم من اللوردات والأمراء".

قال الكوتشي بتدلل: "كما أخبرتك يا سيدي الصغير، لا يمكن أن أتذكر كل ذلك". طوى مصطفى ورقته الصغيرة وقال: "من ناحية أخرى، أعلن جلالة الخليفة سلطان الإمبراطورية العثمانية محمد رشيد، كما أعلن جلالة الإمبراطور ملك الملوك في إيران السلطان أحمد شاه، أنها لن يشاركا في الحرب حتى إعلان آخر. هي إذن حرب تدور رحاها بين الكفار ولا تعنينا في شيء. ويعتقد الملا في مسجد محمد علي أن النصر سيكون حليف الألمان". لم يستطع مصطفى إنهاء حديثه. من البلدة دقت أجراس سبع عشرة كنيسة مغطية على كل الأصوات الأخرى. عدوت. كانت شمس أغسطس الحارقة تغطي سماء البلدة، مهددة وثابتة. وعن بعد ظهرت الجبال كشهود لا يبالون. وصوت الأجراس يتحطم على صخورها الرمادية. الشوارع مكتظة بالبشر. الوجوه القلقة المتوهجة تتطلع إلى قباب الكنائس والمساجد. الهواء يموج بالغبار. أصوات الناس مبحوحة. خرساء ومتآكلة رددت الصدى حوائط الكثير من الكنائس وكأنها عيون الأبدية الصخرية. ارتفعت أبراجها فوق رؤوسنا كتهديدات صامتة. توقف رنين الأجراس. صعد الملا السمين بجبة فضفاضة كثيرة الألوان مئذنة المسجد القريب منا، وضع يديه حول فمه على شكل قمع وصاح بزهو وحزن: "حي على الصلاة، حي على الصلاة، الصلاة خير من النوم!" عدوت إلى الحظيرة. أعد الكوتشي صهوة حصاني. عدوت في الشوارع، وأفسحت



الحشود الطريق لي بنظرات ملؤها الرعب. انتصبت أذنا الحصان توقعا لأمر سعيد، وأنا انطلق خارج المدينة. امتد أمامي الشريط الواسع لممر متعرج. انطلقت بجوار منازل نبلاء كاراباخ وجاءت أصوات الفلاحين البسطاء تسألني: "هل تنطلق إلى المعركة يا علي خان؟" تطلعت إلى الوادي. وسط الحديقة بيت بسيط سطحه منبسط. حين رأيت البيت نسيت كل قواعد الفروسية وانطلقت عبر التل المنحدر في قفزة هائلة. بدا البيت أكبر، وقد اختفت وراءه الجبال والسماء والبلدة والقيصر والعالم كله. دخلت الحديقة. خرج خادم من المنزل وتطلع إليّ بعيون ميتة: "غادرت الأسرة النبيلة البيت منذ ثلاث ساعات". بصورة آلية توجهت يدي إلى الخنجر. تنحى الخادم جانبا. "تركت الأميرة نينو رسالة لسمو السيد علي خان". تسللت يده إلى جيب على صدره. نزلت من على صهوة الحصان وجلست على سلم التراس. غلاف الرسالة أبيض ورقيق ومعطر. فتحته بسرعة. كتبت بحروف كبيرة بخط طفولي:

"علي خان يا أعز الناس! فجأة قامت الحرب، وكان علينا أن نعود إلى باكو. لم يكن الوقت كافيا لأبعث رسالة. لا تغضب. أصرخ وأحبك. كان صيف قصير. اتبعنا بسرعة. أنتظر في اشتياق. في رحلة العودة لن أفكر إلا فيك. يعتقد والدي أن الحرب ستنتهي سريعا وسيكون النصر حليفنا. لا أفهم شيئا من الفوضى التي تدور حولي. من فضلك اذهب إلى سوق شوشا واشتر لي سجادة. لم يسمح الوقت بشرائها. أريد سجادة مزخرفة برؤوس جياذ متعددة الألوان. لك قبلا. سآعاني من حر فظيع في باكو!"

طويت الرسالة. كل شيء على ما يرام. فقط قفزت أنا، علي خان شرفشير على صهوة الحصان كولد أحق، بدلاً من أن أتصرف بطريقة مناسبة: تهنئة حاكم البلدة على الحرب، أو على الأقل الصلاة في المسجد والدعاء بالنصر لجيوش القيصر. جلست على سلام الشرفة وحدقت أمامي في ذهول. كنت أحق! ماذا يمكن لنيو أن تفعل سوى أن تعود مع أبيها وأمها، وتطلب مني أن أتبعها بأسرع ما أستطيع. بصورة يقينية: حين تقوم الحرب في البلاد على المحبوب أن يذهب إلى الحبيب، لا أن يكتب له رسائل معطرة. لم تكن الحرب في بلادنا، كانت الحرب في روسيا، وهو أمر لا يعني نينو ولا يعنيني. غضبت بجنون من الحرب، من كيباني الأب، الذي تعجل الوصول إلى الوطن، من ليسيوم تامار المقدسة، حيث لم يعلموا البنات حسن التصرف، والأهم من ذلك من نينو التي لم تفعل شيء سوى السفر، ونسيت الواجب والكرامة، ولم أستطع أن أعجل بالذهاب إليها بما فيه الكفاية. قرأت رسالتها مرة بعد أخرى. سحبت خنجري فجأة، رفعت يدي؛ برق خاطف وصوت حاد ينغرس النصل في جذع الشجرة التي أمامي. نزع الخادم الخنجر من الشجرة ونظر إليه بعيني خبير قبل أن يعيده إلى، قائلاً بحياء: "صلب كوباتشي أصيل، ويدك قوية".

مضيت على صهوة حصاني. سرت إلى البيت ببطء. رأيت قباب البلدة مرتفعة عن بعد. تركت غضبي في جذع الشجرة. نينو محقة تمامًا. بنت طيبة وستكون زوجة صالحة. سرت خجلاً محني الرأس. كان الشارع مترباً، والشمس الحمراء تغرق في الغرب. فجأة سمعت صهيل حصان. رفعت رأسي وتوقفت. للحظة نسيت نينو والعالم كله. وقف أمامي حصان صغير

برأس صغير وعيون متغطرة وردف ملفوف وسيقان تشبه سيقان راقصة البالية. تألق جلده الأحمر الذهبي في انعكاس أشعة الشمس المائلة للغروب. فوق صهوة الحصان عجوز بشارب متدل وأنف أعوج: الكونت ميليكوف، صاحب ضيعة قريية. ماذا قالوا عن الجياد المشهورة، جياد القديس ساري بيج حين وصلت إلى شوشا؟ "إنه جواد أحمر ذهبي، لا يوجد منه في كاراباخ كلها سوى اثني عشر. تحرس كما تحرس النساء في حريم السلطان". وقف الكائن الخرافي الأحمر الذهبي أمام عيوني.

"أين تذهب يا كونت؟"

"إلى الحرب يا ولدي".

"يا له من حصان يا كونت!"

"نعم، أنت مندهش، أليس كذلك؟ لم ير الأحمر الذهبي إلا بضعة رجال..". رقت عينا الكونت: "يزن قلبه ستة أرتال بالضبط. تبرزق المياه مثل حلقة ذهبية حين تصبها على جسمه. لم ير نور الشمس من قبل. عندما أخرجته اليوم، وسطعت أشعة الشمس في عينيه، انقادت كعين انفجرت من الصخور في التو. كما أشرقت عينا الرجل الذي اكتشف النار حين رأى أول شعلة. إنه من سلالة حصان ساري بيج. لم يره أحد أبداً. فقط عندما يدعو القيصر للحرب يمتطي الكونت ميليكوف تلك المعجزة الذهبية الحمراء". ألقى التحية بفخر وانطلق على صهوة حصانه، وسيفه يصدر صليلاً منخفضاً. وصلت الحرب إلى البلاد.

وصلت إلى البيت بعد حلول الظلام. ماجت البلدة كلها شوقاً إلى الحرب.

تجول النبلاء المحليون في صخب السكارى، يطلقون نيران أسلحتهم في الهواء. صرخوا: "ستدفق الدماء! ستدفق الدماء! أوه كاراباخ، سيكون اسمك عظيمًا!"

في انتظاري برقية: "احضر حاليًا. أبوك". أمرت الكوتشي بحزم الأمتعة: "نغادر غدًا". خرجت إلى الشارع وشاهدت الجلبة. انزعجت ولم أعرف السبب. تطلعت إلى النجوم واستغرقت طويلاً في تفكير عميق.

## 8

قال الكوتشي: "أخبرني يا علي خان، من أصدقائنا؟" كنا نهبط الطريق الملتف المنحدر من شوشا. لا يكل القروي البسيط من طرح أغرب الأسئلة عن كل ما يتعلق بالحرب والسياسة. في بلادنا ثلاثة مواضيع فقط يتحدث فيها الشخص الطبيعي: الدين والسياسة والبنس. ترتبط الحرب بالمواضيع الثلاثة. تستطيع الكلام عن الحرب وقتما تشاء وحيث تشاء ولن تستنزف الموضوع أبداً.

"أصدقائنا يا كوتشي إمبراطور اليابان، وإمبراطور الهند، وملك إنجلترا، وملك صربيا، وملك بلجيكا ورئيس الجمهورية الفرنسية".

زم الكوتشي شفثيه تعبيراً عن الرفض: "لكن رئيس الجمهورية الفرنسية مدني، كيف يذهب إلى المعركة ويخوض غمار الحرب؟"

"ربما يرسل جنرال".

"على المرء أن يخوض حربه بنفسه، لا أن يتركها للآخرين، وإلا ساء الأمر". نظر في قلق إلى ظهر الحوذي وتكلم كخبير: "القيصر قصير ونحيف، والإمبراطور جيليوم طويل وقوي، وسيغلب على القيصر حتى في المعركة الأولى". كان هذا التابع الطيب يعتقد أن بدء الحرب يعني أن يقف الملكان العدوان وجهًا لوجه وكل منهما على صهوة حصانه. من العبث أن تتكلم وتقنعه بغير ذلك. "حين يسقط جيليوم القيصر يكون على ولي عهد القيصر دخول المعركة، وهو صغير ومريض، وجيليوم ستة أبناء، أصحاب وأقوياء".

حاولت طمأنته: "لن يحارب جيليوم إلا بيميناه فقط لأن يساره مشلولة".

"أوه، لكنه لا يحتاج يسراه إلا ليمسك لجام الحصان، ويستخدم اليمنى في القتال". أدى التفكير العميق إلى ظهور تجاعيد عميقة في جبهته، وسأل فجأة: "هل صحيح أن الإمبراطور فرانز جوزيف يبلغ المئة؟"  
"لست متأكدًا، لكنه عجوز جدًا".

قال الكوتشي: "فظيع جدًا أن يكون على هذا العجوز أن يمتطي صهوة حصانه ويسل سيفه".  
"ليس عليه أن يفعل ذلك".

"عليه بالطبع أن يفعل ذلك. هناك ثأر بينه وبين كرايج الصربي. بينهما عداوة دم، وعلى الإمبراطور أن يثأر لدم ولي عهده. لو كان فلاح من قريننا

فربما استطاع دفع الدية، حوالي مئة بقرة وبيت. لكن إمبراطور لا يستطيع التسامح بشأن إراقة الدماء. وإذا تسامح فإن كل شخص سيتسامح، ولن تكون هناك نزاعات دموية بعد ذلك، وتخرب البلاد". كان الكوتشي محققاً؛ النزاع الدموي هو أهم قاعدة تحكم نظام البلد والسلوك الرسمي، بصرف النظر عما يمكن أن يقوله الأوروبيون. وحتى يتضح الأمر: التسامح بشأن إراقة الدماء حسن إذا التمس المسنون والحكماء، التمسوه من أعماق قلوبهم. قد تُطلب دية كبيرة، ويتم الصلح، لكن مبدأ النزاعات الدموية باق، كيف يمكن أن ينتهي تمامًا؟ تنقسم الإنسانية إلى أسر، لا إلى شعوب، وتحتفظ الأسر فيما بينها ببعض التوازن، توازن إلهي، تأسس على رجولة الرجال. وإذا اختل هذا التوازن بقوة قاتلة، فعلى الأسرة التي انتهكت حرمة إرادة الإله أن تخسر هي الأخرى أحد أعضائها. وهكذا يعود التوازن. بالطبع، يكون القضاء على نزاع دموي أمرًا صعبًا إلى حد ما أحيانًا، طلاقات انطلقت خطأ، أو قتل أناس لم يكن قتلهم ضروريًا. يستمر النزاع الدموي ويستمر. لكن المبدأ جيد وواضح. فهم الكوتشي هذا فهمًا حسنًا، وأوماً تعبيرًا عن الرضا: "نعم، الإمبراطور الذي يبلغ عمره مئة عام رائع وعادل حين امتطى صهوة جواده لينتقم لدم ابنه".

"علي خان، إذا تقاتل الإمبراطور وكرالج من أجل الدم، فلماذا يدخل الملوك الآخرون المعركة؟"

كان السؤال صعبًا لا أعرف أنا نفسي إجابة له. قلت: "انظر، رب قيصرنا ورب كرالج الصري واحد، لذا فهو يساعده. القيصر جيليوم والأعداء

من الملوك الآخرين يرتبطون بالإمبراطور، على ما أعتقد. ويرتبط ملك إنجلترا بالقيصر، وتشابك الأمور". لم يقتنع الكوتشي تمامًا بهذه الإجابة. كان على يقين من أن إمبراطور اليابان يعبد ربًا مختلفًا تمامًا عن الرب الذي يعبد قيصرنا، وأن هذا المدني الغريب، الذي يحكم فرنسا، قد لا يستطيع الارتباط بأي ملك. وبعيدًا عن ذلك، وبقدر معرفة الكوتشي، لم يكن هناك رب على الإطلاق في فرنسا. لهذا توصف فرنسا بالجمهورية. لم تكن كل هذه الأمور واضحة تمامًا بالنسبة لي. قدمت له إجابة مبهمّة، وبدأت في طرح الأسئلة عليه: "هل ستذهب إلى الحرب؟" نظر سارحًا إلى سلاحه، وقال: "نعم، بالطبع، سأذهب".

"هل تعرف أنك لا تحتاج إلى ذلك؟ فنحن المسلمون مستبعدون من الخدمة العسكرية".

"أعرف، لكن أريد أن أذهب". فجأة أصبح التابع الساذج ثرثارًا: "الحرب جيدة. أسافر بعيدًا في العالم الفسيح. أسمع صفير الرياح في الغرب، وأرى الدموع في عيون أعدائي. سيكون عندي حصان وبندقية وأتجول مع أصدقائي في القرى المحتلة. وحين أعود، أعود بأموال كثيرة، ويمدحني الجميع، لأنني بطل. إذا مت فهي ميتة تليق برجل حقيقي. سيتكلم عني الجميع بكلام يعلي من قدرتي، وأشرف ابني أو أبي. لا، الحرب شيء رائع، لا يهم ضد من. على كل رجل أن يخوض الحرب ولو مرة في حياته". واصل حديثه دون انقطاع. أحصى الجراح التي ينوي إصابتها أعدائه بها، والغنائم التي يراها أمامه، وأشرفت عيناه برغبة هائلة في المعركة، وبدأ وجهه الأسمر



مثل وجه محارب قديم في الشاهنامه. حسدته لأنه رجل بسيط متأكد مما عليه أن يعمل، وكنت أتطلع للمستقبل بترؤ وتردد. قضيت وقتاً طويلاً في مدرسة الإمبراطورية الروسية، وتأثرت بأساليب الروس في التفكير العميق.

وصلنا إلى المحطة. المباني محاصرة بنساء وأطفال ومسنين وفلاحين من جورجيا وبدو من سكتالي. من المستحيل معرفة الجهة التي يريدون الذهاب إليها. يبدو أنهم أنفسهم لا يعرفون. يستلقون على الحقول ككتل من الطين، أو يتزاحمون على القطارات التي تصل بصرف النظر عن وجهتها. جلس عجوز في معطف ممزق من جلد الغنم، وعيناه مليئتان بالصديد، جلس عند باب غرفة الانتظار ينوح. جاء من لنكورانج على الحدود الفارسية. أخبرته أن بلاد فارس ليست في حرب معنا. كان من المستحيل تهدئته. "لا، يا سيدي، علا الصدا سيف إيران لزمن طويل، وهم الآن يجلبون الصدا من عليه. سيهاجمنا البدو، ويدمر شاه سيفانز بيوتنا، لأننا نعيش في بلاد الكفار. سيدمر أسد إيران بلادنا. وتصبح بناتنا إماء ويستمتعون بأولادنا". استمر في عويله التافه. تخلى الكوتشي عن الرجل البكاء، وسرنا أخيراً باتجاه الرصيف. بدا القطار كقناع وحش من وحوش ما قبل التاريخ. بدا أسود شريراً في خلفية من الصحراء الصفراء. ركبنا القطار، جلسنا وحدنا في مقصورة كاملة بعد أن وهبنا المشرف بقشيشاً سخياً. جلس الكوتشي على مقعد مغطى بالقטיפه الحمراء، منسوج عليه س ج د (ساكافكاسنيا جليسنيا دوروجا- سكك حديد ما وراء القوقاز). تحرك القطار وسط

الصحراء. تمتد الرمال الصفراء على مدى البصر، التلال الجرداء والصخور الخشنة تتوهج باللون الأحمر. هبت نسمة باردة من البحر من على بعد عدة أميال. في كل مكان من المنحدرات بقايا أعشاب متربة. ثم ظهرت للعيان قافلة من مئة جمل أو أكثر، بعضها بسنام، وبعضها بسنامين، بعضها كبير، وبعضها صغير، لكنها جميعاً تحدد في القطار بقلق. كانت خطواتها رتيبة واسعة، ورؤوسها تهتز بانتظام فيصدر رنين رتيب عن الأجراس الصغيرة المعلقة في رقابها. إذا تعثر أحدها، يختل إيقاع جرسه، ويختل إيقاع القافلة. فتشعر الحيوانات الأخرى كلها بالخلل، فتتململ حتى يعود الانسجام من جديد، وتبدأ القافلة الحركة. الجمل رمز الصحراء: كائن غريب نتج عن التزاوج بين الحيوان والطير، بغيض وجذاب، لطيف وعنيد، ولد من أحلام الصحراء ومن أجل تحقيقها ولد.

وبالنسبة لي كان الجرس النشاز رغبتني الأولى في الذهاب إلى الحرب بأسرع ما يمكن. كان أمامي وقت كاف للتفكير. القافلة تتجول شرقاً على الرمال الناعمة، ضائعة في حلم. والقطار يتجه شرقاً على القضبان، بلا عقل وبصورة آلية. لماذا لم أرفع يدي لشد حبل الاتصال؟ حيث أنتمي إلى الجمال، إلى الرجال الذين يقودونها، إلى الرمال، ماذا يمثل لي هذا العالم القابع وراء الجبال. هؤلاء الأوروبيون بحروبهم ومدنهم وقياصرهم وأباطرتهم وملوكهم؟ أحزانهم وسعادتهم، نظافتهم وقذارتهم. مفاهيمنا مختلفة عن النظافة والقذارة، عن الخير والشر، إيقاعنا مختلف ووجوهنا مختلفة. حتى لو اندفع القطار إلى الغرب، فقلبي وروحي ينتميان إلى الشرق.

فتحت النافذة، طللت منها بجسدي قدر ما أستطيع. تتبعت عيناى القافلة التى ابتعدت كثيرًا. كنت هادئًا ومطمئنًا، اتضححت أفكارى. لم يكن هناك عدو فى بلادى. لا أحد يهدد سهول ما وراء القوقاز. لم تكن الحرب حربى. يختلف الأمر بالنسبة للكوتشى. لا يعنيه أن يحارب من أجل القيصر أم من أجل الغرب. كان عبدًا لرغبته فى المغامرة. كان ككل الآسيويين يريد إراقة الدماء ورؤية الأعداء ييكون. أنا أيضًا أريد أن أشارك فى الحرب، أحن بكل روى إلى حرية المعركة، إلى دخان ساحة المعركة فى المساء. الحرب -يا لها من كلمة مدهشة، رجولية وقوية كاندفاع الرمح، لكن على أن انتظر. لهذا أحتار. بصرف النظر عمن يكسب الحرب - فالخطر يستفحل حولنا، ويقترّب، خطر أعظم من كل فتوحات القيصر مجتمعة. ويجب أن يبقى عدد كاف من الرجال فى بلادنا، ليحاربوا العدو القادم، حين يغزو بلدتنا وبلادنا وقارتنا. تمسك الآن يد خفية بأعنة القافلة، تدفعها إلى مراعى جديدة وطرق جديدة. وهذه الطرق ليست إلا طرق الغرب، طرقًا لا أريد السير فيها.

لهذا أبقى فى البيت. فقط، حين يهاجم الكائن الخفى عالمى - آنذاك فقط أشهر سيفى. ملت إلى الخلف فى مقعدى. كنت فى حالة طيبة أو صلتنى إلى هذه النتيجة. قد يقول الآخرون إننى بقيت فى البيت لأننى لا أريد الابتعاد عن سواد عيني نينو، ربما. ربما يكون هؤلاء الناس على حق. تلكما العينان السوداوان أَرْضِي المحلية، نداء الوطن لابن غريب على وشك أن يتوه. سأدافع عن سواد عيون وطنى من الخطر الخفى.

نظرت إلى الكوتشي. استغرق في نوم عميق، وشخيره يشبه مارشاً  
عسكرياً.

## 9

بدأت البلدة كسولة متوانية في وهج شمس أغسطس فيما وراء القوقاز. لم يطرأ تغير على ملامح وجهها القديم. اختفى عدد كبير من الروس، ذهبوا إلى الحرب من أجل القيصر والوطن. وكان رجال الشرطة يفتشون منازل الألمان والنمساويين. ارتفعت أسعار النفط، وانتعش الناس داخل السور العظيم وخارجه. يقرأ فقط رواد المقهى المحترفون الرسائل. كانت الحرب بعيدة، على كوكب آخر... تاهت أسماء البلدات أو ضاعت في معركة بدت بعيدة وغريبة. كانت صور الجنرالات، على الصفحات الأولى في الجرائد، تنم عن وداعة وثقة، ويقين في النصر. لم أذهب إلى المعهد في موسكو، لم أشأ مغادرة الوطن أثناء الحرب، لم أتقدم في الدراسة. لذا ازدراني أناس كثيرون، كما ازدروني لأنني لم أشارك في الحرب. لكن حين نظرت من سطح بيتنا إلى الدوامة متعددة الألوان في المدينة القديمة، عرفت أنه لا يمكن لأمر من

القيصر أن يفصلني أبداً عن الحائط الملتف حول وطني.

أصيب أبي بالدهشة والقلق: "ألا تريد حقاً أن تذهب إلى الحرب؟ أنت، علي خان شرفنشير؟"

"بلى، يا أبي، لا أريد أن أذهب".

"معظم أسلافنا سقطوا في ساحة المعركة. إنها الميته الطبيعية لأسرتنا".

"أعرف يا أبي. وأنا أيضاً سأموت في ساحة المعركة، لكن ليس الآن، وليس في مكان على كل هذا البعد..".

"الموت أفضل من أن تعيش مجللاً بالعار".

"لا أعيش مجللاً بالعار. هذه حرب لا تعنيني". تطلع أبي إليّ في ارتياب. هل كان ابنه جباناً؟ للمرة المائة حكى تاريخ العائلة: كيف حارب خمسة من عائلة شرفنشير تحت قيادة الشاه نادر دفاعاً عن مملكة الأسد الفضي. وكيف سقط أربعة في الحملة ضد الهند. ولم يعد من الهند سوى واحد فقط، عاد بكثير من الغنائم. اشترى ضياعاً وشيد قصوراً ونجا من الحاكم الرهيب. وعندما قاتل الشاه رُخ ضد حسين خان أخذ هذا السلف جانب الكجار الرهيب الأمير أغا محمد. وانطلق هو وأبناءؤه الثمانية عبر السند وخراسان وجورجيا. لم يبق على قيد الحياة سوى ثلاثة، استمروا في خدمة المخصي العظيم حتى بعد أن أصبح شاهاً. كانت خيامهم منصوبة في معسكر الأغا محمد في شوشا في ليلة قتله. بدم تسعة من أبنائهم دفع آل شرفنشير ثمن الضياع التي منحهم إياها فتح علي، الوريث اللطيف لأغا محمد، في كل

من شيرفان ومازيندران وجليان وأذربيجان. أصبح الأخوة الثلاثة من أتباع وريث ملك الملوك، وحكموا شيرفان. ثم جاء الروس. دافع إبراهيم خان شرفنشير عن باكو، وكان موته البطولي في جنجا شرفاً آخر يضاف لاسمنا. ولم يتفرق آل شرفنشير إلا بعد سلام التركمان. قاتل أفراد العائلة في فارس وماتوا تحت قيادة الشاه محمد والشاه نصر الدين في الحملات ضد التركمان والأفغان، وفي روسيا ضحى أفراد العائلة بدمائهم دفاعاً عن القيصر في حرب القرم، وفي المعارك ضد الأتراك، وفي الحرب اليابانية. فكسبنا مكائنا وأوسمتنا، ونجح أبناء العائلة في الامتحانات حتى إن كانوا لا يعرفون جروندفيوم من جروندفيوم.

ثم قال والدي منهياً كلامه: "والآن تشتعل الحرب من جديد، لكنك، علي خان شرفنشير، تجلس على سجادة الجُبْن، مختفياً وراء المرسوم المعتدل الذي أصدره القيصر. لا فائدة من الكلام إذا كان تاريخ عائلتنا لا يجري في دمك. عليك بقراءة المآثر البطولية لأسلافنا ليس في الكتب الميتة التي يعلوها التراب، لكن في قلبك وأوردتك". صمت أبي حزيناً. وبخني، لأنه لم يفهمني. هل كان ابنه جباناً؟ كانت البلاد في حرب، ولم يندفع ابنه للاشتراك في المعركة، لم يتعطش لدماء الأعداء، ولم يطمح لرؤية الدموع في عيونهم؛ لا بد أنه ولد منحط! كنت أجلس على السجادة، مستنداً على وسائل ناعمة، وقلت ساخراً: "وعدتني بتحقيق ثلاث آمنيات. كانت الأولى قضاء الصيف في كاراباخ. وحن الآن تحقيق الأمانة الثانية: أشهر سيفي حين أريد. ولا أظن أن الوقت سيتأخر كثيراً. لزم من طويل، سيكون

السلام شيئاً من الماضي. ستحتاج بلادي إلى سيفي فيما بعد".

قال والدي: "حسناً". لم يتحدث بعد ذلك عن الحرب، لكنه نظر إليّ بازدياء واستغراب. ربما لم يكن ابنه منحطاً رغم كل شيء. تحدثت إلى ملا مسجد تازاير، ففهمني على الفور. جاء إلى البيت بجبة فضفاضة، يفوح منه شذا العنبر، واختلى بأبي وقتاً طويلاً. قال له إن هذه الحرب من منظور القرآن ليست من مهام المسلم. واستشهد بكثير من أحاديث الرسول لدعم هذا الرأي. من بعدها استمتعت بالسلام والهدوء في بيتي. كان ذلك في بيتي فقط. انتشرت الرغبة في الحرب بين جموع الشباب، ولم يكن لدى كل شخص فهم كافٍ للتراجع. ذهبت أحياناً لرؤية أصدقائي. تجاوزت بوابة زيزينا شفيلى، وانحرفت إلى زقاق أشوم، وعبرت شارع هولي أولجا، وعرجت إلى منزل سينال أغا.

كان إلياس يجلس إلى الطاولة، منحنياً على رسائل عسكرية. ويجواره يجثم محمد حيدر، مغفل المدرسة، مقطباً ويدو في حالة هلع. رجّته الحرب. ترك للتوبييت الحكمة، وكان، شأنه في ذلك شأن إلياس بج، يرغب في شيء واحد فقط: وضع النجوم الذهبية على كتفيه. لذا كانا كلاهما يستعدان لخوض الامتحان الذي يؤهلهم ليكونا ضابطين. حين دخلت الغرفة سمعت لغطاً يائساً من محمد حيدر: "واجب الجيش والأسطول الدفاع عن القيصر وأرض الوطن ضد العدو الخارجي والداخلي". أخذت الكتاب السيئ من الشاب وفحصته: "من هو، يا سيد محمد حيدر، العدو الخارجي؟"

قطب حاجبيه مفكراً بعمق وانفجر فجأة: "الألمان والنمساويون".



قلت في بهجة وانتصار: "خطأ تماماً يا عزيزي، يصف مصطلح العدو الخارجي أي تشكيل عسكري يهدد بخرق حدودنا بهدف الحرب". ثم وجهت كلامي إلى إلياس بج: "ما الطلقة؟"

رد آلياً: "الطلقة اندفاع رصاصية من فوهة البندقية بمساعدة البارود". واستمرت لعبة الأسئلة والأجوبة بعض الوقت. اندهشنا جميعاً لأننا رأينا مدى صعوبة قتل عدو طبقاً لكل القواعد والنظم. يا لنا من مجموعة هواة بارعين في ممارسة هذا الفن في بلادنا! ثم بدأ محمد حيدر وإلياس بج الكلام بحماس حول مسرات حملاتهم المستقبلية. وقد لعبت صور النساء الأجنيات، وقد جلسن في خير وسلام على أطلال بلداتهن المحطمة، الدور الرئيسي في أحلام يقظتهما. وقالوا إن كل جندي يحمل عصا الفيلد مارشال في حقيبته. ونظروا إليّ في ترفع. وقال محمد حيدر: "حين أكون ضابطاً، عليك أن تتركني أسبقك في الشارع، وتبجلني، لأنني أدافع عن جسدك الكسول بدمي الشجاع".

"حين تكون ضابطاً ستكون الحرب قد انتهت منذ زمن طويل، واحتل الألمان موسكو". لم يبد بطلا المستقبل أي امتعاض لهذه النبوءة. لم يكن يعنيهما من يكسب الحرب، أكثر مما كان يعنيني. كانت بيننا جبهة ومقاطعة تغطي سدس مساحة العالم. كان واضح استحالة أن يتمكن الألمان من احتلال كل هذه المساحة. بدل أن يحكمنا ملك مسيحي يحكمنا ملك مسيحي آخر. تلك هي المسألة. لا، كان الأمر بالنسبة لإلياس بج مغامرة، وبالنسبة لمحمد حيدر عذراً مقبولاً لإنهاء الدراسة وشغل وظيفة طبيعية ورجولية. سيكونان في الجبهة ضابطين رائعين. إن شعبنا شجاع. لكن إلى أي هدف

توجه هذه الشجاعة. لم يطرح إلياس بج أو محمد حيدر هذا السؤال على نفسيهما أبداً، ربما ذهبت كل تحذيراتي أدراج الرياح، لأن شهوة الشرقي للدم استيقظت في أعماقهما.

بعد أن وبخاني بما يكفي، غادرت منزل سينال أغا. وصلت إلى المنتزه مروراً بالأزقة المتعرجة في حي الأرمن. كان بحر قزوين، المالح ذو اللون الرصاصي، يلعب صخور الجرانيت، وقارب حربي يرسو في الميناء. جلست أطلع إلى الزوارق الشراعية المحلية الصغيرة وهي تلاطم الموج بشجاعة. كنت أستطيع بسهولة ويسر أن أستقل واحداً منها وأذهب إلى ميناء أسترا في إيران، أهبط في عش السلام في بلاد الشاه، البلاد الواسعة الخضراء، حيث أعاني آلام سوداوية الحب كما عبرت عنها أشعار جميلة كتبها الشعراء الكلاسيكيون، وأقرأ عن رستم، عن مآثر البطل الصنديد، وأشاهد حدائق الورود يفوح منها العطر في قصور طهران. بلاد الأحلام الرائعة.

أخذت أقطع المنتزه جيئةً وذهاباً لأضيع بعض الوقت، لأنني كنت أشعر أن ذهابي لرؤية نينو في بيتها يعد أمراً غريباً. كان ذلك ضد كل مفاهيم السلوك القويم. لكن حيث كانت الحرب دائرة، فربما يكون كيباني الأب مرناً إلى حد ما. في النهاية أخذت نفساً عميقاً، وعدت إلى بيتها. كان مكوناً من أربعة طوابق، في الطابق الثاني لوحة نحاسية مكتوب عليها الأمير كيباني. فتحت الباب خادمة ترتدي مريلة بيضاء وانحنى في احترام. أعطيتها قبعتي، مع أن الضيف في الشرق يحتفظ بقبعته على رأسه، لكنني كنت أعرف كيف أتصرف مع الأوروبيين. كان أفراد الأسرة البارزة في غرفة الرسم يتناولون الشاي.

كانت غرفة فسيحة، الأثاث مغطى بحريز أحمر، وفي الزوايا نخيل وبقايات من الزهور، لم تكن الحوائط مدهونة أو مغطاة بالسجاجيد، كانت مغطاة بالورق. كان أفراد الأسرة البارزة يتناولون شايًا إنجليزيًا مع لبن في أكواب عليها رسوم جميلة، على الطريقة الإنجليزية. كان هناك بسكويات وبقسمات، وأنا أقبل يد أم نينو شممت رائحة البسكويات والبقسمات وماء الورد. صافحني الأمير، صافحتني نينو بثلاث أصابع وهي تنظر جانبًا إلى كوب الشاي. جلست وقدم لي الشاي. سأل الأمير بلطف: "هل قررت عدم الاشتراك في الحرب في الوقت الحالي، يا خان؟"

"لا، سعادتك، لم أقرر بعد".

وضعت الأميرة كوب الشاي: "لكنني لو كنت مكانك لالتحقت بإحدى اللجان التي تشارك في المجهود الحربي. ترتدي على الأقل زيًا رسميًا".

"ربما أفعل ذلك أيتها الأميرة، إنها فكرة جيدة".

قال الأمير: "سأفعل ذلك أنا أيضًا، حتى لو كنت لا أستطيع أن أفارق مكثي. سأضحى بوقت فراغي من أجل أرض الأجداد".

"بالطبع، أيها الأمير. لكن لسوء الحظ لا أملك إلا قدرًا ضئيلاً من وقت الفراغ، وأخشى ألا تستطيع أرض الأجداد الاستفادة مني".

انتابت الأمير دهشة حقيقية: "ماذا تفعل؟"

"أنا مشغول بإدارة ضياعي أيها الأمير". هذا ما كان. قرأت هذه الجملة في رواية إنجليزية. إذا كان اللورد النبيل لا يفعل شيئًا، فهو مشغول بإدارة

ضياعه. أرى مكاني ارتفعت كثيرًا في عيون الأبوين البارزين. ثم تبادلنا عبارات أروع، وسمح لي بالذهاب مع نينو إلى الأوبرا في تلك الليلة. مرة أخرى قبلت يد الأميرة، وانحنيت بشدة، ونطقت "ر" كما ينطقها أهل بطرسبرج، على أن أعود في السابعة والنصف.

أوصلتني نينو إلى الباب، وحين أخذت كابي من الخادمة احمرت وجنتاها، وحتت رأسها وقالت في لهجتها التتارية المكسرة الرائعة: "أنا سعيدة بشدة لأنك ستمكث هنا. إنني سعيدة حقًا. لكن قل لي يا علي خان، هل تخاف من الذهاب إلى الحرب؟ من المؤكد أن الرجال يحبون المعارك. وربما أحب حتى جراحك". لم أرتبك، لكنني أخذت يدها وضغطت عليها.

"لا، لست خائفًا. سيأتي وقت تضمدين فيه جراحي. لكن حتى ذلك الوقت اعتبريني جبانًا إذا كان ذلك يسعدك". نظرت نينو إليّ ولم تفهمني. ذهبت إلى البيت ومزقت كتابًا في الكيمياء ألف قطعة. ثم تناولت كوبًا من الشاي الإيراني الحقيقي وحجزت مقصورة في الأوبرا.

## 10

اغلق عينيك، غط أذنيك بيديك وافتح روحك. هل تتذكر تلك الليلة في طهران؟ ردهة صخرية زرقاء واسعة، توقيع نبيل بيد الشاه نصر الدين على المدخل. في منتصف الردهة مسرح مربع، التف الجميع حوله، جلوسًا، وقوفًا، رقودًا، رجال محترمون، أطفال مشدوهون، شبان متعصبون؛ الجمهور المخلص في مسرحية أحزان الإمام الحسين. القاعة مضاءة بضوء خافت. على المسرح ملائكة ملتحون يواسون الحسين الشاب. يرسل الخليفة يزيد البشع فرسانه إلى الصحراء ليأتوه برأس الشاب. تتداخل أغاني الحداد مع صهيل السيوف. يتجول علي وفاطمة وحواء، المرأة الأولى، على المسرح، يغنون رباعيات متعددة الأوزان. يقدم شخص ما رأس الحسين الشاب على طبق ذهبي إلى الخليفة. يرتجف المشاهدون ويبكون. يمر الملا بين الصفوف يجمع الدموع في ثوب قطني. في تلك الدموع قوى سحرية شديدة. كلما

كان إيمان المشاهد أعمق ازداد تأثير المسرحية عليه. يصبح لوح خشبي صحراء، وصندوق عرشاً للخليفة مرصعاً بالماس، وتصبح بضع ألواح خشبية جنة عدن، ويصبح رجل ملتجئ بنت النبي.

الآن افتح عينيك، واترك يديك بجانبك وانظر حولك: ضوءٌ ساطعٌ يصدر عن عدد هائل من لمبات الكهرباء. الجدران والمقاعد مغطاة بقطيفة حمراء، المقصورات مرفوعة على آلهة من المصيص المذهب. تلمع الرؤوس الصلعاء في المقاعد الخشبية كما تلمع نجوم الليل في السماء. ويضفي بياض ظهور النساء وأذرعهن المكشوفة مزيداً من الروعة على المشهد. تفصل الجمهور عن خشبة المسرح هوة معتمة. حيث يجلس عازفون مجهولون بلا ملامح يضبطون آلاتهم. قاعة الاجتماعات مليئة بصوت محادثات هادئة، تنتقل من موضوع إلى آخر، صوت البرامج البالية، وصوت المراوح والنظارات. إنها أوبرا باكو قبل بداية يوجين أونين. نينو تجلس بجواري. تحولت بوجهها البضاوي إليّ، شفتاها نديتان وعيناها جافتان. لم تنطق بكلمة. حين أطفئ النور وضعت ذراعي حول كتفها. مالت برأسها جانباً وبدت مستغرقة في موسيقى تشايكوفسكى. كان يوجين أونين يتجول على المسرح في ثياب الوصي على العرش، وتيانا تغني.

أفضل الأوبرا على المسرحية. قصص الأوبرا أبسط بالمقارنة، ومعظمها معروف على أية حال. لا أهتم بالموسيقى إن لم تكن صاخبة. وفي المسرح كثيراً ما أبذل جهداً حقيقياً لمتابعة الأحداث الغريبة التي تجري على خشبة المسرح. كان المكان مظلماً، وحين أغمض عيني يظن القرييون مني أن

روحي غارقة في خضم سحر الموسيقى. هذه المرة عيناى مفتوحتان. نينو تميل إلى الأمام ومن وراء صورتها الرائعة رأيت الصف الأول من المقاعد. في المنتصف يجلس رجل بدين بعينين خجولتين وجبهة فلسفية - صديقي القديم مليك نشارارين. كان رأسه يتحرك في توافق مع الموسيقى بين العين اليسرى لنيو وأنفها.

همست: "انظري، إنه نشارارين".

ردت هامسة: "انظر إلى خشبة المسرح يا همجي". لكنها نظرت بسرعة إلى الأرمني البدين. التفت وهز رأسه في ترحيب حار.

أثناء الاستراحة قابلته في البوفيه، وأنا أشتري شيكولاتة لنيو. حضر إلى مقصورتنا وجلس، كان بديناً وماهراً وأصلع إلى حد ما.

سألت: "كم عمرك يا نشارارين؟"

رد: "ثلاثون".

نظرت نينو إليه وقالت: "ثلاثون، إذن لن نراك بعد الآن في البلدة، على ما أظن".

"لماذا تقولين ذلك أيتها الأميرة؟"

"لأنه تم استدعاء كل من هم في عمرك".

ضحك بصوت مرتفع، وجحظت عيناه واهتزت معدته: "لسوء الحظ، أيتها الأميرة، لا أستطيع الذهاب إلى الحرب. اكتشف طبيبي أنني أعاني من إمبايم غير قابل للشفاء في حشايا الكلى، ويجب أن أبقى هنا". بدا اسم

المرض غريبًا، فكرت في آلام المعدة. اتسعت عينا نينو.

تساءلت بكل عطف: "هل هذا مرض بالغ الخطورة؟"

"الأمر يعتمد على الظروف. بمساعدة طبيب لا يعرف شغله قد يصبح أي مرض خطيرًا".

اندهشت نينو وامتنعت. عليك نشارارين ينتمي لواحدة من أنبل عائلات كاراباخ. كان والده جنرال، وهو نفسه قوي كالثور، وصحته على أفضل ما يكون، وأعزب. وهو يغادر مقصورتنا لدعوته لتناول العشاء معنا. شكرني بأدب ووافق. ارتفعت الستارة، ووضعت نينو رأسها على كتفي. أثناء عزف الفالس الشهير لتشايكوفسكي رفعت عينيها إليّ وهمست: "أنت بطل مقارنة بنشارارين. على الأقل أنت لا تعاني من حشاي الكلى".

قلت، ملتصقًا العذر لنشارارين: "الأمر من خيالهم أوسع من المسلمين".

بقى رأس نينو على كتفي حتى ولينسكي يخطو بصوته البطولي الصاح أمام بندقية يوجين أونين، ويقتل، كما هو معروف. كان أمر سهل، انتصارًا رائعًا وتامًا، شعرنا بضرورة الاحتفال به. كان نشارارين ينتظرنا في المدخل. كان يمتلك سيارة أوروبية فخمة، تقف قرب عربة بحصانين ملك عائلة شرفنشير. انطلقنا عبر ظلمة أزقة بلدتنا، ومررنا بمدرستينا. في الليل تبدو هذه المباني أجمل. وقفنا أمام السلم الرخامي لنادي المدينة. وكان ذلك خطيرًا. لكن إذا كان أحدنا يدعى شرفنشير والآخر نشارارين، فعلى الأميرة كيباني ألا تنزعج لخرق القواعد والنظم التي تعلمتها في ليسيوم الملكة تمار المقدسة.



في التراس الواسع لمبات بيضاء ساطعة. اتخذنا طاولة تطل على حديقة الحاكم، كانت مظلمة، تطلعننا إلى البحر الذي يبرق قليلاً، ومنارة جزيرة نرجين. سمعت أصوات الزجاجات. نينو ونشارارين يشربان شمبانيا. وحيث لا يوجد في العالم ما يجعلني أشرب على الملأ، ولا حتى عيون نينو، احتسيت كالعادة عصير برتقال. انتهت رقصة الرجال الستة أخيراً، فقال نشارارين بجدية وعمق: "نحن هنا نمثل أعظم ثلاثة شعوب قوقازية: جورجية ومسلم وأرميني. ولدنا تحت السماء نفسها، على الأرض نفسها، مختلفين ومؤلفين، مثل ثالوث الرب. أوروبيون إلا أننا آسيويون، نأخذ من الشرق والغرب، ونعطي لكليهما".

قالت نينو: "اعتقدت دائماً أن القتال عنصر قوقازي. إلا أنني الآن أجلس بين اثنين من القوقاز، لا أحد منهما يريد القتال".

نظر إليها نشارارين بتسامح: "نحن الاثنين نريد القتال، أيتها الأميرة، لكن ليس ضد بعضنا. هناك جدار عال بيننا وبين الروس. الجدار هو القوقاز. لو فاز الروس بالحرب فسيصبح وطننا روسياً تماماً. نخسر كنائسنا ولغتنا وهويتنا. نصبح هجيناً أوروبياً آسيوياً بدل أن نكون نقطة اتصال بين العالمين. لا، من يقاتل من أجل القيصر يقاتل ضد القوقاز".

تفوهت شفتا نينو بما تعلمته في المدرسة: "مزق الفرس والأتراك بلادنا. دمر الشاه الشرق، ودمر السلطان الغرب. كم من الفتيات الجورجيات أصبحن جواري، جررن ووضعن مع الحريم! لم يأت الروس من أنفسهم؛ طلبنا منهم أن يأتوا. تنازل جورج الثاني عشر طواعية للقيصر عن العرش.

'لا لنوسع مقاطعات إمبراطوريتنا المترامية الأطراف أخذنا على عاتقنا حماية مملكة جورجيا'... ألم تسمعوا بهذا الكلام؟" بالطبع سمعنا. ثمان سنوات وهذه الكلمات تطرق آذاننا في المدرسة، هذا البيان الذي أعلنه ألكسندر الأول بشأننا منذ مئات السنين. يمكن رؤيته في الشوارع الرئيسية في تفليس، محفورة على لوحة برونزية: "لا لنوسع مقاطعات إمبراطوريتنا المترامية الأطراف أخذنا على عاتقنا..". لم تكن نينو مخطئة تمامًا. كانت قاعات الحرم في الشرق مليئة بالسبايا المسيحيات، شوارع البلديات القوقازية مليئة بالجثث المسيحية. بالطبع، كان يمكنني أن أرد: "أنا مسلم وأنتما مسيحيان، وقد وهبكم الله غنيمة شرعية لنا". بقيت صامتة في انتظار رد نشارارين.

قال: "حسنًا، ترين أيتها الأميرة، من يتكلم من منظور السياسة يندفع أحيانًا ليكون ظالمًا أو حتى جائرًا. أسلم بأن الروس جلبوا السلام إلى بلادنا، لكن نحن، شعب القوقاز، نستطيع المحافظة على السلام بدونهم. يزعمون أن عليهم حمايتنا من بعضنا البعض. ولذا توجد هنا كل الأنظمة الروسية، الموظفون الروس والحكام. لكن أسألي نفسك أيتها الأميرة: هل تمت حمايتك مني؟ هل يجب حمايتي من علي خان؟ ألا نجلس معًا جميعًا بسلام قرب نبع البتسابور؟ مر بالتأكيد وقت نظرت فيه شعوب القوقاز إلى الفرس كعدو. العدو في الشمال، وهذا العدو ذاته يحاول إقناعنا بأننا أطفال، يجب حمايتهم من بعضهم البعض. لم نعد أطفالًا، شبينا عن الطوق منذ زمن".

سألت نينو: "وهل هذا هو السبب في أنك لن تذهب إلى الحرب؟"

كان نشارارين قد تجرع قدرًا كبيرًا من الشمبانيا. قال: "ليس لذلك فقط، أنا كسول، وأحب راحتي. أخذ على الروس أنهم صادروا ممتلكات الكنيسة الأرمنية، وهنا أفضل من الخنادق. فعلت عائلتي الكثير من أجل الشهرة. أنا من دعاة المتعة".

قلت: "أفكر بطريقة أخرى، لست من دعاة المتعة، وأحب الحرب".

قال نشارارين: "أنت صغير يا صديقي"، وتجرع كأسًا أخرى. تحدث وقتًا طويلاً بمهارة فائقة. حين بدأنا العودة إلى منازلنا كانت نينو تعتقد، وإن لم يكن اعتقادًا راسخًا، بأنها على صواب. عدنا في سيارة نشارارين. وقال أثناء قيادته للسيارة: "هذه البلدة الرائعة بوابة أوروبا. لو لم تكن روسيا رجعية إلى هذا الحد لكنا بلدًا أوروبيًا".

فكرت في الأيام السعيدة حين كنت أدرس الجغرافيا وضحكت بصوت عالٍ. كانت ليلة ممتعة. حين ودع بعضنا البعض قبلت عيني نينو ويديها، ونشارارين ينظر إلى البحر. بعد ذلك انطلق بي إلى بوابة زيزيانشفيلي... ما كان للسيارة أن تسير أبعد من ذلك. وراء الحائط كانت هناك آسيا. وكان آخر سؤال طرحه: "هل ستزوج نينو؟"

"إن شاء الله".

"عليك التغلب على بعض المشاكل يا صديقي. إذا احتجت إلى مساعدة فأنا تحت أمرك. أؤيد بكل قلبي التزاوج بين العائلات ذات المكانة الرفيعة في شعبنا. يجب أن نتكاتف".

ضغطت على يده بدفء. على ما يبدو، كان هناك حقاً أرمن مهذبون. وكانت هذه فكرة محيرة تماماً. دخلت البيت مجهداً. كان الخادم مقرصاً على الأرض، يقرأ. نظرت في الكتاب. نسخة عربية من القرآن مزخرفة بخطوط متعرجة على الصفحات. نهض الخادم وحياني. أخذت منه المصحف وقرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠، ٩١). انبعث شذا عطر من الصفحات. من الورق الرقيق الأصفر. كانت كلمات الله، المحفوظة في غلاف جلدي، حادة ومحدرة. أعدت الكتاب ومضيت إلى غرفتي. كان الديوان واسع ومنخفض وناعم. أغمضت عيني كما أفعل دائماً حين أريد أن أرى بوضوح شديد. رأيت الشمبانيا، أوجين أونين على الكرة، عين نشارارين التي تشبه عين الخروف، رقة شفتي نينو، وجموع الأعداء تتدفق على الحائط الجبلي لتحتل بلدتنا.

أتى صوت غناء رتيب من الشارع. صوت هاشم الوهّان. بلغ أرذل العمر، ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن الحب الذي يشجيه. يجله الناس بمنحه الاسم العربي المجنون، عليل الحب. في الليل يتسكع في الأزقة، يجلس في الزوايا، يبكي ويغني أحزانه حتى الفجر. سهلت أنغامه الرتيبة دخولي في النوم. أدت وجهي إلى الحائط وغرقت في الظلمة والأحلام. كانت الحياة ما تزال مدهشة.

## 11

للعصا طرفان: طرف علوي وآخر سفلي. إذا غيرنا اتجاه العصا يصبح الطرف العلوي سفلياً والسفلي علوياً ولا يطرأ تغير على العصا ذاتها. كان الأمر على هذا النحو معي. مازلت أنا نفسي كما كنت من شهر أو عام مضى. الحرب ذاتها تدور في العالم الكبير، والجنرالات أنفسهم ينتصرون أو يُهزَمون. لكن الذين اهتموني بالجبن منذ وقت قصير يخفضون عيونهم الآن حين يقابلونني: يمتدح الأصدقاء والأقارب حكمتي، وينظر أبي إليّ بزهو. لكن العصا نفسها لم يطرأ عليها تغير. ذات يوم انطلقت الإشاعات في كل أنحاء البلدة: أعلن جلاله السلطان محمد رشيد الخامس، سلطان الإمبراطورية العثمانية، الحرب على بلاد الكفار. جيوشه المظفرة تزحف باتجاه الشرق والغرب، لتحرير المؤمنين من نير روسيا وانجلترا. أعلنت الحرب المقدسة كما قيل، ارتفعت رايات النبي خضراء على قصر الخليفة.

صرت بطلاً. أتى الأصدقاء لرؤيتي وامتداح بصيرتي. كنت محققاً تماماً في رفض الذهاب للحرب. على المسلم ألا يحارب أبداً ضد السلطان. سيأتي إخواننا الأتراك إلى باكو، وبالاتحاد مع الأتراك يصبح شعبنا أمة كبيرة من المؤمنين.

لذت بالصمت وانحنيت دون أن أرد على إطرائهم لي. على الرجل الحكيم ألا يرتبك بمديح الآخرين أو لومهم. يفرد الأصدقاء الخرائط. اختلفوا بعنف بشأن الجزء الذي قد يدخل منه الأتراك إلى البلدة. أوقفت الاختلاف بالقول: بصرف النظر عن الاتجاه الذي قد يأتي منه الأتراك فسيأتون بالتأكيد عبر حي الأرمن. مرة أخرى نظر الأصدقاء إليّ بإعجاب ومرة أخرى أشادوا بحكمتي.

تغير روح الإنسان خلال الليل. لم يعد المسلم يندفع للمشاركة في القتال. فجأة أرهق إلياس بج من الحرب، ودفع سينال أغا مبلغاً هائلاً من المال ليعيده إلى حامية باكو. وكان الرفيق المسكين قد اجتاز امتحان الضباط قبل إعلان تركيا للحرب بقليل، وحدثت المعجزة: حتى محمد حيدر اجتاز الامتحان بنجاح. وأصبح كل منهما ملازماً أول، وجلسا في ثكناتهما يحسدانني لأنني لم أقسم يمين الولاء للقيصر. لم يكن أمامهما من سبيل للتراجع. لم يرغبهما أحد؛ أقسما اليمين بإرادتهما، وقد أكون أول من يتخلى عنهما إذا لم يفيا بيمينيهما.

كنت شديد الهدوء في تلك الأيام، ولم يكن ذهني صافياً. فقط خرجت ذات مساء وسرت بسرعة إلى المسجد الصغير القريب من الحصن. كان سيد

مصطفى يعيش هناك في منزل قديم، وهو صديق قديم من أيام المدرسة. كان من نسل النبي. كان وجهه مليئاً بالندب، وعيناه ضيقتان، ويرتدي الوشاح الأخضر الذي يميز الأشراف. كان والده إمام المسجد الصغير، وجده حكيماً مشهوراً عند مقبرة الإمام الرضا في بلدة مشهد المقدسة. كان يحافظ على الصلوات الخمس. كتب اسم الخليفة الملحد يزيد بالطباشير على أخمص قدميه، ليسحق في التراب اسم من كره الإيمان الصادق. في العاشر من محرم، يوم الحداد المقدس، كان يمزق جلد صدره حتى تتدفق منه الدماء. كانت نينو تراه متعصباً وتحتقره لهذا السبب. أحبيته لبصيرته الثاقبة، ولأنه يتمتع بقدرة نادرة على التمييز بين الثمين والغث، وبين الحق والباطل.

حياني بالابتسامة المرححة التي تميز الحكماء: "هل سمعت يا علي خان أن الثري يعقوب أوغلي اشترى اثني عشر صندوقاً من الشمبانيا ليشربها مع القائد التركي الذي يأتي إلى البلدة. شمبانيا! شمبانيا نخب الحرب الإسلامية المقدسة!"

هززت كتفي: "هل هذا يدهشك يا سيد؟ لقد جن العالم".

قال سيد بتجهم: "يضل الله من صب عليهم نقمته". قفز وارتجفت شفتاه. أمس رفض ثمانية رجال القتال في صفوف جيش السلطان، ثمانية رجال! أسألك يا علي خان، ماذا يظن هؤلاء الرجال أنهم فاعلون؟"

رددت بحذر: "رؤوسهم فارغة كمعدة ثور جائع".

لم يقف غضب سيد عند حد، صرخ: "انظر! الشيعة يقتلون من أجل

الخليفة السني! ألم يرق يزيد دم حفيد النبي؟ ألم يقتل معاوية علياً كرم الله وجهه؟ من وريث النبي؟ في من تتدفق دماء النبي، في عروق الخليفة أم في عروق الإمام الخالد الغائب؟ على مدار القرون والشيعية في حداد، تتدفق الدماء بيننا وبين المرتدين، وهم أسوأ من الكفار. الشيعة هنا -السنة هناك- لا يوجد اتصال بيننا. منذ زمن ليس بالبعيد ذبح السلطان سليم أربعين ألف شيعي. والآن؟ يقاتل الشيعة من أجل الخليفة الذي سرق ميراث النبي. نُسي كل شيء: دم الإخلاص وسر الأئمة. هنا في بلدنا الشيعية، يحن الرجال لقدوم السنة وتدمير إيماننا. ماذا يريد الأتراك؟! تقدم عنبر حتى إلى أورميا. ستنمق إيران. الإيمان الحق يُدمر. أوه يا علي، تعال بسيفك المتوهج، نفذ الحكم على المرتدين! أوه يا علي، يا علي...!"

تدفقت دموعه، ضرب على صدره بقبضته.

نظرت إليه في حيرة. ما الصواب، ما الخطأ؟ حقاً، الأتراك سنة. إلا أن قلبي كان لا يزال تواقاً لرؤية عنبر يأتي إلى بلدنا. ماذا كان ذلك يعني؟ هل دم شهدائنا يتدفق حقاً في عروقنا؟ قلت: "يا سيد، الأتراك من دمناء لغتهم لغتنا. يجري دم توران في عروقهم وعروقنا. ربما لذلك يكون الموت تحت هلال الخلفاء أسهل من الموت تحت صليب القيصر".

جفف سيد مصطفى عينيه وقال ببرود وزهو: "يتدفق في عروقي دم محمد. دم توران؟ يبدو أنك نسيت حتى المعلومات البسيطة التي تعلمتها في المدرسة. اذهب إلى جبال ألثاي، أو حتى إلى أبعد من ذلك، إلى حدود سيبريا: من يعيش هناك؟ أتراك، مثلنا، لغتهم لغتنا ودمهم دمناء. أضلهم



الله، وبقوا وثنين، إنهم يعبدون الأصنام: سو-تنجري رب الماء، تب-تنجري رب السماء. إذا أصبح هؤلاء الياكوت والألتيون أقوياء، فهل علينا نحن الشيعة أن نسعد بانتصارات الوثنيين، لأن دماءنا مشتركة؟"

سألت: "ماذا نفعل يا سيد؟ السيف الإيراني صداماً. من يقاقل الأتراك يساعد القيصر. هل علينا باسم محمد حماية صليب القيصر من هلال الخليفة؟ ماذا نفعل يا سيد؟" لف مصطفى حزن فطيع. نظر إليّ، وبدا وكأن يأس ألف عام احتشد في عينيه.

"ماذا نفعل يا علي خان؟ لا أعرف". كان في كربٍ شديدٍ، إلا أنه لم يكن يخفى الأمر في تعبيرات جوفاء.

صمت في حيرة. كان الدخان يتصاعد من لمبة الزيت الصغيرة. في الدائرة الصغيرة من الضوء تبرز ألوان سجادة الصلاة، كزهور في حديقة يمكن أن تطوي وتؤخذ في رحلة. وكان سيد مصطفى في هذا العالم كما لو كان في رحلة، ولذلك كان من السهل أن يدين ذنوب الآخرين. قد يصبح بعد عشر سنوات أو عشرين إماماً في ضريح الرضا في مشهد، أحد الحكماء الذين يقودون مصير بلاد فارس، الحكماء الغائبين. كانت عيناه بالفعل مرهقتين كعيني عجوز، يعرف شيخوخته ويقدرها. لا يفرط في شعرة من الإيمان الصادق، وبرغم ذلك يمكنه أن يعيد لبلاد فارس عظمتها وهبتها. يفضل العزلة على البحث عن شارة العظمة الأرضية بعبور مستنقعات الذنوب. ولذا كان صامتاً ولا يعرف ماذا يفعل. لذا أحبه، ذلك الحارس الوحيد على عتبة إيماننا الصادق. قلت، للخروج من الموضوع: "مصيرنا

بيد الله يا سيد مصطفى، سيهدينا الله للطريق القويم. لكنني جئت الليلة لأحدث إليك في موضوع آخر". نظر سيد مصطفى إلى أظافره المصبوغة بالحناء. كان يحرك مسبحة من الكهرمان بين أصابعه. نظر إلى أعلى، واحتلت ابتسامة عريضة وجهه المليء بالندوب.

"أعرف يا علي خان، تريد أن تتزوج".

قفزت من الدهشة. كنت أريد الحديث عن تأسيس منظمة كشافة للفتية الشيعة. لكنه بالفعل كان قد أخذ على عاتقه دور قس ومعرفته.

"كيف عرفت أنني أريد الزواج، وما رأيك في الموضوع؟"

"أراه في عينيك، ولي رأي في الموضوع لأنني صديقك. تريد أن تتزوج نينو المسيحية التي لا تحبني".

"نعم. حسنًا، ما رأيك؟"

نظر إليّ سيد نظرة حكيم متفحص: "أقول نعم يا علي خان. على الرجل أن يتزوج ومن الأفضل أن يتزوج امرأة يحبها. وليس من الضروري أن تبادلها هذا الحب. الرجل الحكيم لا يغازل المرأة. المرأة مجرد تربة يزرعها الرجل. هل على الحقل أن يحب الفلاح. تزوج ولا تنسَ أبدًا: المرأة مجرد تربة".

"هل يعني ذلك أنك تعتقد أن المرأة تفتقر إلى الروح والذكاء؟"

نظر إليّ بشفقة: "كيف تطرح هذا السؤال يا علي خان؟ بالطبع تفتقر إليهما. لماذا يجب على المرأة أن تتمتع بأي منهما؟ يكفيها أن تكون طاهرة

وتنجب كثيرًا من الأطفال. تنص الشريعة على أن شهادة رجل تفوق شهادة ثلاث نساء. لا تنس ذلك أبدًا يا علي خان".

كنت مستعدًا تمامًا لسماع تأنيب سيد مصطفى لأنني أريد الزواج من مسيحية لا تحبه، ولذا تأثرت حقًا بإجابته. تأكدت مرة أخرى من شرفه وحكمته. قلت بلطف: "أي أنك لا تهتم بكونها مسيحية؟ أو أن تعتنق الإسلام؟"

سأل: "لماذا تفعل ذلك. المخلوق الذي يفتقر للروح والذكاء لا يعرف الإيمان على أية حال. لا جنة ولا جحيم في انتظار المرأة. حين تموت تتحلل وتصبح عدماً. بالطبع يجب أن يكون الأبناء شيعة". هزرت رأسي موافقًا. نهض ومضى إلى خزانة الكتب. سحبت يده الطويلتان، يدا قرد حكيم، كتابًا مغبرًا. حدقت في الغلاف. كان الكتاب من تأليف الجنابي والعنوان بالفارسية: "تواريخ السلاجقة". فتح الكتاب وقال: "نحن هنا، صفحة 207". وقرأ بصوت عالٍ: "في سنة الهروب 637 مات السلطان علاء الدين كيكوباد في قلعة كابدیا. واعتلى خياس الدين كيخسروف عرش السلاجقة. وتزوج ابنة أمير جورجی، وكان حبه لهذه الجورجية المسيحية عظيمًا فأمر بطبع صورتها إلى جانب صورته على العملات في مملكته. أتاها الحكماء والأتقياء وقالوا: 'ليس للسلطان أن يخالف شرائع الله. هذه الصورة إثم'. غضب جلالته غضبًا شديدًا وقال: 'أمرني الله عليكم. وقدركم الطاعة'. انصرف الحكماء والأتقياء حزاني، لكن الله أضاء بصيرة السلطان. فدعا الحكماء والأتقياء للعودة إليه وقال: 'لن أخالف

الشرائع المقدسة التي فرضها الله علينا. ليكن الأمر كما يلي: للأسد عرف طويل وفي مخلبه الأيمن سيف، أنا ذاك الأسد. الشمس تشرق فوق رأسي، تلك هي المرأة التي أحبها. فلتكن تلك هي الشريعة. ومنذ ذلك الوقت صار الأسد والشمس رمزين لبلاد فارس. لكن الحكماء قالوا: 'لا يوجد أجمل من الجورجيات'". أغلق مصطفى الكتاب وابتسم ابتسامة عريضة. "أنت في الموقف نفسه؛ تقدم على ما قام به كيخسروف. وذلك لا يخالف أي شرع. الجورجيات من الغنائم التي وعد النبي بها أتباعه المخلصين: 'اذهبوا وخذوهن' كما ورد في الكتاب". وفجأة انفجرت أسارير وجهه العابس. ولملت عيناه الضيقتان بالحكمة. كان سعيدًا بنشر كلمات القرآن الكريم على غباء شكوك القرن العشرين. لعل الكفار يرون أين يكمن التقدم الحقيقي. عانقته وقبلته. ذهبت إلى البيت بخطوات ثابتة وقوية في الأزقة المظلمة. القرآن الكريم والسلطان ومصطفى الحكيم في جانبي.

## 12

الصحراء بوابة عالم سري لا يسبر غوره. يدوم الغبار والحجارة تحت  
 حوافر حصاني. صهوتي التيرك القوقازية ناعمة كأنها محشوة بالزغب. على  
 هذه الصهوة يمكن أن ينعس القوقازي ويقف ويتمدد. كل أمتعة دنياه في  
 حقائب صهوته: رغيف، زجاجة فودكا، حقيبة العملات الذهبية، غنائمه  
 من قرية كباردين. حقائب صهوتي خاوية. أخوض في رياح الصحراء  
 العاصفة، لا شيء في رمال رمادية لا تنتهي. تتدل من على كتفي بركة  
 وكيب أسود من لباد كباردين، لحمايتي من الحر والبرد. اخترع اللصوص،  
 ومن يمتطوا صهوات الجياد، هذا الثوب للسرقة وامتطاء الجياد. لا تحترقه  
 أشعة الشمس، أو قطرات المطر. يصنع بسهولة في خيمة، وكل ما ينهب  
 يمكن إخفاؤه في ثنايا البركة السوداء. كبيغاوات في قفص تجثم الفتيات  
 المخطوفات وراء من أسروهن، محميات في كيب واسع من اللباد.

أمضي على حصاني إلى بوابة الذئب الرمادي. صخرتان رماديتان هائلتان متآكلتان من عصور ما قبل التاريخ في محيط من الرمال، في منتصف الصحراء قرب باكو. ذات يوم قاد ساري كورت، الذئب الرمادي، جد الأتراك، قبيلة العثمانيين عبر هذه البوابة القوية الضيقة إلى أودية الأناضول الخضراء، كما تقول أسطورة قديمة. في الليالي حين يكتمل القمر يتجمع أبناء آوي وذئاب الصحراء عند الصخرتين ويعوون، كما تعوي الكلاب عند جثة. يتمتعون بحس قوي لرائحة الموت ويتصورون القمر جثة. تبدأ الكلاب في العواء في بيت الرجل حين يحتضر. تشم رائحة الموت حتى والرجل على قيد الحياة. تشبه ذئاب الصحراء، كما نشبه نحن، الرعايا الروس، الذئاب التي يقودها عنبريه إلى القوقاز. امتطي صهوة الحصان في خواء الصحراء الكبيرة، وأبي بجواري. يبدو وهو على صهوته متوحدًا مع حصانه ككائن خرافي. "سفر خان"، كان صوتي أجش، ونادرًا ما أنادي أبي باسمه. "سفر خان، أريد أن أتحدث إليك".

"تكلم يا بني ونحن على صهوة الحصان. الكلام أسهل حين يتحد الفارس والحصان". هل يسخر أبي مني؟ أضرب بسوطي ظهر الحصان. يرفع أبي حاجبيه. بحركة صغيرة من فخذه أمسك بي.

"حسنًا، يا بني؟" بصوت يبدو أنه يقلد صوتي.

"أريد أن أتزوج يا سفر خان".

صمت طويل. الرياح تصفر. الصخور تدوم تحت حوافر الحصانين. وأخيرًا رد: "أشيد فيلا لك. أعرف مكانًا في المنتزه. أظن أن هناك حظيرة.

يمكن أن تمكث أثناء الصيف في مَرْدَكياني. يمكن أن تسمي ابنك الأول إبراهيم تيمناً باسم جدك. سأهديك سيارة إذا رغبت في ذلك. لكن ليس هناك مبرر حقيقي لذلك، طرقتنا لا تناسب السيارات. حظيرة مليئة بالحياد أفضل".

يخيم الصمت مرة أخرى. بوابة الذئب الرمادي وراءنا. نسير باتجاه البحر، باتجاه ضاحية يَلُوف. ينطلق صوت والدي: "أبحث لك على زوجة جميلة أم بحثت بنفسك؟ في هذه الأيام يختار الشبان زوجاتهم بأنفسهم".

"أريد أن أتزوج نينو كيبياني".

يتجمد وجه أبي. يربت يده اليمنى على عنق الحصان. ويقول: "نينو كيبياني. وركاها نحيفان جداً. لكنني أعتقد أن كل الجورجيات بهذه الصورة. إلا أنهن ينجبن أطفالاً أصحاء".

"أبي!" لا أدري لماذا امتعض، لكنني ممتعض. ينظر إليّ شزراً ويتسم. "مازلت صغيراً جداً يا علي خان. ورك المرأة أهم بكثير من معرفتها باللغات". بدا وكأنه يتكلم بصورة عرضية تماماً: "متى تريد الزواج؟" "في الخريف، حين تنهي نينو الدراسة في المدرسة".

"رائع جداً. إذن يولد الطفل في مايو. مايو شهر الحظ".

"أبي!" مرة أخرى شعرت بحرق شديد ولم أعد أفهم نفسي. أشعر أن أبي يخدعني. لن أتزوج نينو لوركيها أو لمعرفتها باللغات، سأتزوجها لأنني

أحبها. يتسم أبي. ثم يوقف حصانه ويقول: "الصحراء واسعة وخاوية. لا يهم على أي تل نتناول فطورنا. أنا جائع. لنجلس هنا". نزلنا من على حصانينا. يتناول أبي رغيفاً من صهوته وقطعة جبن من لبن الأغنام، ويقدم لي نصفه. لكنني لست جائعاً. تمددنا على الرمال، يأكل وأنا أنظر في المدى. ثم تكسو الجلدية ملامح وجهه، ينهض ويتصب مثل مدك البندقية، ورجلاه متقاطعتان. يقول: "رائع جداً أن تتزوج. تزوجت ثلاث مرات. لكنهن متن، كالذباب في الخريف. والآن، كما تعلم، لست متزوجاً. قد أتزوج أنا أيضاً بعد أن تتزوج. فتاتك نينو مسيحية. لا تدعها تجلب إيمانها الغريب إلى بيتنا. المرأة وعاء هش. من المهم أن تعرف ذلك. لا تضربها وهي حامل. ولا تنس أبداً: أنت السيد وهي تعيش في ظلك. تعرف أنه مسموح للمسلم بالجمع بين أربع زوجات. ومن الأفضل أن تقنع بواحدة فقط. إلا إذا لم تنجب نينو. كن وفيًا. لزوجتك الحق في كل نقطة من منيك. اللعنة الأبدية في انتظار الزاني. كن صبوراً معها. النساء كالأطفال، إلا أنهم أكثر مكرًا ووحشية. ومن المهم أيضاً أن تعرف: أغرقها بالهدايا إذا شئت، هبها حريراً ومجوهرات. لكن إذا احتجت نصيحة، وقدمتها لك افعل العكس تمامًا. ربما يكون ذلك أفضل ما عليك أن تعرفه".

"لكن يا أبي، أنا أحبها".

هز رأسه وقال: "حب المرأة غير مستحب عمومًا. يجب المرء الوطن أو الحرب. يحب بعض الرجال السجاجيد الجميلة، أو الأسلحة النادرة. لكن قد يحب رجل امرأة. تعرف كل أغاني حب ليلى والمجنون، وغزليات



حافظ. قضى حافظ حياته بطولها يغنى عن الحب. ويقول بعض الحكماء: 'لم ينم حافظ أبداً مع امرأة طوال حياته'. والمجنون مجرد شخص مهووس. صدقني: على الرجل أن يرعى المرأة وعليها هي أن تحبه. تلك مشيئة الله". صمت، ولم يتفوه أبي بكلمة أخرى. ربما كان محقاً! الحب ليس أهم شيء في دنيا الرجل. إلا أنني لم أكن قد بلغت ذروة الحكمة. ضحك أبي فجأة وصرخ بمرح: "حسناً، أذهب غداً إلى الأمير كيباني وأحدثه في الموضوع. أم أن شبان هذه الأيام يفعلون ذلك بأنفسهم؟" قلت بسرعة: "سأكلم آل كيباني بنفسني".

امتطى كل منا صهوته مرة أخرى وسرنا في بيلوف. وبعد وقت قصير رأينا منصات البترول في بيبي إبيات. بدت السقالات السوداء وكأنها غابة مظلمة كريمة. ملأت رائحة البترول الهواء. تتساقط قطرات البترول من أيدي العمال الواقفين قرب فتحات الحفارات حيث يتدفق جدول هائل من البترول على الأرض المشبعة به. ونحن نمر بسجن بيلوف سمعنا صوت طلقات نارية. سألت: "هل هذا تنفيذ لحكم بالإعدام؟" لا، في هذه المرة لم يكن تنفيذ حكم بالإعدام. جاءت الطلقات من ثكنات حامية بيلوف، في تدريب على القتال. سألني أبي: "هل تود رؤية أصدقائك؟" هزرت رأسي. انطلقنا إلى ساحة التدريب حيث يتدرب إلياس بج ومحمد حيدر مع الرفاق، والعرق يتصبب من وجوههم.

"يمين-شمال-يمين-شمال!"

بدا الجد الشديد على وجه محمد حيدر. وبدا إلياس بج وكأنه دمية

رقيقة، تتحرك بعقل شخص آخر. أتيا إلينا ورحبا بنا. سألتها: "كيف تريان الجيش؟" صمت إلياس بج. وبدا محمد حيدر مكفهرًا. ثم قال بصوت يشبه صوت الخنزير: "أفضل من المدرسة على أي حال".

قال إلياس بج: "جاءنا قائد جديد، الكونت مليكوف من شوشا!"

"مليكوف؟ أعرفه. صاحب الحصان الذهبي الأحمر؟"

"إنه هو. حكايات هذا الحصان تملأ كل أرجاء الحامية".

صمتنا. كان الغبار كثيفًا على أرض ساحة التدريب. نظر إلياس بج حائلًا إلى البوابة، والغيرة والحنين في عينيه. ربت أبي على كتفه: "لا تغر من حرية علي خان. إنه على وشك التخلي عنها". ضحك إلياس بج وارتبك: "نعم، لكنه سيقدمها لنيو".

رفع محمد حيدر رأسه مستفهما. وقال: "هو هو، وفي نفس الوقت أيضًا".

تزوج منذ فترة طويلة، وزوجته منقبة. أنا أو إلياس بج لا نعرف عنها أكثر من اسمها. نظر إليّ بتفضل، وقد تغضن حاجبه السفلي، وقال: "الآن تدرك معنى الحياة". وكان ما نطق به يبدو سخيًا جدًا. ماذا يعرف محمد حيدر وزوجته المنقبة عن الحياة؟ صافحت صديقتي وانصرفنا.

حين وصلت إلى البيت استلقيت على الديوان. الغرف الآسيوية باردة دائمًا. أثناء الليل تملؤها البرودة كماءٍ يجري في بئر. وفي النهار أدخلها قادمًا من الحر في الخارج وكأني أدخل حمامًا باردًا. فجأة رن جرس التلفون.

كان صوت نينو شاكياً: "علي خان، أموت من الحر والرياضيات. تعال، ساعدني!"

بعد عشر دقائق مدت نينو يديها النحيفتين لتستقبلني. كانت أصابعها الرقيقة مصبوعة بالحر، قبلت الأصابع بصبغتها. "نينو، كلمت أبي. إنه موافق". ترتجف نينو وتضحك. أخذت تقلب عينيها في الغرفة وقد علتها حمرة الخجل. تقف بجواري تماماً، نظرت في حذقيها الواسعتين. تهمس: "علي خان إنني خائفة، خائفة جداً".

"من الامتحان يا نينو؟"

"لا". تستدير وتنظر إلى البحر. ثم تدس يدها في شعرها وتقول: "علي خان، قطار يسير من البلدة س إلى البلدة ص بسرعة 50 ميلاً في الساعة..".  
يا حلوتي! انحنيت على كتبها المدرسية.



## 13

ملاً البلدة ضباب كثيف تصاعد من البحر. في أركان الشوارع يتصاعد دخان قاتم من المصاييح. أعدو بجوار المنتزه، تظهر الوجوه أمامي وتختفي، لا مبالية أو مفزوعة. تعثرت في لوح خشبي، ملقى عبر الطريق، ووقعت على شخص من عمال الميناء يقرفص على الأرض. يحدق في المدى وتتبعث من عينيه نظرة شريرة. فمه الغليظ يتحرك، يمضغ الحشيش، ويرى رؤى وحشية. ضربته بقبضة يدي على ظهره وواصلت العدو. كانت نوافذ البيوت البسيطة قرب الميناء تومض في عيني. دست على زجاج ملقى في الطريق، سمعت صوت تكسيره ورأيت وجهًا فارسيًا شوهه الهلع. فجأة ظهر كِرْشُ أمامي. كانت رؤية السمنة المفرطة تجعلني أهذي وأجن؛ دفعته برأسي بكل قوتي. كان لينًا وضخمًا. حياني صوت على سجيته: "مساء الخير، علي خان". رفعت رأسي فرأيتُ نشارين ينظر إليّ، وعلى وجهه

ابتسامة. صرخت: عليك اللعنة!" وكنت على وشك مواصلة العدو، لكنه أمسك بي:

"أنت قلق يا صديقي. والأفضل أن تبقى معي". كانت نبرات صوته ودودة. شعرت فجأة بإرهاق شديد. وقفت خائر القوى والعرق يتصبب مني. قال: "نذهب إلى فيلبويانز". هزرت رأسي موافقاً. ولم يكن أمامي غير ذلك. أخذ يدي وقادني قرب شارع برياتينسكي إلى المقهى الكبير. حين غصنا في المقاعد العميقة قال بفهم: "هجوم، هجوم قوقازي. ربما هذه حرارة الظلم، أم هناك سبب خاص يا علي خان يثيرك بهذه الصورة؟" جلست في المقهى في غرفة مقاعدها وثيرة وحوائطها مغطاة بالحرير الأحمر، أرشف الشاي الساخن وأقص على نشارارين القصة كاملة: كيف اتصلت تليفونياً بالعجوزين كيسانى أستأذن في زيارتهما في ذلك اليوم، وكيف تسلفت نينو من البيت، خلصة وفي رعب، كيف قبلت يد الأميرة وصافحت الأمير، كيف تحدثت عن شجرة عائلتي العريقة، وعن ثروات أسرتي، وكيف طلبت يد الأميرة نينو للزواج، كل ذلك في روسية سليمة ربما يحسدني عليها القيصر نفسه.

سألني نشارارين وقد بدا عليه اهتمام حقيقي: "وماذا بعد يا صديقي؟"

"وماذا بعد؟ استمع فقط إلى هذا!" قلدت حركات الأمير وصوته بنبرة جورجية بسيطة: "ابني العزيز، خان المبجل. صدقني من فضلك، لا أتخيل زوجاً لا بتي أفضل منك. يا لها من سعادة تشعر بها امرأة يختارها رجل مثلك. لكن نينو مازالت صغيرة. مازالت تلميذة. ماذا تعرف هذه الطفلة عن

الحب؟ بالتأكيد ليس لدينا هنا نظام زواج الأطفال المتبع في الهند. بالإضافة إلى اختلاف الدين والتنشئة والأصل. أقول ذلك من أجلك ومن أجلها. أظن أن والدك يفكر بنفس الطريقة. إضافة إلى الحرب المرعبة في هذه الأيام. يعلم الرب ما قد يحدث لنا جميعًا. لا أريد أن أقف في طريقها. لكن لنترك الأمر الآن، نتركه حتى تنتهي الحرب. ستكونان قد كبرتما أنتما الاثنان. وإذا بقي شعورك تجاهها بهذه القوة سيكون لنا كلام آخر."

سأل نشارارين: "وماذا ستفعل الآن يا خان؟"

"سأخطف نينو إلى بلاد فارس. لا يمكن أن أستسلم! يرفض شرفنشير! من هو؟ أشعر بالإهانة يا نشارارين. آل شرفنشير أعرق من آل كيباني. تحت حكم أغا محمد شاه دمرنا جورجيا كلها. وكان أي كيباني يسعد بتقديم ابنته لواحد من آل شرفنشير. ماذا يعني اختلاف الدين؟ هل المسيحية أفضل من الإسلام؟ وشرفي؟ سيسخر أبي مني. رفض مسيحي أن يزوجني ابنته. نحن، المسلمون، ذئاب سقطت أسنانها. منذ مئة سنة..". خنقتني روح الانتقام وأوقفت انفجاري. ونطقت بالكثير الذي كان السكوت عليه أفضل. كان نشارارين مسيحيًا أيضًا. وكان محققًا تمامًا إذا شعر بالإهانة. لكن ذلك لم يحدث:

"أنفهم غضبك. لكنه لم يرفضك. بالطبع، سخيّف أن تتنظر حتى تنتهي الحرب. إنه فقط لا يدرك أن ابنته شبت عن الطوق. لست ضد اختطافها. إنها طريقة قديمة ومستقرة في تقاليد بلادنا. لكنها الملاذ الأخير. على شخص ما أن يشرح للأمر أهمية هذا الزواج ثقافيًا وسياسيًا، وأنا على يقين من أنه سيغير رأيه."

"ومن يفعل ذلك؟"

وضع نشارارين كفه الضخم على صدره وصرخ: "أنا. اعتمد علي يا خان!"

تطلعت إليه في ذهول. فيم يفكر هذا الأرمني؟ ثاني مرة يتدخل في حياتي. ربما يحاول اكتساب أصدقاء مسلمين، مدرّكًا تفوق الأتراك. أو ربما يخطط لتكوين تحالف بين أهل القوقاز. لم أهتم. من الواضح أنه كان حليفًا. قدمت له يدي. احتفظ بها في يده: "فقط اترك الأمر لي. سأخبرك. وليس هناك اختطاف. فقط الملاذ الأخير".

نهضت. انتابني شعور قوي بضرورة الثقة بهذا الرجل البدين. عانقته وغادرت المقهى. حين دخلت الشارع تتبعني شخص. التفت فرأيت سليمان أغا وهو صديق قديم لوالدي. كان يجلس في الداخل. يده ثقيلة على كتفي: "يا للعار، واحد من آل شرفشير يعانق أرمنيًا". هممت بالنطق. لكنه اختفى في الضباب. واصلت السير. رأيت من الحكمة ألا أخبر أبي عن سبب ذهابي إلى آل كيباني في ذاك اليوم. سأزعم إنني لما أحادثهم في الأمر بعد. حين وضعت المفتاح في باب بيتنا هزرت رأسي مفكرًا: "أليست كراهية الأرمن أمرًا غبيًا".

قضيت الأسابيع القليلة التالية ألف حول صندوق التليفون الأسود. فجأة صار هذا الصندوق، سيئ الصنع بسماعته الكبيرة المعقوفة، آلة عظيمة الأهمية. جلست في البيت يومًا بعد يوم وغمغمت بشيء مبهم حين سألني والدي عن سبب ترددي في اتخاذ القرار. من وقت لآخر كان الغول الأسود



يرن، فأرفع السماعه، وأسمع صوت نينو يأتيني ببرقيات من ساحة المعركة: "هل أنت علي؟ اسمع: نشارارين يجلس مع ماما، يتحدثان عن قصائد جدّها، الشاعر إليكو تشافشفادز". وبعد قليل: "علي، هل تسمعني؟ يقول نشارارين إن عصر رُسْتُفلي وتامار تأثر بالثقافة الفارسية". ومرة أخرى:

"علي خان! نشارارين يتناول الشاي مع بابا. قال منذ برهة: 'يكن سحر هذه البلدة في الرابطة الباطنية بين أجناس شعوبها'". وبعد نصف ساعة: "يصب الحكمة كما يصب التمساح الدموع. يقول: 'إن جنس القوقاز المسالم تشكل على سندان باكو'". ضحكت ووضعت السماعه مكانها. سارت الأمور على هذا النحو يوماً بعد يوم. نشارارين يأكل ويشرب ويجلس مع آل كيباني. سرح معهم وقدم لهم النصائح، بعضها عملي وبعضها خيالي. تتبعت هذه البراعة الأرمينية في حيرة: "يقول نشارارين كان القمر أول عملة. العملات الذهبية وتأثيرها على البشر ناتج عن عبادة القمر في العصور القديمة عند القوقازيين والإيرانيين. علي خان، لم أعد أحتمل هذا الهراء أكثر من ذلك. تعال إلى الحديقة".

تقابلنا عند جدار الحصن القديم. بسرعة وعجلة أخبرني كيف أن والدتها توسلت لها ألا تربط حياتها بمسلم همجي. وكيف حذرها أبوها، فيما يشبه المزاح، من إنني سأضعها بالتأكد في الحريم، وكيف أنها، نينو الصغيرة، ضحكت لكنها في الوقت ذاته حذرت أبيها: "انتظرا - قد يخطفني. ماذا تفعلان حينها؟" ربت على شعرها. أعرف أن حبسني نينو تحصل على ما تريد، حتى لو لم تعرفه معرفة حقيقية. قالت شاكية: "قد تستمر هذه

الحرب عشرين عامًا أخرى، أليس من المفزع أن يطلبنا منا الانتظار كل هذا الزمن؟"

"هل تخيّليني كل هذا الحب يا نينو؟"

ارتجفت شفتها. "ننتمي لبعض ببساطة. يصعب والداي الأمر عليّ إلى حد بعيد. لن أراجع حتى لو كبرت وعصفت بي الأيام كهذه الصخرة. إضافة إلى أنني أحبك. لكن الويل لك إن خطفتني". ثم صمتت، لأن المرء لا يستطيع أن يقبل ويتحدث في وقت واحد. ثم تسللت إلى البيت خلسة، وبدأت لعبة التليفون من جديد: "علي خان، يقول نشارارين إن ابن عمه في تفليس كتب يقول إن الحاكم يعترض تمامًا على الزواج المختلط. ويقول إنه اختراق جسدي للشرق بواسطة الثقافة الغربية. هل تفهم ذلك؟" لا، لا أستطيع. فقط تعلقت بالبيت ولم أنطق إلا بأقل ما يمكن. جاءت ابنة عمي عائشة، كانت في فصل نينو، وأخبرتني أن نينو نالت أقل الدرجات خمس مرات في ثلاثة أيام، والجميع يحملونني مسؤولية هذا الفشل. يجب أن أفكر في واجبات نينو أكثر من التفكير في مستقبلها. خجلت من نفسي ولعبت الطاولة مع ابنة عمي. كسبت ووعدتني بمساعدة نينو في المدرسة. مرة أخرى رن جرس التليفون: "أنت؟ يتحدثون لساعات في السياسة والشغل. يقول نشارارين إنه يحسد المسلمين لأنهم أحرار في الاستثمار في الضياع الفارسية. من يعرف ما سيحل بروسيا؟ ربما تحطم كل شيء. يمكن للمسلمين وحدهم شراء أراضٍ في بلاد فارس. يعرف بشكل مؤكد أن نصف جليان ملك آل شرفشير. ومن المؤكد أن الضمان

الأفضل ضد الانفجار في روسيا هو شراء ضياع في بلاد أخرى. والداي منزعجان تمامًا. تقول أمي إن بعض المسلمين متحضرون".

وبعد يومين، كسبت الحكمة الأرمنية المعركة. كانت نينو تضحك وتصرخ في التليفون. "بارك لنا في الوالدين، آمين".

"لكن علي والدك الآن أن يكلمني. لقد أهانني".

"لا عليك، اتركه لي".

وقد كان، جاء صوت الأمير رقيقًا ولطيفًا: "فحصت قلب طفلي. مشاعرها تجاهك أصيلة ومقدسة. سأكون آثمًا لو وقفت في طريقها. تعال يا علي خان".

ذهبت. صرخت الأميرة وقبلتني. تحدث الأمير بوقار عن الزواج، بطريقة تختلف تمامًا عن الطريقة التي تحدث بها والدي، الذي لم يفكر أبدًا في أن الزواج يبني على الثقة والاحترام بين الطرفين. على الرجل والزوجة أن يساعد كل منهما الآخر قولًا وفعلاً. ولا ينسيا أبدًا أنهما متساويان في الحقوق وأن روحيهما يخصانهما. أعطيت وعدي الصادق بـ ألا ترتدي نينو الحجاب أو تجلس في الحريم. دخلت نينو فقبلت جبينها. مالت برأسها بين كتفيها، كطائر صغير يطلب حماية. قال الأمير: "لكن لا يجب إشاعة ذلك. يجب أن تنتهي نينو من دراستها أولاً. اعملي بجدي يا طفلي. سيكون عليك الانتظار عامًا آخر إذا لم تنجح". رفعت نينو حاجبيها، فظهرت كأنهما مرسومان بقلم:

"لا تنزعج يا أبي. سأنجح في المدرسة وفي الزواج. سيساعدني علي خان في الأمرين".

حين خرجت من البيت كان نشارارين ينتظرني في عربته. غمز لي بعينه الجاحظتين. صرخت: "نشارارين، أعطيك مزرعة خيول أم قرية في داغستان، تريد وسامًا فارسيًا أم حديقة برتقال في إنسلي؟" ضربني على ظهري. قال: "لا أريد شيئًا، أنا سعيد لأنني غيرت مصيرًا. وهذا يكفيني".

نظرت إليه بامتنان. انطلقنا بالسيارة إلى خارج البلدة، إلى باي بيبي إيبات، حيث الآلات السوداء تحفر الأرض المشبعة بالبترو. تدخل آل نوبل في المشاهد الخالدة بالضبط كما تدخل نشارارين في مصري. يزاح جزء هائل من البحر بعيدًا عن الشاطئ. لم تعد الأرض الجديدة جزءًا من البحر أو جزءًا من الشاطئ. لكن شخص عملي أنشأ مقهى صغيرًا على الأرض الجديدة، أبعد ما يكون، حيث جلسنا واحتسينا شاي كياشتا، أفضل شاي في العالم، وكان ثقيلًا كالكحول. احتسيناه مع جرعة عطرة من حديث نشارارين لوقت طويل عن الأتراك، الذين سيغزون كاراباخ، وعن مذابح الأرمن في آسيا الصغرى. كنت أسمع بصعوبة.

قلت: "لا تخف، إذا جاء الأتراك إلى باكو ستختبئ في بيتي".

قال نشارارين: "لست خائفًا".

كانت النجوم ساطعة فوق البحر، خلف جزيرة نرجين، وصمت مفعم بالسلام يعم الشاطئ. "البحر والشاطئ كالرجال والنساء، متحدان

في معركة أبدية". هل قلت أنا ذلك أم هو. لم أعد أعرف. أخذني إلى البيت. أخبرت والدي: "يبحث كيباني بالشكر للشرف الذي منحه إياه آل شرفنشير. نينو خطيبي. اذهب غداً ورتب بقية الأمور". عانيت من إجهاد شديد وشعرت بسعادة غامرة.



## 14

مرت أيام وأسابيع وشهور. دارت أحداث كثيرة في العالم وفي بلادي وفي بيتي. طالت الليالي، سقطت أوراق الشجر صفراء ميتة وحزينة في حديقة الحاكم. كان الأفق حالگًا مع أمطار الخريف. وطبقة رقيقة من الثلج تطفو على مياه البحر، وتفتت على الشواطئ الصخرية. ذات صباح غطى الشوارع جليد أبيض، رقيق كالحجاب، وسقط المطر لحظة. وقصرت الليالي مرة أخرى.

جاءت الجمال من الصحراء إلى البلدة، بخطوات واسعة وحزينة، محملة بالرمال في وبرها الأصفر، ناظرة في المدى، بعيون ترى الأبدية. كانت محملة بالبنادق على ظهورها، والبراميل معلقة على جوانبها، وصناديق الذخيرة والبنادق: غنائم المعركة الكبيرة. اقتيد أسرى الحرب الأتراك بلباسهم الرمادي عبر البلدة في ذل وانكسار. حين وصلوا إلى البحر،

حملتهم قوارب بخارية صغيرة إلى جزيرة نرجين، حيث ماتوا من الإسهال أو الجوع أو الحنين إلى الوطن. ومن هرب مات في الصحارى الفارسية المالحة، أو في المياه الرصاصية في بحر قزوين. الحرب، وقد بدأت بعيداً عنا، اقتربت منا فجأة. وصلت القطارات قادمة من الشمال، مشحونة بالجنود. عزل القيصر عمه وقاد بنفسه جيشه القوي المكون من عشرة ملايين جندي. وكان العم يحكم القوقاز، وظله الهائل المظلم يجم على بلادنا. الدوق الكبير نيقولا ينيقولايفتش! وصلت يده الطويلة النحيلة حتى إلى قلب الأناضول. هاجمت جيوشه بوحشية، بدافع الانتقام من القيصر، الذي دمر قلبه. على الجبال الجليدية وعبر الصحارى الرملية عصفت حنق الدوق الكبير باتجاه ترَبُزُنت وباتجاه اسطنبول. أطلق الناس عليه لقب "نيقولا ي الطويل"، وتحدثوا برعب عن الجنون الوحشي المتأصل في روحه، وعن روح الانتقام التي يتمتع بها جنوده الغاضبون. شاركت في الحرب بلاد لا تحصى. كانت الجبهة الأمامية طويلة، من أفغانستان إلى بحر الشمال، وأسماء الملوك والدول والجنرالات المشاركين تغطي صفحات الجرائد كذباب سام يقبع على جثث الأبطال الموتى.

مرة أخرى جاء الصيف. الحرارة محرقة قاسية، وأسفلت الشوارع يذوب تحت أقدامنا. في الشرق والغرب أعلنت الانتصارات. كنت أثناء ذلك أجلس في المقاهي وفي بيوت الأصدقاء وفي بيتي. وبخت كثيراً بسبب صداقتي لنشارارين الأرميني. كان فوج إلياس بج مازال قابلاً في البلدة يتدرب على قواعد القتال في ساحة العرض المغبرة. بقيت الأوبرا والمسرح



ودور السينما تعمل كما كانت تعمل قبل الحرب. جرت أحداث كثيرة، ولم يتغير شيء في العالم أو في البلدة أو في بيتي.

جاءت نينو إليّ، في لهفة تتلفع بالحكمة، لمست يدي جلدتها الناعم. كانت عيناها عميقتين مليئتين بخوف لافت. أخبرتني عائشة ابنة عمي أن المدرسين وضعوا، في صمت تام، علامة "نجاح" بعد الأخرى في دفتر من ستكون مدام شرفنشير. حين سرت مع نينو في الشارع تتبعتنا عيون زميلاتنا في المدرسة حتى غبنا عن عيونهن. ذهبنا إلى نادي المدينة والمسرح وإلى الحفلات، لكننا لم نكن وحدنا أبدًا. أحاط بنا الأصدقاء كجدار عال من الحنان القلق. صحبنا إلياس بج ومحمد حيدر وحتى سيد مصطفى التقي. لم يكن الاتفاق يسود بينهما دائمًا. حين جلس نشارارين، البدين الغني، يحتمي الشمبانيا ويتحدث عن الحب المتبادل بين شعوب القوقاز، تجهم وجه محمد حيدر، وقال: "أعتقد يا مستر نشارارين، عليك ألا تقلق بهذا الشأن، فبعد الحرب لن يبقى إلا قليل من الأرمن على أية حال".

صرخت نينو: "لكن نشارارين سيقى!" صمت نشارارين مكتفياً باحتساء الشمبانيا. أشيع أنه حول كل أمواله إلى السويد. لم أهتم بالموضوع. حين طلبت من محمد حيدر أن يكون أكثر ودًا مع نشارارين قطب حاجبيه: "لا أطيق الأرمن، الله يعلم السبب".

ذات يوم وقفت نينو في قاعات امتحانات ليسيوم الملكة تامار المقدسة، تبرهن على نضجها في معادلات الرياضيات والمراجع الكلاسيكية والمعلومات

التاريخية، تشع من عينيها الجورجيتين الواسعتين نظرات يأس وتوسل.  
اجتازت الامتحان بنجاح.

وحين أخذت نينو المتألفة إلى البيت بعد الحفلة التي أقامتها بنات اليسيوم احتفالاً بنجاحهن، قال كيبياني الأب: "الآن أنت خطيب ابنتي. جهز حقيبتك يا علي خان. سنذهب إلى تفليس. يجب أن أقدمك إلى عائلتي".  
وذهبنا إلى تفليس، عاصمة جورجيا.

\* \* \*

تفليس تشبه الغابة، لكل شجرة اسمها. كانت عمّا أو ابن عمّ أو عمّة.  
لم يكن من السهل أن يعرف المرء طريقه فيها. تبدو الأسماء كرنين صلب  
قديم يدوم في الهواء: أوربلياني، تشافتشافدز، زرتيلي، أميلاتشفاري،  
أبادشيدز. أقام آل أوربلياني حفلة في حدائق ديدوب، ضواحي البلدة،  
على شرف ابن العم الجديد. عزف الموسيقيون الجورجيون "المرفّليافر"،  
أغنية كَشْتِيّة عن الحرب، و"ليلو" الشفسورية البرية. غنى أباشيدز، ابن  
عم من كوتاي، "المجلى دليا"، أغنية العاصفة من جبال إمرتي. ورقص أحد  
الأعمام "الدُولور"، وقفز عجوز بلحية بيضاء على سجادة تغطي العشب  
الأخضر وتجمد في وضع "بوكناه". استمرت الحفلة طوال الليل. وحين ألقت  
الشمس بأشعتها الأولى وراء الهضاب بدأ الموسيقيون ترنيمة "الملكة تamar،  
انهضي، جورجيا تبكيك". جلست هادئاً على الطاولة، ونيو بجانبني. فجأة  
تلاّأت الخناجر والسيوف. كانت رقصة السكاكين الجورجية، يمارسها

في الفجر حشد من أبناء العمومة، وكأنها تمثيلية على خشبة المسرح، غير حقيقية وبعيدة.

سمعت أحاديث من جلسوا بجانبني: بدت أصداء تأتي من قرون طويلة انتهت: "تحت قيادة ساكّذز حمى زرتلي تفليس من جنكيز خان". "تعلم بالطبع أننا، آل تشافتشافدز، أقدم من آل بجراشن، عائلة الملوك". "الأوربلياني الأول؟ جاء من الصين منذ ثلاثة آلاف سنة. كان أحد أبناء الإمبراطور. لبعض آل أوربلياني عيون ضيقة حتى اليوم". تطلعت حولي في خجل. أي ثمن دفعه بعض آل شرفنشير، الذين مضوا إلى الخلود قبل أن أولد، ضد كل هذا؟ لكن نينو كانت بجانبني: "لا تهتم يا علي خان. بالطبع شجرة عائلة أبناء عمومتي قديمة ونبيلة، لكن أين كان أسلافهم حين احتل أسلافك تفليس؟" لم أتفوه بكلمة لكنني نظرت إليها بامتنان. كانت نينو، وسط أقاربها، تشعر بأنها زوجة لواحد من آل شرفنشير. كنت مزهواً.

مالت عجزاً عليّ وقالت: "هذا النبيذ نقي، لأن الرب فيه. أي شراب آخر يأتي من الشيطان. لا يعرف ذلك إلا القليل. اشرب يا علي خان!" النبيذ الكاتشي الأحمر يشبه سائلاً نارياً. ترددت، وفي النهاية رفعت كأسني على شرف آل أوربلياني.

كانت الشمس ساطعة حين انطلقنا بالسيارة عائدين إلى البلدة. أردت الذهاب مباشرة إلى الفندق الذي أنزل فيه، لكن أحد أبناء العمومة -أم أنه أحد الأعمام؟- ردني عن طريقي: "الليلة الماضية كنت ضيفاً على آل أوربلياني، واليوم أنت ضيفي. نتناول الفطور في بُرجفينو، ويأتي أصدقاؤنا

للغداء". كنت أسير النبل الجورجي. استمر الحال أسبوعاً كاملاً. النييد  
الأسلاني والكاتشي، لحم الضأن المشوي والجبن الموتالي - مرة بعد أخرى.  
تناوب أبناء العمومة عليّ كجنود أمام الكرم الجورجي. بقي اثنان فقط:  
نينو وأنا. كنت معجباً للغاية بثبات قوة نينو. مازالت في نهاية الأسبوع  
نضرة كندى الربيع، عيناها مبتسمتان، ولم تكل شفتها من الحديث إلى  
أبناء العمومة والعمات. فقط بحة في صوتها لا تكاد تدرك كشفت عن  
أنها رقصت أياماً حتى النهاية، وشربت نبيذاً، ولم تكد تنام.

في صباح اليوم الثامن جاء إلى غرفتي أبناء العمومة ساندر وودوديكو  
وفاميتش وسوسو. كنت غاطساً تحت الغطاء كأرنب خائف. قالوا بصرامة:  
"علي خان، أنت اليوم ضيف على آل جاكليس. سنذهب إلى ضياعهم في  
كاجوري".

قلت بحزن: "لست اليوم ضيفاً على أحد، اليوم تفتح لي أبواب الجنة،  
الشهيد البائس. اليوم يسمح لي الملاك ميخائيل، بسيفه اللهب، بالمرور،  
لأنني مت على طريق الحق".

تبادل أبناء العمومة النظرات وضحكوا بصوت عال وبلا شعور. ثم  
قالوا كلمة واحدة: "كبريت".

رددت: "كبريت؟ كبريت؟ الكبريت في الجحيم، لكنني - ذاهب إلى  
الجنة".

قال أبناء العمومة: "لا، إنه الكبريت".

حاولت النهوض من السرير. كان رأسي ثقيلاً جداً، وقد تدلت أطرافني وشعرت بأنها لم تعد جزءاً مني. نظرت في المرأة، رأيت وجهاً أصفر باهتاً وعينين ذابلتين. قلت: "أوه نعم، إنه السائل الناري"، أقصد النبيذ الكاثشي. "اهدني إلى الحق. الخمر حرام على المسلم". زحفت من السرير وأنا أئن كرجل عجوز. أبناء العمومة هناك، مع عيون نينو وصورتها النحيفة المرنة، نضرة وشاحنة. يبدو الجورجيون بالنسبة لي كأيل نبيل بين أخلاط معقدة من الآسيويين. لا يوجد جنس شرقي آخر يتمتع بهذه الفتنة، وهذه الحركات الرشيقة، وهذه الرغبة الجاححة في الحياة والاستمتاع الصحي بالملذات. قال فاميتش: "سنخبر نينو، سنكون في كاجورى بعد حوالي أربع ساعات، ستكون على ما يرام مرة أخرى". خرج، وسمعت صوته في التلفون: "توعكت صحة علي خان فجأة. سنأخذه الآن إلى العيون الكبرى. اطلب من الأميرة نينو أن تذهب إلى كاجورى مع أسرتها، وسنأتي بعد قليل. لا، الحالة ليست خطيرة. إنه متوعك بعض الشيء".

ارتديت ملابسني في كسل. شعرت بدوخة. يختلف هذا الكرم الجورجي اختلافاً تاماً عن الاستقبالات الهادئة الرزينة في بيت عمي في طهران. هناك احتسينا شايًا ثقيلاً وتحديثنا عن الحكمة والشعر. هنا شربوا النبيذ ورقصوا وضحكوا وغنوا، وكانوا مرنين وصارمين كينبوع من الصُّلب. هل هذه بوابة أوروبا؟ بالطبع، لا. هذا جزء منا، إلا أنه يختلف كثيراً عن بقية أجزائنا. بوابة، لكن إلى أين تؤدي؟ ربما إلى آخر مراحل الحكمة، التي تصبح تدريجياً هزلاً تلقائياً. لم أعرف. كنت مرهقاً بشكل مرعب. نزلت السلالم بصعوبة. ركبنا العربة. صرخ ساندرو: "إلى الحمام". فرقع

الحوذدي السوط. انطلقنا إلى بناية كبيرة، فوقها قبة، في حي الميدان. كان يقف على البوابة رجل نحيل، شبه عار، يبدو هيكلاً عظيماً أكثر مما يبدو شخصاً حياً. حدقت عيناه خلالنا مباشرة، في النيرفانا. صرخ ساندرو: "هَمَرَجوبا، مِكيس!" انتبه الرجل فجأة. انحنى وقال: "هَمَرَجوبا، تَوَدي. يوم سعيد أيها الأمراء." وفتح الباب على ردهة كبيرة دافئة مليئة بالأرائك، وكان هناك شخص أو اثنان عاريان على كل أريكة. خلعنا ملابسنا، وسرنا عبر الممر إلى الغرفة الثانية. كانت هناك فتحات مربعة في الأرضية مليئة بماء كبريتي ساخن يتصاعد منه البخار. سمعت صوت ساندرو وكأني في حلم: "ذات مرة خرج ملك للصيد، وتتبع صقره ديكاً جبلياً، انتظر الملك وقتاً طويلاً، لم يعد الديك الجبلي ولا الصقر. وحين مضى للبحث عنهما صادف جدول مياه كبريتية ملونة. غرق فيه الصقر والديك الجبلي. هكذا اكتشف الملك عيناً كبريتية، فوضع حجر أساس مدينة تفليس. نحن هنا في حمام ديك الجبل، والميدان الخارجي هو البستان الذي كان الجدول ينساب خلاله. من الكبريت بدأت تفليس، وفي الكبريت تنتهي." ملأ البخار ورائحة الكبريت غرفة على شكل قبة.

كان الدخول إلى حمام ساخن كالسير على شراب مخمر مصنوع من بيض فاسد. كانت أجساد أبناء العمومة مبللة ولا معة. حككت صدري بيدي، تخلل الكبريت جلدي. فكرت في كل المحاربين والمتصرين الذين احتلوا هذه البلدة وغمروا أجسادهم في هذا النبع: تشور سمير جلال الدين، تيمور الأعرج، جغتاي، ابن جنكيز خان. سكروا حتى الشمال

من الدماء التي أراقوها. ثم ساروا إلى النبع الكبريتي ليفيقوا ويستعيدوا نشاطهم من جديد.

"كفى يا علي خان، اخرج". قطع صوت ابن العم أحلامي عن المقاتلين الذين أتوا إلى هذا الحمام. زحفت من فتحتي، دخلت إلى الغرفة الملحقة، شعرت بفتور على الأريكة الحجرية. صاح ساندرو: "مكيس!"

دخل الرجل الذي قابلنا، وقد تبين أنه المدلّك، ولم يكن يرتدي سوى العمامة. استلقيت على بطني. قفز بقدميه الحافيتين على ظهري، وداس عليّ، كان خفيفاً كراقص فوق سجادة. انغمست أصابعه في لحمي وكأنها مخالب حادة. فك ذراعى، سمعت صوت عظامي. وكان أبناء العم حولنا يقدمون النصيحة: "افرد ذراعيه مرة أخرى، يا مكيس، إنه معتل للغاية".

"اقفز على ظهره مرة أخرى، هكذا، والآن ذلك جانبه الأيسر".

أظن أن ذلك قد يكون مؤذياً للغاية، لكنني لم أشعر بألم. كنت مستلقياً فقط، ورغوة الصابون البيضاء تغطي جسدي، مسترخياً تحت قبضتي مكيس القويتين المرتتين، وكل ما شعرت به أن عضلاتي كلها صارت مرنة واسترخت بصورة مذهشة.

قال مكيس: "كفاية"، ومرة أخرى استغرق في وقفة نبي بعيداً عن هذا العالم. نهضت. ألمني جسدي كله. أسرعت إلى الغرفة التالية وغطست في طوفان ثلجي من الماء الكبريتي في الحمام الثاني. توقفت تنفسي لحظة. لكن أطرافي صارت مرنة مرة أخرى ودبت فيها حياة جديدة.

عدت ملتفتاً بملاءة بيضاء. نظر أبناء العمومة ومكيس إليّ في ترقب. قلت بوقار جمّ: "جائع"، وجلست على أريكة واضعاً رجلاً فوق الأخرى.

صاح أبناء العمومة: "إنه محق تماماً، هاتِ بطيخاً وجبناً وخضروات ونيبداً بسرعة!"

استلقينا في حجرة الانتظار وأقمنا وليمة. نسيت تماماً ما عانيت من ضعف وإرهاق. غطى طعام البطيخ الأحمر البارد كالثلج على طعام الكبريت. رشف أبناء العمومة نيبيذهم النبرولى الأبيض. قال دوكيدو: "حسناً، أنت هنا"، ولم يكمل الجملة لأن ما قاله كان يعني كل شيء: زهوه بالحمام الكبريتي في وطنه، العطف على غريب اعتل في رحاب الكرم الجورجي، والتأكيد الأخوي المليء بالود في أنه، أي دوكيدو، تفهم ضعف ابن العم المسلم وتقبله. اتسعت دائرتنا. أتى الجيران عراة، يحملون زجاجات النيبيذ. أمراء ودائئوهم، متطفلون وخدم وحكماء وشعراء وأصحاب ضياع من الجبال جلسوا معاً في سلام، صورة ممتعة للمساواة الجورجية. لم يعد حماماً، كان نادياً، مقهى أو مجرد لقاء لعراة سعداء، عيونهم مبتهجة وضاحكة. لكنني سمعت كلمات خطيرة من هنا وهناك، كلمات مفعمة بهواجس كئيبة. "عثمان قادم"، قالها رجل بعيون ضيقة. "الدوق الكبير سيأخذ اسطنبول. سمعت أن جنرال ألمانياً نصب مدفعاً هناك، مصوباً بدقة إلى قبة زيون في تفليس".

"أنت مخطيء أيها الأمير"، قالها رجل وجهه يشبه نبات اليقطين: "هذا



المدفع لم ينصب بعد، هناك فقط خطط لنصبه، وحتى بعد نصبه لا يمكن أن يصيب تفليس. كل خرائط الألمان غير صحيحة. رسمها الروس، حتى قبل الحرب. هل تفهم؟ خرائط روسية - كيف يمكن أن تكون صحيحة؟" تحسر شخص كان يجلس في الركن. التفت فرأيت لحية بيضاء وأنفًا طويلًا معقوفًا.

قال ذو اللحية متحسرًا: "جورجيا المسكينة. نحن بين فكي كماشة حادة. إذا انتصر الألمان فستحل نهاية أرض تamar، وإذا كسب الروس - ماذا بعد؟ نال القيصر كل ما يريد، لكن أصابع الدوق الكبير تخنقنا. حتى الآن يموت أفضل أبنائنا في المعارك. من يتبقى سيشنق، سواء على يد عثمان أو الدوق الكبير أو أي عدو آخر، ربما آلة، أو شخص أمريكي. يبدو أن فهم الموقف مستحيل - كيف تحول لهينا في الحرب فجأة إلى رماد. هذه نهاية أرض تamar. انظر: مقاتلون صغار ونحاف، الثمار سيئة والنبذ لاذع". صمت ذو اللحية، وتنفس بصعوبة. لم يتفوه أحد بكلمة. فجأة صدر صوت ذليل قلق:

"قتلوا النبيل بجراشن. تزوج إحدى بنات أخي القيصر، ولم يغفر الروس له ذلك أبدًا. أمره القيصر نفسه أن ينضم لفوج إريفان، في الخطوط الأمامية. قاتل بجراشن قتال الأسود، وسقط وقد احترقت جسمه ثمان عشرة طلقة".

جلس أبناء العمومة يحتسون النبيذ بهدوء. حدثت في الأرضية. فكرت، عائلة بجراشن أقدم عائلات النبلاء المسيحيين. الملتحي محق. جورجيا تُعصر حتى الموت بين فكي كماشة حادة. انطلق صوت آخر: "ترك ابنًا،

تيموراس بجراشن، ملكًا حقيقيًا. أنقذه شخص ما".

عم الصمت من جديد. مكيس النحيف مازال واقفًا قرب الباب، في وضع نبي يقف لغرض معين. ثم قطع دو كيدو الحالة. تمطى وتثاءب في سعادة، وقال: "جميل وطننا. الكبريت والبلدة، الحرب والنبذ الكاتشي. انظر إلى ألسان يتدفق عبر الوادي! رائع أن تكون جورجيًا، حتى لو كانت جورجيا تهلك. تبدو يائسًا. لكن هل تغير الوضع في أي وقت على أرض تامار؟ ومع ذلك تجري أنهار بلادنا، ويكبر كرمنا، ويرقص شعبنا. بلاد عادلة، جورجيا بلادنا. وستبقى رغم يأسها". وقف شاب نحيف، عيناه ترقصان، جلده مخملي، سليل مطربين وأبطال. ابتسم الملتحي الجالس في الزاوية مبتهجًا: "ما شاء الله، طالما عندنا شباب كهذا..".

مال على فاميتش: "علي خان، لا تنس - أنت اليوم ضيف على آل جاكليس في كاجوري". نهضنا، وارتدينا ملابسنا وخرجنا. فرقع سوط الخوذي، وقال فاميتش: "ينحدر آل جاكليس من أسرة نبيلة عريقة من..". بالطبع! ضحك، مستعيدًا بهجتي وسعادتي من جديد.

## 15

جلست أنا ونيو في كافيه ميفستو في شارع جلوفينسكى، نتطلع إلى جبل داود وديره الكبير. سمح لنا أبناء العمومة بيوم راحة. كنت أعرف فيما تفكر نينو. هناك، على جبل داود، قبر زرناء. هناك يرقد ألكسندر جريبودوف، شاعر ووزير من وزراء القيصر. مكتوب على شاهد قبره:

أعمالك لن تنسى أبدًا، لكن لماذا أنقذك حبك لنيو؟

كان اسمها نينو تشافتشافدز، تزوجها الوزير الشاعر وعمرها ستة عشر عامًا - نينو تشافتشافدز - أخت جدة نينو التي تجلس بجانبى. كان عمرها سبعة عشر عامًا حين أحاط غوغاء طهران ببيت الوزير الروسي. "يا علي سلافات، السلام على علي!" علا الصراخ. لم يكن مع الوزير سوى سيفه القصير ومسدسه. رفع حداد من شارع سولي سلطان مطرقة وحطم

صدر الوزير. وبعد أيام كان لحم ممزق من جسد بشري مازال في الشوارع، ومزقت الكلاب الرأس وكان كل ما تبقى من ألكسندر جريودوف، الشاعر ووزير القيصر. كان فتح علي شاه، القاجار، راضياً، وكان عباس ميزرا، ولي العهد، في أوج السعادة. نال ميشي أغا، وهو عجوز وحكيم متعصب، عرض مع آخرين على الانفجار، جائزة كبيرة، ونال شرفنشير، عمي الكبير، ضيعة في جيليان.

حدث ذلك منذ مئة عام. وهناك كنا نجلس في تراس كافيه مفيستو: أنا شرفنشير، وهي نينو حفيدة أخي جريودوف. "أظن أن بيننا عداوة دم يا نينو"، وأشرت باتجاه الجبل. "هل تضعين على قبري شاهداً جميلاً كالشاهد الموضوع هناك على الجبل؟"

قالت: "ربما، هذا يعتمد على سلوكك في الحياة". انتهت من شرب القهوة. قالت: "هيا، نتمشى".

نهضت. كانت نينو تحب هذه البلدة كما يحب طفل أمه. سرنا عبر شارع جلوفنسكي إلى أزقة البلدة القديمة. توقفت نينو أمام قبة زيون القديمة. دخلنا غرفة رطبة معتمة. على المذبح صليب مصنوع من الكرم جلبته معها القديسة نينو حين أتت من الغرب لتذكر الجورجين أن مخلص العالم وصل. ركعت نينو، رسمت إشارة الصليب ونظرت إلى صورة قديستها الحارسة. همست: "نيو المقدسة، ساحيني". على ضوء النور الساطع عبر نوافذ الكنيسة رأيت الدموع في عينيها.

قلت: "نخرج". نهضت بأدب وتبعني. سرنا في الشارع صامتين. وأخيراً

قلتُ: "ما الذي طلبت من نينو المقدسة أن تسامحك عليه؟"

"أنت، يا علي خان".

بدت حزينة ومرهقة. كان السير عبر شوارع تفليس مع نينو أمراً سيئاً.

"لماذا أنا؟" وصلنا إلى الميدان. يجلس الجورجيون في المقاهي أو وسط الشارع. شخص ما في مكان ما يلعب الزورنا، وبعيداً في النهر يندفع كورا إلى قاعه الضيق. عينا نينو تنظران بعيداً، وكأنها تبحث عن هويتها.

كررت: "أنت، وكل ما كان".

بدأت أفهم، لكنني سألت: "ماذا؟" توقفت نينو. على الجانب الآخر من الميدان تنتصب كاتدرائية كاشفيتي، مشيدة من حجارة بيضاء ورقيقة وحساسة كعذراء. قالت نينو:

"سر في تفليس. هل ترى نساء يرتدين الحجاب؟ لا. هل تشعر بهواء آسيا؟ لا. عالم يختلف عن عالمك. شوارع واسعة وأرواح شفاقة. أشعر بحكمة هائلة حين أكون في تفليس، يا علي خان. لا يوجد هنا حمقى متعصبون على شاكلة سيد مصطفى، ولا عابسون كالحون على شاكلة محمد حيدر. الحياة هنا سهلة وممتعة".

"لكن هذا الوطن واقع بين فكي كماشة حادة، يا نينو".

مرة أخرى سارت بخفة على الحجارة المليئة بالحصى: "لذا فهي بهذه الصورة. دمر تيمور الأعرج تفليس سبع مرات. اجتاح الترك والفرس والعرب والمغول هذه البلاد. بقينا. وضعوا النفايات في جورجيا، اغتصبوها،

قتلوها، لكنهم لم يمتلكوها أبدًا. جاءت القديسة نينو من الغرب، تحمل كرمتها، نحن ننتمي للغرب. لسنا آسيويين. نحن في أقصى شرق أوروبا. بالتأكيد تستطيع أن تدرك ذلك بنفسك؟" أسرعت الخطى وقطبت جبينها الطفولي. "فقط لأننا تحدينا تيمور وجنكيز، الشاه عباس والشاه تهماسب والشاه إسماعيل، لذلك فقط أنا موجودة، أنا، حبيبتك نينو. والآن تأتي، بدون سيف، بدون أفيال قاسية، بدون مقاتلين، إلا أنك وريث شاهات ملطخة أيديهم بالدماء. بناقي سيرتدين الحجاب، وحين يشهر السيف الإيراني مرة أخرى سيدمر أبنائي وأحفادي في تفليس للمرة المائة. يا علي خان، يجب أن ننتمي للعالم الغربي".

أخذت يدها: "ماذا تريد مني يا نينو؟"

قالت: "أوه، كم أنا غبية يا علي خان. أريد أن تحب الشوارع الواسعة والغابات الخضراء، أريد أن تفهم المزيد عن الحب، ولا تتشبث بحائط متداعٍ في بلدة آسيوية. أخشى أن تصبح خلال عشر سنوات ورعًا وحكيماً، وتجلس في جيليان، وتستيقظ ذات يوم وتقول: 'نيو، لست سوى أطيان'. اخبرني: لماذا تحبني؟"

شوشت تفليس ذهن نينو تمامًا، بدا وكأن الهواء الرطب حول نهر كورا سممها.

"لماذا أحبك يا نينو؟ لكل ما فيك، صوتك، شذاك، طريقة سيرك. ماذا تريد من أكثر من ذلك؟ فقط أحبك. من المؤكد أن الحب لا يختلف بين جورجيا وإيران. هنا، في هذه البقعة، منذ ألف سنة، كان روستافيلي يعني

حبه للملكة تamar. وهذه الأغاني لأعظم الشعراء تشبه تمامًا الرباعيات الفارسية. جورجيا لا شيء بدون روستافيلي، وروستافيلي لا شيء بدون بلاد فارس".

قالت نينو مستغرقة في التفكير: "هنا، في هذه البقعة، ربما وقف هنا أيضًا سيات نوبا، الشاعر العظيم الذي غنى حب جورجيا فقطع الشاه رأسه".

لم يكن عندي ما أضيفه لحبيتي نينو في ذلك اليوم. كانت تودع وطنها، وتشعر بحبها له وتعبر عن هذا الحب أكثر من أي وقت مضى، تنهدت وقالت: "تحب عيني وأنفي وشعري - كل ذلك، يا علي خان. لكنك نسيت شيئًا ما: هل تحب روحي؟"

قلت مرهقًا: "نعم، أحب روحك أيضًا".

كنت غريبًا: حين قال سيد مصطفى إن النساء بلا روح ضحكت. وحين أرادت نينو أن أكتشف روحها انزعجت. أي شيء يمكن أن يكون روح المرأة؟ يجب أن تقنع بأن الرجل لا يريد أن يفهم ينوع روحها الذي لا قرار له. "ولماذا تحبيني يا نينو؟"

فجأة بدأت تبكي، هنا، في وسط الشارع. انهمرت دموع غزيرة على وجنتيها، فبدت وكأنها فتاة ساذجة: "سامحني يا علي خان. أحبك، أحبك كما أنت ببساطة. لكنني أخشى دنياك. أنا مجنونة يا علي خان. هنا أقف معك في الشارع، مع خطيبي، وأتصرف كما لو أنك تتحمل وزر كل حروب جنكيز. سامح حبيبتك نينو. من الغباء أن أحملك مسئولة كل

مسلم قتل جورجياً. لن أفعل ذلك مرة أخرى. لكن عليك أن تعرف: أنا، حبيبتك نينو، أنا أيضاً قطعة صغيرة من أوروبا التي تكرهها، وهنا في تفليس أشعر بانتمائي لها أكثر من أي وقت. أحبك وتحبني، لكنني أحب الغابات والمروج، وتحب الهضاب والصخور والرمال. لهذا أخشاك، أخشى حبك وعالمك".

"حسناً؟" تساءلت مرتبكاً. لم أفهم ما كانت ترمي إليه.

"حسناً؟" جففت عينيها وابتسمت من جديد، ومالت برأسها. "حسناً؟ ستزوج خلال ثلاثة شهور، ماذا تريد أكثر من ذلك؟" نينو يمكن أن تضحك وتبكي، تحب وتكره، كل ذلك في نفس واحد. ساحتني على كل حملات جنكيز خان، وأحببني مرة أخرى. أخذت يدي وسحبتي عبر جسر فيري إلى متاهة البازار. كان ذلك تعبيراً رمزياً عن العفو. كان البازار هو البقعة الشرقية الوحيدة في ثوب تفليس الأوروبية. باعة سجاد سُمان، أرمن وفرس، يعرضون هنا الكنوز الإيرانية الفخمة كثيرة الألوان. الأطباق النحاسية محفور على سطوحها الصفراء نقوش حكيمة، تلمع في جو شبه مظلم. كانت فتاة كردية، بعيون رمادية ساطعة، تقرأ البخت، وبدأت مشدوهة بمعرفتها. عند كل باب يؤدي إلى خمارة أو مقهى احتشد كثير من العاطلين والمتسكعين، يناقشون أي شيء وكل شيء في هذه الدنيا بجدية. هذه البلدة بشعوبها الثمانية المختلفة، وكل شعب له لغته الخاصة، لها رائحة لاذعة، نشمها في أزقتها الضيقة. اختفى حزن نينو في فوضى البازار بألوانها الكثيرة. باعة أرمن متجولون، قراء البخت الأكراد، وجبات



فارسية، قساوسة أوستيون، روس، عرب، إنجوش، هنود: تلتقي كل شعوب آسيا في بازار تفليس. ثمة صخب في كشك. التجار يقفون في دائرة: يتشاجر آشوري مع يهودي. نسمع: "حين أسر أجدادنا أجدادكم وسجنوهم في بابلين...". تعلق ضحكات الجموع المحتشدة. تضحك نينو أيضًا- من اليهودي، من الآشوري، من البازار، ومن الدموع التي زرفها. نواصل السير. وبعد بضع خطوات أكملنا الدائرة. مرة أخرى نقف أمام كافيه ميفستو في شارع جلوفينسكي. "ندخل مرة أخرى؟" أتساءل، ولا أعرف ما أريد حقًا.

"لا. نذهب إلى دير القديس داود لنحتفل بعودة الوفاق بيننا". انحرفنا إلى شوارع جانبية تؤدي إلى السكة الحديد المعلقة. بدأت سيارة حمراء صغيرة تزحف ببطء صاعدة جبل داود. غابت البلدة عن النظر، وحكت نينو قصة تأسيس الدير الشهير: "منذ سنوات بعيدة عاش القديس داود على الجبل. وفي الأسفل عاشت في البلدة أميرة كانت على علاقة آثمة مع أمير. حملت فهجرها الأمير، وحين سألها والدها المهتاج عن من أغواها خافت أن تخبره، واتهمت القديس داود. بكل الحق أمر الملك بإحضار القديس إلى قصره. دعا ابنته فكررت الاتهام. مس القديس جسدها بعصاه فحدثت المعجزة. جاء صوت الطفل من جسدها محددًا اسم المجرم الحقيقي. ثم رفع القديس يديه بالدعاء فأنجبت الأميرة حجرًا. وما زال الحجر هنا، ومنه انبثقت عين القديس داود. وحين تحن امرأة لإنجاب طفل تستحم في العين المقدسة". وأضافت بعد تفكير: "أليس من الخير أن القديس داود ميت، ولا يعلم أحد أين عصاه، يا علي خان؟" وصلنا إلى الدير.

"هل تريدن الذهاب إلى العين يا نينو؟"

"لا، أظن أن على الانتظار عامًا آخر". وقفنا بجوار سور الدير نتطلع إلى البلدة أسفل الجبل. امتلأ وادي كورا بضباب أزرق. من بحر الأسطح بدت قباب الكنائس وكأنها جزر منعزلة. باتجاه الشرق والغرب امتدادات طويلة لحديقة المتعة: مجموعة ملاعب تفليس. قلعة متش المظلمة تنتصب عن بعد، كانت ذات يوم مقرا الملوك جورجيا، وصارت سجونًا للإمبراطورية الروسية لسجن القوقازيين الذين يجرؤون على التفكير في السياسة. التفتت نينو. كان من الصعب عليها أن تجمع بين إخلاصها للقيصر ومشهد المكان الشهير - أو غير الشهير - بالتعذيب والموت.

"هل يوجد في متش أي من أبناء عمومك يا نينو؟"

"لا، لكن يجب أن يوجد. تعال، يا علي خان".

"إلى أين؟"

"لنقم بزيارة إلى جريودوف". تحولنا جانبًا وتوقفنا عند شاهد قبر قديم. التقطت نينو حصاة وضغطتها بسرعة على الشاهد ومضت. سقط الحجر وتدرج بعيدًا. ارتبكت نينو بعمق. ثمة خرافة قديمة في تفليس تقول إذا ضغطت فتاة حصاةً على حجر رطب والتصقت لحظة، فستزوج في نفس العام. سقطت حصاتها. تطلعت إلى وجهها المرتبك وضحكت: "انظري؟ ثلاثة أشهر قبل زواجنا! أليس نبينا محققًا حين ينهينا عن الاعتقاد فيما تقول حجارة ميتة؟"

قالت نينو: "بلى".

عدنا إلى السكة الحديد المعلقة. تساءلت نينو: "ماذا نفعل حين تنتهي الحرب؟"

"حين تنتهي الحرب؟ نفعل ما نفعله الآن. نتمشى في باكو، نرى الأصدقاء، نذهب إلى كاراباخ وننجب أطفالاً. سيكون شيئاً مدهشاً".  
"أريد أن أرى أوروبا".

"بالطبع. سنذهب إلى باريس، إلى برلين، إلى حيث تريدين، ونقضي شتاءً كاملاً".

"نعم، نقضي شتاءً واحداً".

"نينو، أما عدت تحبين بلادنا؟ يمكن أن نعيش في تفليس، إذا أحببت".

"شكراً علي خان. أنت طيب جداً معي. سنبقى في باكو".

"نينو، أعتقد أنه لا يوجد مكان مثل باكو".

"أوه؟ هل رأيت مدناً كثيرة غيرها؟"

"لا، لم أر. لكن إذا أحببت فسألف العالم معك".

"وطوال الوقت يتتابك الحنين إلى الحائط القديم والأحاديث الروحية مع سيد مصطفى. لكن لا يهملك. ابقَ على حالك. أحبك".

"معك الحق يا نينو، أحب وطننا، كل بلدتنا، كل حجر، كل حبة رمل في الصحراء".

"أعرف. يا له من أمر غريب - هذا الحب لباكو. بالنسبة للغرباء بلدتنا مجرد مكان غبي حار ممتلئ بالغبار والبترول".  
"لأنهم غرباء".

وضعت يدها حول كتفي. ولمست شفتاها خدي: "لكننا لسنا غرباء،  
أبدًا. علي خان، هل ستحبني دائمًا؟"  
"دائمًا، نينو".

عادت بنا العربة إلى محطة البلدة. مرة أخرى تمشينا في شارع جولوفينسكي،  
وهذه المرة كان ذراع كل منا في ذراع الآخر. على اليسار حديقة كبيرة محاطة  
بسياج حديدي مزخرف بشكل جميل. على البوابة المغلقة وقف جنديان  
للحراسة ثابتان كأنهما قداً من الحجارة، كأنهما لا يتنفسان. بعظمة مهيبة  
علق النسر الإمبراطوري على بوابة من القضبان. كانت مقر الدوق الكبير  
نيقولاي نيقوليفيتش الحاكم الذي نصبه القيصر على القوقاز.

فجأة توقفت نينو، قائلة: "انظر"، مشيرة إلى الحديقة. في ممر من أشجار  
الصنوبر، كان رجل طويل بشعر أشيب ناحل يتمشى ببطء قريباً منا. استدار،  
تعرفت عيني على الدوق الكبير، عينيه الكبيرتين المجنوتتين. وجهه مستطيل،  
وشفتاه مضمومتان. في ظلال الصنوبر بدا كحيوان بري ضخّم ونبيل.  
"أحتار، فيم يفكر يا علي خان؟"

"في تاج القيصر، نينو".

"يبدو طيباً بشعره الأشيب. ماذا سيفعل؟"

"يقولون إنه سيطيح بالقيصر".

"ابتعد يا علي خان، أنا خائفة".

ابتعدنا عن السياج الحديدي المزخرف. قالت نينو: "يجب ألا نتحدث عن القيصر والدوق الكبير بهذا الأسلوب السيء. إنهما يحمياننا من الأتراك".

"إنهما أحد طرفي الكماشة التي تعصر بلادك".

"بلادي؟ ماذا عن بلادك؟".

"بالنسبة لنا الأمر مختلف. نحن مستقلون على السندان والدوق يمسك بالمطرقة. لهذا نكرهه".

"وتحب عنبر باشا. هذا غباء، لن ترى أبدًا عنبر يدخل بلدتنا. سينتصر الدوق الكبير".

قلت بهدوء: "يعلم الله، العلم عند الله وحده".



## 16

انتشرت جيوش الدوق الكبير في تَرَبِزُنْت، احتلت إِرْزُروم، اجتاحت الجبال الكردية في الطريق إلى بغداد. انتشرت جيوش الدوق الكبير في طهران، في تبريز، حتى في مشهد المدينة المقدسة. كان نصف تركيا ونصف بلاد فارس تحت سواد ظل نيقولا ي نيقوليفيتش. وصرح في لقاء مع نباء جورجيا: "خضوعاً لأوامر القيصر لن أمكث حتى يلمع صليب بيزنطة بعظمة جديدة على قبة آية صوفيا". كانت بلاد الهلال في حالة مأساوية. لم يعد يتحدث عن قدرة العثمانيين وانتصار سيف عنبر باشا إلا الكوتش والأمبال الذين يعيشون في الأزقة الفقيرة المظلمة. تلاشت بلاد فارس من الوجود، وقريباً تتلاشى تركيا من الوجود. صمت أبي تماماً، وغالباً ما كان يقضي وقته خارج البيت. أحياناً ينكب على رسائل وخرائط، ويهمس بأسماء بلدات ضاعت، ثم يجلس لساعات دون حراك، وفي يده مسبحة

من الكهرمان. تجولت في محلات المجوهرات والزهور والكتب، واشترت هدايا لنيو. حين أراها أنسى، لساعات، الحرب والدوق الكبير والهلل المعرض للخطر.

ذات يوم قال أبي: "ابق هنا الليلة يا علي خان. سيأتي أناس لناقش أموراً مهمة". بدا مرتبكاً وحائراً. فهمت، وقلت ملحاً:

"ألم تطلب مني يا أبي أن أقسم ألا أهتم بالسياسة أبداً؟"

"اهتمام المرء بشعبه لا يعني بالضرورة اهتماماً بالسياسة. هناك أوقات يا علي خان يكون من واجب المرء أن يهتم بشعبه".

كنت على موعد مع نينو للذهاب إلى الأوبرا في تلك الليلة. كان الفنان شاليابين ضيف تلك الليلة، ونيو تنتظر ذلك منذ أيام. كلمت إلياس بج في التلفون: "إلياس، أنا مشغول الليلة. هل يمكن أن تصحب نينو إلى الأوبرا؟ حجزت التذاكر". وجاء صوته معتذراً:

"يا لها من فكرة. تعرف أنني لا يمكن أن أتصرف طبقاً لهواي. أنا مكلف بالخدمة الليلية مع محمد حيدر". اتصلت بسيد مصطفى.

"آسف، لا أستطيع. أنا على موعد مع الملا الشهير هاجي مقصود. حضر من طهران ليقضي بضعة أيام". اتصلت بنشارارين. بدا صوته شديد الارتباك:

"ولماذا لا تذهب أنت يا علي خان؟"

"عندنا ضيوف".

"تخططون لقتل الأرمن؟ لا يجب أن أذهب إلى المسرح وشعبي ينزف



حتى الموت. لكن تحت أمرك- وشاليباين مطرب رائع حقًا. أخيرًا. الصديق الحق من تجده وقت الحاجة". أخبرت نينو وبقيت في المنزل.

وصل ضيوفنا في السابعة، وكانوا بالضبط كما توقعت. في الردهة الكبيرة، احتشد على السجاجيد والأرائك أكثر من ألف مليون روبل، أو بالأحرى كان الرجال الموجودون يحتكمون على أكثر من ألف مليون روبل. لا يوجد الكثير منهم، وقد عرفتهم كلهم لسنوات. سينال أغا، والد إلياس بج، كان أول الوصول. كان محني الظهر، في عينيه نظرة غامضة. جلس على أريكة واضعًا عصاه تحتها، وبدأ، مستغرقًا في التفكير، يتناول قطعة من الحلوى التركية. ثم أتى الأخوان: علي أسد الله وميرزا أسد الله. ترك لهما والدهما، الشمسي الأخير، ملايين الروبلات. ورث الأبنان ذكاء الأب، وتعلما أيضًا القراءة والكتابة.

كان ميرزا أسد الله يعيش المال والحكمة والسلام. وكان أخوه علي مثل نار زرادشت، تحرق، تحرق ولا تمت. كان دائم الحركة، يحب الحرب والمغامرة والخطر. حكيت عنه قصص كثيرة في البلاد، قصص مشاجرات واعتداءات وإراقة دماء. وقد جلس بجانبه سُولِن بُرْجَت سعدي، لم يكن يحب المغامرة، بل يحب الحب. الوحيد بيننا المتزوج من أربع، يتحدث دائمًا مع الآخرين عن الحرب بسخرية. كان شديد الخجل من وضعه، لكنه لا يستطيع تغيير طبيعته. حين يُسأل عن عدد أطفاله يرد بحزن: "خمسة عشر أو ثمانية عشر، كيف أعرف، يالي من رجل مسكين؟" وإذا سئل عن ملايين يرد بالرد ذاته. جلس يوسف أوغلي في الطرف الآخر من الردهة، يتطلع

إليه باستنكار وغيرة. كان متزوجاً من امرأة واحدة يقال إنها لم تكن جميلة. قالت له يوم الزواج: "إذا وزعت منيك على نساء أخريات فسأقطع آذانهن وأنوفهن وأثداءهن. وما سأفعله معك لا أريد حتى أن أتفوه به". ولما كان أهل هذه المرأة ذوي سمعة مستحقة بسرعة الغضب، فكان لابد من التعامل مع تهديدها بجدية. وهكذا كان الرجل المسكين يجمع الصور.

وكان الرجل الذي وصل إلى الردهة في السابعة والنصف بالغ القصر والنحافة. أظافر يديه الرقيقتين مصبوغة بالأحمر. نهضنا جميعاً وانحنينا له، إجلالاً لسوء طالعها. مات إسماعيل، ابنه الوحيد، منذ بضع سنوات. شيد الأب بيتاً فخماً في شارع نيقولاوي. كان اسم "إسماعيل" يسطع بحروف ذهبية في واجهة البيت، والبيت سبيل مكرس لروح إسماعيل. كان اسمه أغا موسى ناجي، ينتمي لدائرتنا بفضل ثروته التي تبلغ مائتي مليون روبل. لأنه لم يعد مسلماً. انضم إلى طائفة مهرطقة من البهائيين، أسسها الباب، الذي سجنه الشاه ناصر الدين حتى الموت. لا يعرف إلا القليل منا تعاليم الباب. لكن جميعاً نعرف أن نصر الدين وضع الإبر المتوهجة تحت أظافر البهائيين، وحرقهم أحياء وجلدّهم حتى الموت. إنها تعاليم شريرة للغاية تستوجب هذا العقاب.

في الثامنة اجتمع كل الضيوف. جلس أمراء البترول يحتسون الشاي ويأكلون الحلوى، ويتحدثون عن أعمالهم المملة، عن بيوتهم، وجيادهم وحدائقهم وخسائرهم على الطاولة الخضراء في الكازينو. هكذا تواصل الحديث إلى التاسعة كما تنص الأصول. ثم رفع الخدم أدوات الشاي، وأغلقوا

الأبواب، وقال أبي: "ميرزا أسد الله، ابن شمسي أسد الله، لديه الكثير من الأفكار عن مصير شعبنا. فلنستمع إليه". رفع ميرزا أسد الله وجهه الجميل الحالم:

"إذا انتصر الدوق الكبير فلن يبقى بلد إسلامي على الخريطة. يد القيصر ثقيلة الوطأة. لن يمسننا، نحن الذين نجلس هنا الليلة، لأننا نملك الأموال. لكنه سيغلق مساجدنا ومدارسنا، ويحرمنا من التحدث بلغتنا. سيكتسح الغرباء الأرض، لأنه لم يعد هناك من يدافع عن شعب النبي. إذا انتصر عنبر فسيكون الأمر أفضل بالنسبة لنا، حتى لو كانت انتصاراته محدودة. لكن هل يمكن أن نفعل شيئاً في الحالتين؟ أقول إننا لا نستطيع. لدينا أموال لكن القيصر لديه أكثر. ماذا نفعل؟ ربما نقدم بعض الأموال وبعض الرجال للقيصر. وربما لا تكون يده ثقيلة الوطأة علينا بعد الحرب إذا قدمنا له كتيبة؟ أم أن هناك وسيلة أخرى؟ نهض أخوه علي، وقال: "من يعرف، ربما لا يبقى قيصر بعد الحرب".

"حتى لو كان الأمر كما تقول يا أخي، فسيبقى كثير من الروس في بلادنا".

"يمكن أن يتقلص عددهم يا أخي".

"لا نستطيع قتلهم جميعاً يا علي".

"نستطيع قتلهم جميعاً يا ميرزا".

صمتا. ثم تحدث سينال أغا، بصوت واهن ومجهد بفعل الزمن، وبهدوء

خال من التعبير: "لا أحد يعلم المكتوب. انتصارات الدوق الكبير ليست انتصارات، حتى لو استولى على اسطنبول. مفتاح مصيرنا ليس في اسطنبول، بل في الغرب. وهناك ينتصر الترك، حتى إن استدعوا الألمان. الروس يحتلون تريبزون، الأتراك يحتلون وارسو. الروس؟ هل تبقى أحد؟ سمعت أن فلاحًا -أعتقد أن اسمه راسبوتين- يسيطر على القيصر ويلاطف بناته ويدعو زوجة القيصر ماما. وهناك دوقات يردن خلع القيصر، وشعب ينتظر السلام، وهكذا يمكن أن تبدأ ثورة. بعد الحرب سيختلف كل شيء اختلافاً تاماً".

قال رجل بدين عيناه براقتان وشاربه طويل: "نعم، يختلف كل شيء بعد الحرب". كان فتح علي خان من شويبا، وكان محامياً محترفاً. نعرف جميعاً أنه دائم التفكير في الشعب وقضيته. وأضاف بحماس: "نعم، وحيث سيختلف كل شيء فلسنا في حاجة لتسول العطف من أحد. المنتصر في هذه الحرب سيخرج ضعيفاً مثخناً بالجراح، في وضع المحتاج، وليس في وضع المعطي. نحن بلد إسلامي شيعي، نتوقع موقعاً واحداً من آل رومانوف ومن آل عثمان. الاستقلال في كل شيء هو ما يعني! وكلما ضعفت القوى العظمى بعد الحرب اقتربنا أكثر من الحرية. ستأتي هذه الحرية بجهدنا، بقوتنا المتوفرة، بأموالنا وبترولنا. لا تنسوا أن العالم يحتاج إلينا أكثر مما نحتاج إليه".

شعر الألف مليون روبل المحتشد في القاعة برضا تام. كانت سياسة انتظر لترى سياسة رائعة. نمتلك البترول، والمنتصرون سيستجدون عطفنا. وماذا نفعل حتى ذلك الوقت؟ بنينا المستشفيات والحضانات ودور المكفوفين،

لمن يقاتلون دفاعاً عن معتقداتنا. ليس لأحد أن يتهمنا بضعف الشخصية. جلست في الزاوية، صامتاً وغاضباً. قطع علي أسد الله الردهة وجلس بجانبني: "ماذا تعتقد يا علي خان؟" وبدون أن ينتظر الرد انحنى إلى الأمام وهمس: "ألن يكون مدهشاً أن نقتل كل الروس في بلادنا؟ ليس الروس فقط - نقتل كل الغرباء الذين يتحدثون ويصلون ويفكرون بشكل مختلف عنا. كلنا نريد ذلك لكنني الوحيد الذي يجرؤ على التفوه بذلك علناً. ثم ماذا؟ بقدر اهتمامي، قد يحكم فتح علي، مع أي أفضل عنبر. علينا أولاً أن نطرد كل الغرباء." نطق كلمة "نطرد" برغبة عاطفية، كما لو كانت تعني "نحب". لمعت عيناه، وابتسم ابتسامة مزعجة، ولم أرد.

ثم تحدث موسى ناجي، البهائي، قال: "أنا رجل عجوز، يجزني ما أرى وما أسمع. يقتل الروس الأتراك، ويقتل الأتراك الأرمن، ويود الأرمن قتلنا، ونود قتل الروس. هل هذا رائع؟ لا أعرف. سمعنا ما يفكر فيه سينال أغا وميرزا وعلي وفتح بشأن مصير شعبنا. أتفهم عمق اهتمامهم بالمدارس واللغة والمستشفيات والحرية. لكن ما جدوى المدرسة إذا كانت تعلم الهراء، ما جدوى المستشفى إذا اكتفت بعلاج الجسد، ونسيت الروح؟ تجاهد أرواحنا للوصول إلى الله. لكن كل شعب يؤمن بأن له رباً، الرب الواحد الأحد. لكنني أؤمن بأن كل الحكماء يتحدثون عن رب واحد. لذا أؤمن بالمسيح وكونفشيوس وبوذا ومحمد. خلقنا جميعاً رب واحد، وعبر الباب نعود إلى الرب. علينا أن نعرف أنه لا يوجد أبيض أو أسود، لأن الأسود أبيض والأبيض أسود. لذا أنصح بالتالي: ألا نقدم على عمل

قد يؤذي شخصًا في أي مكان من العالم، لأننا جزء من كل روح، وكل روح جزء منا".

جلسنا صامتين مرتبكين. هكذا كانت هرطقة الباب. فجأة سمعت تنهيدة عالية، التفت فرأيت أسد الله، غرق وجهه في دموع مفعمة بالأسى. تنهد: "أوه يا روحي! كم أنت قوية! يا لها من سعادة أن أسمع كلماتك! يا ربي القدير! لو يستطيع كل الرجال العثور على حكمة عميقة كحكمتك!" ثم جفف دموعه، وتنفس بعمق وأضاف، ببرود واضح: "بدون شك، يا سيدي الموقر، يد الله فوق أيدينا، ومع ذلك، يا نبع الحكمة، الحقيقة هي، أننا لا نستطيع دائمًا الاعتماد على رحمة الله. لسنا سوى رجال، وإذا فشل الإلهام، علينا أن نجد وسائل للتغلب على الصعاب التي تواجهنا". كانت جملة بارعة كما كانت دموعه بارعة. تطلع ميرزا إلى أخيه بإعجاب تام. نهض الضيوف. مست الأيادي النحيلة الجباه المكفهرة محمية. انحنى الظهور، وهمست الشفاه: "السلام عليكم. لتبق الابتسامة على شفئك، يا صديق".

انفض اللقاء. خرجت الألف مليون روبل إلى الشارع وتفرقت، بإيماءات وتحيات وتصافح بالأيدي. كانت العاشرة والنصف وكانت الردهة خاوية وكئيبة. شعرت بوحدة شديدة. قلت للخادم: "أنا ذاهب إلى الثكنات العسكرية، إلياس بج مكلّفًا بالخدمة الليلية". سرت على البحر، قرب بيت نينو، إلى الثكنات العسكرية الكبيرة. النور يسطع في نوافذ غرفة الحراسة. إلياس بج ومحمد حيدر يلعبان الطاولة، رحبا بي بإيماءات صامتة.

أخيرًا انتهاء من اللعب. ألقى إلياس بج الطاولة في ركن وفك ياقته. سأل: "كيف سارت الأمور؟ هل صرخ أسد الله مرة أخرى مهددًا بقتل الروس جميعًا؟"

"هذا ما كان تقريبًا. ما أخبار الحرب؟"

قال في سأم: "الحرب. احتل الألمان بولندا كلها، الدوق الكبير إما أن يغوص في الجليد أو يحتل بغداد. قد يحتل الأتراك مصر. من يعرف؟ عالم ممل".

حك محمد حيدر جمجمته المدببة المحلوقة، وقال: "ليس مملًا على الإطلاق. لدينا جياد وجنود، ونعرف كيف نستخدم أسلحتنا. ماذا يحتاج الرجل أكثر من هذا؟ قريبًا أصعد الجبل، وأتمدد في الخندق وأرى عدوًا أمامي. لا بد أنه يتمتع بعضلات قوية وتفوح من جلده رائحة العرق".

قلت: "لماذا لم تتطوع في الجبهة الأمامية إذا كان هذا ما تريد؟"

كانت عينا محمد حيدر حزيتين وضائعتين تحت حاجبه المتدلي: "لا أستطيع إطلاق النار على المسلمين، حتى لو كانوا سنة. لكنني أيضًا لا أستطيع الهروب. أقسمت يمين الولاء. كل شيء مختلف في بلادنا". نظرت إليه وشعرت نحوه بالحب. كان يجلس بكتفيه العريضتين، قويًا، وجهه بسيط، يكاد يخنق برغبته في القتال، قال في حزن: "أريد الذهاب إلى الجبهة الأمامية، ولا أريد".

سألته: "ماذا يحدث في بلادنا؟" قطب حاجبيه ولم يرد لبعض الوقت.

لم يكن التفكير مكمّن قوته. قال أخيراً: "بلادنا؟ يجب أن نبني مساجد. لتمتلى الأرض ماء. أرضنا عطشى. وليس من الخير أن يأتي كل هؤلاء الغرباء لنكتشف كم نحن أغبياء. إذا كنا أغبياء، فهذه مشكلتنا، ومن ثم: أظن أن من الخير أن نشعل ناراً هائلة ونحرق كل منصات البترول. سيبدو أمراً رائعاً، ونعود جميعاً فقراء مرة أخرى. وبدلاً من منصات البترول أشيد مسجداً جميلاً بجدران زرقاء. نربي الجاموس ونزرع الذرة على أرض البترول". ثم غرق في الصمت، حالماً بهذه الرؤية. ضحك إلياس بـج بسعادة: "ونحرم القراءة والكتابة، ونستخدم الشموع بدل الكهرباء، وننتخب أغبى رجل ملكاً لبلادنا". لم يغضب محمد حيدر من هذا الغمز، وقال:

"حسنًا، في العصور الغابرة كان هناك شعب أكثر غباء؛ حفروا قنوات بدلاً من منصات البترول، وسرقوا الغرباء بدل أن يتركوهم يسرقوننا. في تلك العصور كان الشعب أسعد حالاً مما هو عليه الآن". أحسست بما يشبه الارتباك وقبلت رفيقي البسيط. تحدث كما لو كان قطعة من أرضنا المعذّبة البائسة. وفجأة سمعنا طرقة بربرية على الباب فقفزت. نظرت للخارج. اندفع سيد مصطفى في الغرفة. عمامته معلقة على جانب فوق جبينه اللامع. حزامه الأخضر ممزق وكيه الرمادي مغبر. سقط على كرسي وتنفس بصعوبة: "نشارارين خطف نينو. منذ نصف ساعة. إنهما في الطريق إلى مردكياني".



## 17

وثب محمد حيدر على قدميه. ضاقت عيناه. "سأسرج الجياد". اندفع خارجًا. تدفقت الدماء في رأسي، ودق في أذني صوت كقرع الطبول، وشعرت بيد خفية تضرب رأسي بعصا. أتى صوت إلياس بج من بعيد: "اثبت يا علي خان، اثبت. انتظر حتى نلحق بهما". كان وجهه النحيل بالغ الشحوب. وضع حزامًا في وسطي، يتدلى منه خنجر قوقازي مستقيم. "هناك"، قال، ووضع مسدسًا في يدي، ومرة أخرى: "اثبت، علي خان. ادخر حنقك للطريق إلى مَرْدَكياني". وضعت السلاح في جيبي بطريقة آلية. اقترب سيد مصطفى مني بوجهه الممتليء بالندوب، رأيت شفاهها غليظة تتحرك، وسمعت كلمات مكسرة: "تركت المنزل لأرى الملا الحكيم هاجي مقصود. خيمة حكمته منصوبة قرب المسرح. تركته في الحادية عشرة. كانت المسرحية الآثمة قد انتهت للتو. رأيت نينو تركب السيارة،

ونشارارين معها. لم تتحرك السيارة. كانا يتحدثان. لم استرح لطلعة وجه  
 نشارارين. زحفت بالقرب منهما، وسمعت. قالت نينو: 'لا، إني أحبه'. قال  
 نشارارين: 'أحبك أكثر، لن يبقى حجر في هذه البلاد على حاله. سأنقذك  
 من مخالف آسيا'. قالت نينو: 'لا، خذني إلى البيت'. أدار الموتور. قفزت  
 على ظهر السيارة. مضت السيارة إلى بيت كيبياني. لم أتمكن من سماع ما  
 يقولانه، لكنهما تحدثا طوال الوقت. توقفت السيارة عند البيت. صرخت  
 نينو. فجأة عانقها نشارارين وقبل وجهها. 'يجب ألا تسقطي في أيدي هؤلاء  
 الأجلاف'، صرخ، ثم همس بشيء ما، ولم أسمع إلا النهاية 'إلى قصري في  
 مَرْدَكياني، نتزوج في موسكو، ونذهب إلى السويد'. رأيت نينو تدفعه بعيداً  
 عنها. ودار الموتور من جديد، فوثبت وعدوت بأسرع ما أستطيع..". لم  
 يكمل الجملة، وربما لم أسمع النهاية. اقتحم محمد حيدر الباب، وصرخ:  
 "الجياد جاهزة". عدونا إلى الساحة. كان القمر ساطعاً على الجياد، التي تقف  
 هناك، تضرب الأرض وتسهل برفق. "هنا"، قال محمد حيدر. نظرت إلى  
 الحصان، وكانت المفاجأة مذهلة. كان يقف هناك الحصان الأحمر الذهبي،  
 معجزة كاراباخ، حصان مليكوف، قائد المعسكر، أحد اثني عشر حصاناً  
 في العالم كله. كان وجه محمد حيدر عابساً. "القائد سيجن. لا أحد غيره  
 يستطيع امتطاء هذا الحصان. إنه يعدو كالريح. اتركه. ستلحق بهما".

قفزت على صهوة الحصان. مس سوطي ظهر الحيوان العجيب. وبقفزة  
 هائلة كنت خارج ساحة المعسكر. انطلقنا بموازة البحر. مفعماً بالكراهية  
 ظللت أضرب الحصان. تراقصت البيوت خلفنا، والشرار يتابع من حوافره.  
 تأججت روح الانتقام داخلي وتأججت. شددت اللجام بعنف، شب الحصان

وواصل الانطلاق. أخيراً، تجاوزنا الضواحي ذات الأكواخ الطينية. رأيت الحقول تمتد بسلام في ضوء القمر، حيث الطريق إلى مردكياني. كان هواء الليل محملاً ببعض البرودة. حقول البطيخ عن يميننا وعن يسارنا، حيث الفاكهة الكبيرة المدورة تشبه قطعاً من الذهب. انطلق الحصان بخطوات واسعة رشيقة ورائعة. ملت إلى الأمام قدر ما أستطيع، إلى عرف الحصان. هذا ما كان! رأيت كل شيء بوضوح تام... سمعت كل ما تفوها به. فجأة استطعت تتبع تيار الأفكار الغريبة: عنبر يقاتل في آسيا الصغرى. عرش القيصر مهدد بالسقوط. الدوق الكبير معه كتائب من الأرمن في جيشه. إذا انكسرت الجبهة الأمامية فسيحتاج جيش عثمان أرمنيا وكاراباخ وباكو. يستطيع نشاراين التنبؤ بالنتائج. ومن ثم أرسل سبائك الذهب، الذهب الأرمني الثقيل، إلى السويد. إنها نهاية تأخي الشعوب القوقازية. أرى اثنين منهم في مقصورة المسرح: "أميرة، لا جسر بين الشرق والغرب، ولا حتى جسر الحب". نينو لا ترد، لكنها تسمع. "يجب أن نقف معاً، نحن الذين نقع تحت تهديد سيف عثمان. نحن، سفراء أوروبا في آسيا. أحبك يا أميرة. نحن ننتمي لبعض. الحياة سهلة وبسيطة في استوكهلم. هناك أوروبا، هناك الغرب". ثم أسمع بوضوح تام، كما لو كنت هناك وهو ينطق الكلمات: "لن يبقى حجر في موضعه في هذه البلاد".

والنهاية: "يجب أن تقرري مصيرك يا نينو بنفسك. بعد الحرب سنعيش في لندن. وسنمثل في البلاط. على الأوروبي أن يكون سيد مصيره. تركت علي خان في روح معنوية عالية. لكنه بربري، وسيبقى إلى الأبد سجين الصحراء".

أضرب الحصان بالسوط. صرخة برية. كما يعوي ذئب الصحراء حين يرى القمر، بنفس طويل، عويلاً حزيناً مرتفعاً. طوال الليل صوت واحد. مازلت أميل أكثر إلى الأمام. حنجرتي تؤلمني. لماذا أصرخ على الطريق المقمر إلى مردكياني؟ على أن أدخر حنقي. تلطم ريحٌ عاصفة وجهي. وهذا سر تساقط دموعي، لا شيء غيره. لم أصرخ، ولا حتى حين عرفت فجأة أن لا جسر بين الشرق والغرب، ولا حتى جسر الحب. العيون الجورجية المتألقة والمبتسمة! نعم، أنا من ذئاب الصحراء، الذئاب التركية الرمادية. تم التخطيط للأمر ببراعة فائقة، أليس كذلك؟ "نتزوج في موسكو، ثم نذهب إلى السويد". فندق في استوكهلم، دافئ ونظيف، بملاءات بيضاء. فيلا في لندن. فيلا؟ وجهي يلامس الجلد الأحمر الذهبي. فجأة أعض عنق الحصان. يمتلئ فمي بطعم الدم المالح. فيلا؟ يمتلك نشارارين فيلا في مردكياني، ككل أثرياء باكو. مشيدة من الرخام، تنتصب في واحة من حدائق الفاكهة، قرب البحر. بأية سرعة تسير السيارة، وبأية رشاقة يجري حصان كاراباخ؟ أعرف الفيلا. السرير من خشب الماهوجاني، أحمر وواسع. ملاءات بيضاء كما في فنادق استوكهلم. لن يتحدث في الفلسفة طوال الليل. سوف... بالطبع سوف. أرى السرير أمامي، والعيون الجورجية، مفعمة بالشهوة والخوف. انغرست أسناني بعمق في لحم الحصان. الحيوان العجيب يسرع. انطلق! انطلق! ادخر حنقك حتى تلحق بهما يا علي خان. طريق ضيق، الطريق إلى مردكياني. فجأة أضحك بصوت مرتفع. يا لها من أعجوبة، أن نكون في آسيا، آسيا الهمجية المتخلفة! لا توجد طرق ممهدة تصلح للسيارات الغربية، طرق وعرة لا تصلح إلا لجياد كاراباخ. بأية سرعة تسير السيارة في

هذه الطرق، وبأية رشاقة ينطلق فيها حصان كاراباخ؟ البطيخ على جانب الطريق يتطلع إليّ كما لو كان له أوجه. يقول البطيخ: "طريق بالغ الرداءة، لا يصلح للسيارات الإنجليزية. لا يصلح إلا لحياد كاراباخ".

هل يحتمل الحصان هذا الطريق؟ لا أظن ذلك. مازلت أرى وجه مليكوف في ذلك اليوم في شوشا، حين لمع سيفه وهو يقول: "لا أمتطي هذا الحصان إلا حين يدعو القيصر للحرب". إلى الجحيم! ليبيك عجوز كاراباخ حصانه. مرة بعد أخرى يفرقع سوطي في الهواء. تلطم الريح وجهي كأن لها كفوف. التفت - أجمات برية على جانب الطريق - وأخيراً - أسمع عن بعد صوت الموتور.

ينبعث ضوء ساطع من لمبتين على الطريق الوعر. السيارة! تزحف ببطء إلى الأمام. سيارة أوروبية، لا تسعف المرء على طرق آسيا. يهوى سوطي مرة أخرى. أتعرف على نشارارين أمام عجلة القيادة.

ونينو! نينو تجثم في ركن. لماذا لا يسمعان صوت حوافر الحصان؟ هل يظن أنه لا يحتاج للاستماع إلى ما يدور في الخارج؟ هل يشعر بأمان شديد في سيارته الأوروبية المتجهة إلى مردكياني. ليتوقف هذا الصندوق المطلي! الآن، هذه الدقيقة! أفضي على الأمان بطلقة من مسدسي. تعالي يا أداتي البلجيكية الصغيرة، قومي بواجبك! أطلق النار. لثانية يبرق خيط دقيق من اللهب على الطريق. أوقف الحصان. أحسنت يا صديقي البلجيكي الصغير. فجأة يتمزق الإطار الأيسر وكأنه بالون أفرغ من الهواء. يتوقف الصندوق المطلي. انطلق إليه والدماء تتدفق في وجهي. ألقيت سلاحي بعيداً،

ولم أعد أعرف ما أفعل. وجهان يتطلعان إليّ، عيون تحديق في رعب هائل. يد غريبة مرتجفة تقبض على مسدس. فقد الشعور في سيارته الأوروبية. أرى الأصابع الممتلئة والخاتم الماسي. بسرعة يا علي خان! اثبت الآن. أسحب خنجري. اليد المرتجفة لا تطلق النار. بصغير شجي يصل الخنجر عبر الهواء. أين تعلمت استخدام الخنجر؟ في بلاد فارس؟ في شوشا؟ لم أتعلمه في أي مكان! معرفة المنحنى الدقيق الذي يجب أن يأخذه الخنجر متأصلة في دمي، في عروقي، موروثة عن أسلافي البريين. موروثة عن شرفشير الأول، الذي ذهب إلى الهند واحتل دلهي. صرخة عالية ورفيعة بشكل مدهش. يد ممتلئة، تفرد أصابعها، خط من الدم يتدفق عبر الرسغ. رائع أن ترى دم عدوك على الطريق إلى مردكياني. يسقط المسدس في قاع السيارة. وفجأة اندفاعات في زحف سريع وبطن بدين. بقفزة واحدة يعدو الرجل عبر الطريق إلى الأحرار البرية على جانب الطريق. نينو تجلس هادئة ومنتصبة على مقاعد السيارة الوثيرة. وجهها جامد وخال تمامًا من التعبير وكأنه قُدّ من حجر. يرتجف جسدها كله بصورة لا إرادية، في كابوس عن قتال الأشباح في الظلام. أسمع من بعيد دوى حوافر تقترب. أقفز في الأحرار. تمسك بي أغصان حادة وكأنها أيدي أعداء غير مرئيين. تخشخش الأوراق تحت قدمي، تقطع الأغصان الجافة يدي. بعيدًا في الأحرار أنفاس حارة تخرج من الحيوان الذي وقع في الشرك - نشارارين! فندق في استوكهلم! شفتان غليظتان على وجه نينو!

أراه. يتعثر ويمزق الأغصان بيديه الغليظتين. يعدو تجاه البحر عبر حقول البطيخ. لماذا رميت المسدس حين وقعت عيني عليه في البداية؟

يمكن أن أستخدامه الآن. الدماء تنساب من يدي اللتين مزقتهما الأغصان الشائكة. هناك -البطيخة الأولى. قناع غبي بدين ومدور- هل تسخر مني؟ أسحقها، وتنفجر بصوت قوي! تحت كعبي. أعدو عبر الحقل. يسطع وجه القمر الميت. يسقط فيض من النور الذهبي البارد على حقل البطيخ. أبدأ، لن تأخذ سبائك الذهب إلى السويد يا نشارارين. الآن أقبض على كتفه. يلتفت، يقف كقطعة من الخشب، تنبعث من عينيه الكراهية، لأنني عرفته على حقيقته. ضربة -قبضته تسقط على ذقني. ومرة أخرى- تحت ضلوعي. حسناً، يا نشارارين، تعلمت الملاكمة في أوروبا. أشعر بدوار. نفسي يتوقف بضع ثوانٍ. أنا آسيوي يا نشارارين، ولم أعرف أبداً فن الضرب تحت الحزام. يمكن فقط أن أجن كذئب الصحراء. أقفز. تلتف ذراعاي حول جسده وكأنه جذع شجرة. تضغط قدمي على بطنه البدين، وتقبض يداي على رقبته البدينة. يهاجمني بعنف، ناسياً كل التدريبات الأوروبية. انحني ونسقط سوياً. نلتف على الأرض. فجأة أسقط تحته، يخنقني بيديه. فمه يتدلى على ناحية من وجهه المشوه. أركله بقدمي في بطنه، يتوغل كعباي في دهنه. تتراخي قبضته. لجزء من الثانية أشده من الياقة الممزقة. تتوغل أسناني في رقبته البيضاء البدينة. نعم، نشارارين، هكذا نقاتل في آسيا. لا نضرب تحت الحزام، نضرب بقبضة الذئب الرمادي. أشعر بعروقه تنبض.

حركة بسيطة عند خصري. يد نشارارين تمسك بخنجري. نسيته في حرارة اللحظة. الصلب يومض فجأة، ألم عميق في ضلوعي. كم كانت

دمائي حارة. الطعنة مزقت ضلوعي. تركت رقبتة ونزعت الخنجر من يده الجريحة! لقد تحتي وقد تحول وجهه إلى القمر. أرفع الخنجر. يصرخ - عويل رفيع ممتد، تطوح رأسه إلى الخلف. كل وجهه مجرد فم - بوابة مفتوحة من خوف قاتل. فندق في استوكهلم، يا لك من خنزير حقير!

لماذا أتردد؟ يأتي صوت من خلفي:

"اقتله، علي خان، اقتله!"

إنه محمد حيدر. "اطعنه في القلب مباشرة!"

أعرف موضع الطعنة القاتلة. لكنني أريد أن أسمع صوت العدو الحقير مرة أخرى. ثم أرفع خنجري. عضلاتي مشدودة. فوق القلب مباشرة يصبح خنجري جزءاً من جسد عدوي. ارتجف وارتجف. نهضت ببطء. ثمة دماء على ملابسي. دمائي؟ دماؤه؟ ماذا يعني ذلك؟

يكشف محمد حيدر عن أسنانه. "تم الأمر بصورة جيدة يا علي خان. ستكون موضع إعجابي إلى الأبد". يؤلمني ضلعي. يسندني. مرة أخرى اندفعنا بين الأحرار، ومرة أخرى نقف قرب الصندوق المطلي، على الطريق إلى مردكياني. أربعة جياذ وفارسان. إلياس بج يرفع يده تحية لنا. يرفع سيد مصطفى عمامته الخضراء عن جبهته. يمسك بنينو على صهوة حصانه، بإحكام، ككماشة. يقول ببطء ورقة، وعيناه نصف مغمضتين كأنه في حلم: "ماذا نفعل مع المرأة؟ تطعنها أنت أم أطعنها أنا؟"

يقول محمد حيدر وهو يقدم لي خنجراً: "اقتلها يا علي خان".



أُتطلع إلى إلياس بج. يومئ، وجهه أبيض كالطباشير. "نلقي بالجسد في البحر".

أقف بجوار نينو. عيناها بشعتان... جاءت تعدو عبر الشارع إلى مدرستنا، غارقة في الدموع، حاملة حقيبتها. ذات يوم جلست تحت طاولتها وهمست: "توج شارلمان في آكن عام 800". لماذا تصمت نينو؟ لماذا لا تصرخ، كما فعلت يوم أتت تطلب المساعدة؟ لم تكن غلطتها أن لا تعرف تاريخ تنويج شارلمان. ألتنصق برقة حصانها وأتطلع إليها. كم هي جميلة، على صهوة حصان سيد، في ضوء القمر، وهي تتطلع إلى الخنجر. الدم الجورجي الأنبل في العالم. الشفتان الجورجيتان - قبلهما نشارارين. سبائك الذهب في السويد - قبلها. "إلياس بج، أنا جريح. خذ الأميرة نينو إلى البيت. الليل بارد. غط الأميرة نينو. سأقتلك يا إلياس بج إذا لم تصل الأميرة نينو إلى البيت سالمة. تسمعني يا إلياس بج. هذا ما أريده. محمد حيدر، سيد مصطفى، أشعر بضعف شديد. ساعداني لأعود إلى البيت. احملاني. أستند عليكما، سأنزف حتى الموت".

أمسك بعرف حصان كاراباخ، محمد حيدر يساعديني في الجلوس على الصهوة. إلياس بج يقترب، يأخذ نينو ويضعها بحرص على الوسائد الناعمة في صهوته القوقازية. لا تبدي مقاومة... يخلع معطفه ويضعه برقة حول كتفيها. مازال شاحبًا جدًا. بنظرة وإيماءة - نينو ستكون آمنة معه. يقفز محمد حيدر على صهوة الحصان. "أنت بطل يا علي خان. قاتلت ببراعة. قمت بواجبك". يضع ذراعه حول كتفي ليسندني. عينا سيد مصطفى مسبلتان".

"حياتها تخلصك. يمكن أن تأخذها أو تتركها. تجيز الشريعة الأمرين".  
يبتسم كأنه في حلم. يضع محمد حيدر اللجام في يدي. نسير صامتين في  
الليل، باتجاه الأضواء التي تسطع برقة في باكو.

## 18

صف ضيق من الأكواخ الحجرية على حافة الهاوية، صخور صفراء جافة متآكلة، لا أشجار. أحجار هائلة رصت بشكل رديء لتكون جدراناً سيئة. أكواخ متقاربة، مربعة وبسيطة، معلقة في صخور الهاوية. فناء الكوخ سطح منبسط لكوخ يقع تحته. في عمق الجبال يندفع التيار، تبرز الصخور في الهواء النقي. ممر ضيق متعرج يلتف بين الأحجار ويختفي عن الأنظار. هذه أول - قرية جبلية في داغستان. فرشت الأرضية في الكوخ المظلم بحصير سميك. في الخارج يحمل عمودان السطح الضيق. نسر معلق في الأفق الشاسع، ناشراً جناحيه وساكناً كأنه قد من حجر.

استلقي على سطح ضيق، مبسم نرجيلتي العنبري بين شفتي، أسحب الدخان البارد في رئتي. تبرد وجنتاي، يتلاشى الدخان الأزرق، تحمله الريح العليلة بعيداً. يد خيرة خلطت الحشيش بالتبغ. أنظر إلى الهاوية

فأرى وجوهاً تدور في الضباب السابح، وجوهاً شهيرة - رستم المقاتل وفرسانه، على بساط على حائط غرفتي في باكو. أتذكر وأنا مستقل هناك، ملتف في أغشية حريرية سميقة. ضلعي يؤلمني. الضمادة بيضاء ناعمة. خطوات خفيفة عند الباب المجاور. أسمع الأصوات فقط. أستمع. ترتفع الأصوات. أبي يتكلم: "معذرة أيها الضابط. أنا نفسي لا أعرف أين ابني. أظنه هرب إلى بلاد فارس، إلى عمه. أنا شديد الأسف".

ارتفع صوت الضابط غاضباً: "معني أمر قضائي بالقبض على ابنك. إنها حالة قتل. سأجده، حتى في بلاد فارس".

"لا يمكن لهذا إلا أن يسعدني. أي محكمة ستقرر براءته، وقد جرت الأمور بصورة مؤثرة، يبررها ما حدث من قبل. بالإضافة..".

أسمع حفيف ورق المذكرات الأبيض، أو أظن في النهاية أن هذا هو ما أسمع. ثم يعم الصمت. مرة أخرى يأتي صوت الضابط: "آه حسناً، يسلم هؤلاء الشبان الخنجر بسرعة. أنا مجرد خادم للدولة. لكنني أفهم. يجب ألا يظهر الشاب في البلدة. الأمر القضائي سيرسل إلى بلاد فارس". خف صوت الخطي، وعم الصمت من جديد. كانت الكلمات التي تزخرف السجادة لولبية. تتبعت عيناى السطور، وضاعت دوامات رائعة لحرف النون. ثمة وجوه تميل عليّ، شفاه همست كلمات لم أفهمها. أجلس في السرير وإلياس بج ومحمد حيدر يقفان أمامي. يتسلمان في البزة العسكرية. "جئنا نودعك. إننا ذاهبان إلى الجبهة".

"لماذا؟"

إلياس يلتقط خراطيشه: "أخذت نينو إلى البيت. لم تنطق بكلمة. ثم انطلقت إلى الثكنات. بعد بضع ساعات عرف الجميع كل شيء. صعق القائد مليكوف وشرب حتى الثمالة. رفض رؤية الحصان مرة أخرى، وفي المساء أطلق النار عليه. تطوع للذهاب إلى الجبهة. حاول أبي إيقاف المحكمة العسكرية. لكننا ذاهبان إلى الجبهة، إلى الخطوط الأمامية مباشرة".

"سامحاني. إنها غلطتي".

اعترض الإثنان بقوة. "لا، أنت بطل، فعلت ما يجب أن يفعله الرجل. نحن مزهوان جدًا".

"هل رأيتما نينو؟"

وقفا مكانهما، ووجهاهما جامدان. "لا، لم نر نينو". كان صوتاهما باردتين. تعانقنا. "لا تقلق علينا. سنحسن التصرف سواء كنا في الخطوط الأمامية أو لم نكن". ابتسامة وتحية، وأغلق الباب.

استلقي على ظهري على الوسائد، أتأمل الرسوم الحمراء على السجادة. أصدقائي المساكين. إنها غلطتي. غرقت في أحلام يقظة غريبة. اختفى الحاضر. رفر وجه نينو في السديم، ضاحكًا أحيانًا، جادًا أحيانًا. تلمسني أيد غريبة. قال واحد بالفارسية: "عليك بالحشيش، إنه يريح البال". وضع واحد المبسم العنبري في فمي، وجاءت الكلمات خلال فتات أحلام اليقظة: "عزيزي خان، أليس هذا مروغًا. يا له من أمر فطيع. أعتقد أن من الأفضل أن تتبع ابنتي ابنك. يجب أن يتزوجا في الحال".

"أيها الأمير، علي خان لا يستطيع الزواج. إنه طريد، بينه وبين آل نشارارين ثأر دموي. أرسلته إلى بلاد فارس. يتهده الخطر كل ساعة من حياته. ليس الزوج المناسب لابتك".

"يا سفر خان، أتوسل إليك. سنحمي الأبنين. يجب أن يبعدا، إلى الهند، إلى أسبانيا. ابنتي مهانة. ولن ينقذها إلا الزواج".

"ليست غلطة علي خان يا أميري. وعلى أية حال، أنا واثق من أنها ستجد روسياً أو حتى أرمينياً".

"لكن من فضلك! كانت مجرد فسحة مسائية بريئة، وهي مفهومة في هذا الجو الحار. ابنك تعجل - لم يكن الشك في محله. عليه أن يقبل الترضية".

"ليكن الأمر كما يكون، أيها الأمير. علي خان طريد ولا يستطيع الزواج".

"أنا أيضاً أب يا سفر خان".

توقفت الأصوات. عاد الهدوء من جديد. قطع الحشيش مدورة وتبدو كالنمل. أخيراً، فكت الضمادات. شعرت بالندبة - أول ندبة مشرفة على جسدي. نهضت وتجولت في الغرفة بخطوات مترنحة. نظر إليّ الخدم على استحياء بعيون هلعة. فتح الباب ودخل أبي. يدق قلبي بعنف. اختفى الخادم. صمت أبي بعض الوقت. تجول في الغرفة ذهاباً وجيئةً، ذهاباً وجيئةً. ثم توقف: "يأتي البوليس يومياً، ليس البوليس فقط. يبحث آل نشارارين عنك في كل مكان. ذهب خمسة منهم بالفعل إلى بلاد فارس. أحتاج

لاستخدام عشرين رجلاً لحراسة البيت. وبالمناسبة، أعلن آل مليكوف أيضاً، إنهم سيثأرون منك. بسبب الحصان. نقل أصدقاؤك إلى الجبهة". خفضت رأسي ولم أرد. وضع أبي يده على كتفي. كان صوته رقيقاً: "أنا فخور بك يا علي خان، شديد الفخر بك. لو كنت مكانك لفعلت بالضبط ما فعلته".

"هل أنت راض يا أبي؟"

"تقريباً. شيء واحد فقط"، عانقني ونظر بعمق في عيني: "لماذا تركت المرأة؟"

"لا أعرف يا أبي. كنت مستنزف القوى".

"كان ذلك أفضل يا بني. الوقت الآن متأخر للغاية. لن ألومك. نحن جميعاً فخورون بك، العائلة كلها".

"وماذا علينا أن نفعل الآن يا أبي؟"

مرة أخرى أخذ يذرع الغرفة ذهاباً وحيثاً، وبدأ مشوشاً: "حسناً، يمكن أن تبقى هنا. لا يمكنك الذهاب إلى بلاد فارس. يبحث البوليس وعائلتان كبيرتان عنك. الأفضل أن تذهب إلى داغستان. لن يعثر أحد عليك في أوول، لن يجرؤ شرطي أرمني على الذهاب إلى هناك".

"إلى متى يا أبي؟"

"لوقت طويل. حتى ينسى البوليس المسألة برمتها. حتى يعقد أعداؤك صلحاً معنا. سآتي لزيارتك".

غادرت في الليل إلى ماكتش كاليه، ومن هناك ذهبت إلى الجبال. حملتني جياذ صغيرة بأعراف طويلة عبر ممرات ضيقة إلى أوول نائية، على حافة هاوية برية. كنت هناك حينذاك، آمنًا في حماية الكرم الداغستاني. "طريد"، قال الناس ونظروا إليّ متفهمين. خلطت يد محبة التبغ بالحشيش. دخلت كثيرًا، وأنا أتمدّد صامتًا، تعذبني الرؤى. صديق أبي، قاسي ملا، الذي أغرقني بكرمه، تحدث كثيرًا، مزقت شظايا كلماته حمى الأحلام التي أخذتني مرة بعد أخرى إلى الطريق المقمر. "لا تحلم يا علي خان. اسمعني. هل سمعت قصة أندلال؟"

"أندلال!" قلت بتبلد.

"هل تعرف أندلال؟ منذ ستمائة عام كانت قرية جميلة. يحكمها أمير يتحلّى بالطيبة والمهارة والشجاعة. كانت فضائله أكثر من أن يستوعبها الناس. فجاءوا إلى الأمير وقالوا: 'أرهقنا، اتركنا'. فبكى الأمير، وامتطى صهوة حصانه، وودع عائلته ورحل إلى بلاد فارس. وهناك أصبح رجلًا عظيمًا. عينه الشاه مستشارًا له، وكان الشاه ينفذ ما يشير عليه به. احتل الكثير من المدن والبلاد. وكان يشعر بالمرارة تجاه أندلال. فقال: 'في وديان أندلال كنوز من الذهب والمجوهرات. سنحتل أندلال'. وانطلق الشاه بجيشه العظيم إلى الجبال. فقال شعب أندلال. 'أنتم جموع غفيرة، لكنكم تحت. ونحن قلة لكننا فوق. والله الذي لا إله إلا هو فوق الجميع، وأقوى منا جميعًا'. هكذا قاتل شعب أندلال رجالًا ونساء وأطفالًا. في الصف الأول قاتل أبناء الأمير، وقد مكثوا في أندلال حين رحل بعيدًا. هزم الفرس، وكان الشاه أول



الفارين والخائن آخرهم. مضت عشر سنوات. وكبر الأمير وحن قلبه إلى وطنه. غادر قصر الشاه وانطلق إلى بلده. تعرف الشعب على الخائن الذي قاد الأعداء إلى واديهم. بصقوا عليه وأغلقوا أبوابهم. طوال النهار والأمير يطوف في القرية، ولم يعثر على صديق. في النهاية ذهب إلى القاضي وقال: 'عدت إلى وطني لأكفر عن خطأ اقترفته. حاكمني طبقاً للشرعة'. 'قيدوه'، قال القاضي، وأعلن: 'ينص شرع آبائنا على دفن هذا الرجل حياً'. وصرخ الشعب: 'ليكن الأمر كذلك'. لكن القاضي كان رجلاً منصفاً. سأل القاضي: 'بم تدافع عن نفسك؟' فرد الأمير: 'ليس عندي ما أقوله. أنا مذنب. أجل شرع آبائنا. هذا حسن. لكن هناك أيضًا مبدأ يقول: 'من يقاتل أباه يُقتل'. أطالب بحقي. قاتلني أبنائي. لتقطع رؤوسهم على قبري'. قال القاضي: 'ليكن الأمر كذلك، فبكى الشعب كله بكاءً مريراً. لأن أبناء الأمير كانوا موضع تقدير. لكن يجب تنفيذ القانون. وهكذا دفن الخائن حياً، وقطعت رؤوس أبنائه، وهم من أشجع المحاربين، على قبره'.

قلت متدمراً: "هراء سخيف. هل هذه أفضل قصة لديك؟ بطلك آخر شخص في هذه البلدة، مات منذ ستمائة سنة، وكان خائناً".

قال قاسي ملا بشموخ وقد جرحت مشاعره: "هل سمعت عن الإمام شامل؟"

"أعرف كل شيء عن الإمام شامل".

"انقضت الآن خمسون عاماً. سعد الشعب تحت حكم شامل، لم يكن هناك نبيذ أو تبغ. حين يقبض على لص تقطع يمينه، وكان

من الصعب أن تجد لَصًا. حتى جاء الروس. وظهر النبي للإمام شامل وأمره ببدء الغزوات، الحرب المقدسة. ارتبط كل الجبلين بشامل بأغلظ الأيمان، ومنهم شعب الشيشان. وكان الروس أقوياء. هددوا الشيشان، حرقوا قراهم ودمروا حقولهم. فذهب حكام العشيرة إلى دارجو، وكيل الإمام، يتوسلون إليه أن يحلهم من أيمانهم. وحين واجهوه لم يجروا على البوح بما في قلوبهم. ذهبوا إلى أم الإمام، فبكت لما يعانيه أهل الشيشان من البؤس وقالت: 'سأكلم الإمام من أجلكم'. ولأن الإمام كان دائمًا ابنًا طيبًا، فقد كان تأثير أمه عليه عظيمًا. وقد قال ذات مرة: 'ملعون من يغضب أمه'. حين كلمته الهانم قال: 'القرآن يحرم الخيانة. القرآن يحرم على الابن معارضة الأم. حكمتي لا تكفي لحل هذه المشكلة. سأصوم وأصلي، ليهديني الله إلى الصواب'. صام الإمام ثلاثة أيام بلياليها. ثم ظهر للناس وقال: 'هواني الله ودلني على شريعته: أول من يكلمني عن الخيانة سيجلد مئة جلدة. وأول من حدثني عن الخيانة هي الهانم، أمي. سأجلدها مئة جلدة'. جاءوا بالهانم. نزع المقاتلون نقابها، وألقوا بها على سلام المسجد ورفعوا سياطهم. تلقت جلدة واحدة. ثم ركع الإمام على ركبتيه وهو يبكي ويصرخ: 'لا يمكن خرق شرائع الله. لا أحد يستطيع تعطيلها حتى أنا. لكن القرآن يميز تنفيذ عقوبة الآباء في الأبناء. سأتلقي بقية عقاب والدتي'. خلع الإمام عباءته، وتمدد على عتبات المسجد أمام الناس جميعًا وصرخ: 'اضرب. ولأني الإمام فسأقطع رأسك إذا أحسست أنك لا تضرب بكل قوتك'، وتلقى الإمام تسعًا وتسعين جلدة. ورقد غارقًا في دمائه وجلده ممزق. رأى الناس ذلك، فلم يجروا أحد على ذكر الخيانة

مرة أخرى. هكذا كان الحكم في الجبال منذ خمسين عامًا. وكان الناس سعداء". كنت صامتًا.

اختفى النسر من السماء. وحل الشفق. ظهر الملا على مئذنة المسجد. فرش قاسي ملا سجادة الصلاة، ولينا وجوهنا شطرمكة وصلينا. بدت الصلوات العربية كأناشيد الحروب القديمة. "اذهب الآن يا قاسي ملا. نحن أصدقاء. سأنام الآن". نظر إليّ بارتياح. ثم تنهد وخلط التبغ بالحشيش. حين خرج سمعته يقول للجار: "الطريد مريض جدًا". ورد الجار: "منذ زمن بعيد لا يوجد مريض في داغستان".



## 19

كانت مجموعة واحدة من النساء والأطفال يسرون في القرية بوجوه نحيلة ومجعدة. قطعوا مسافة طويلة جدًا، يحملون في أيديهم أكياس مليئة بالتراب والسماذ، ويحكمون قبضتهم على الحمل النفيس كأنه كنز من الذهب. جمعوه من القرى البعيدة، استبدلوه بالأغنام والعملات الفضية ومنسوجات يدوية. يفرشون التراب العزيز الذي اشتروه على الصخور السوداء لتنتج الأرض الجذباء الحبوب لإطعام الناس. الحقول معلقة على منحدر يشرف على الهاوية. نزل الرجال في صف إلى الخطوط الضيقة المنبسطة، وفرشوا التراب الجديد على الأرض الصخرية. وضع جدار شيد بصورة غير متقنة على ما سيكون حقلًا، ليحميه من الرياح وانهيارات التربة. هذه الأطيان، التي طولها ثلاث خطوات واتساعها أربع خطوات، أغلى كنوز أهل الجبال. في الصباح الباكر يذهب الرجال إلى الحقول. صلوا

صلوات طويلة، وانحنوا على الأرض الطيبة. وحين تكون الرياح قوية تأتي النساء بالبطاطين ليغطين الأرض العريضة. كن يداعبن البذور بأصابع بنية نحيلة، وفي النهاية يحصدن أوراقًا قليلة بمناجل صغيرة. يطحن البذور ويخزن أرغفة رقيقة وطويلة. في الرغبة الأول توضع قطعة عملة تعبيرًا عن شكر الناس لمعجزة البذرة.

كنت أسير بجوار جدار مزرعة صغيرة. على الصخور تتعثر الأغنام. جاء فلاح، على رأسه قبعة بيضاء عريضة من اللباد، على عربة بعجلتين. كان صرير العجلتين يشبه صراخ الأطفال، وقد سمعت صوتهما من مسافة بعيدة. قلت له: "يا أخي الصغير، سأكتب إلى شخص في باكو ليرسل لك بعض الشحم لتشحم محاور العجلتين". ابتسم الفلاح ابتسامة عريضة.

"أنا مجرد رجل بسيط، لماذا أختبئ؟ لا أخشى أن يسمع الجميع صوت عربتي وهي قادمة، لهذا لا أشحم محاور العجلتين. لا يفعل ذلك إلا الأبريك".

"الأبريك؟"

"نعم، الأبريك، الصعاليك".

"هل يوجد عدد كبير منهم؟"

"يوجد ما يكفي. إنهم لصوص وقتلة. بعضهم يقتل لحساب الآخرين، وبعضهم لحساب نفسه. لكنهم جميعا يقسمون قسمًا مرعبًا".

"أي قسم؟"

أوقف الفلاح عربته ونزل. استند على جدار حقله، وتناول من حقيبته قطعة من جبن الأغنام، وقطعها بأصابعه الطويلة وقدم لي نصفها. كان في القطعة اللزجة شعر داكن. أكلتها. "قسم الأبريك. ألا تعرفه؟ في منتصف الليل يزحف الأبريكي إلى المسجد ويقسم: 'بحق هذا المكان المقدس، الذي أبجله، أقسم أن أكون من اليوم متشردًا. أريق دم البشر ولا تأخذني الشفقة بأحد. سأشن الحرب على الجميع. أقسم أن أسرق من الناس كل ما يعتزون به، ضميرهم وشرفهم. سأطعن الطفل على صدر أمه، وأشعل النيران في كوخ المتسول البائس وأجلب الأسي إلى أماكن البهجة. إذا لم أبر بهذا القسم، إذا زحف الحب أو الشفقة إلى قلبي، فلا رأيت أمني مرة أخرى، ولا روت المياه عطشي ولا سد الخبز جوعي، وألقي جسدي على الطريق ليمزقه كلب قذر". كان صوت الفلاح مهيبًا، وقد اتجه إلى الشمس بعينه الخضراوين العميقتين. وقال: "نعم، هذا هو قسم الأبريك".

"من يقسم هذا القسم؟"

"رجال عانوا من الظلم". صمت. عدت إلى البيت. بدا ميدان الأول كطاولة. كانت الشمس حامية على رؤوسنا. ربما كنت أنا نفسي أبريكيًا، صعلوكًا، هرب إلى الجبال الوحشية؟ هل أقسم هذا القسم الدموي، مثل لصوص داغستان؟ مازالت الكلمات ترن في أذني، تغويني. ثم رأيت ثلاثة أحصنة غريبة مسرجة أمام بيتي، وكان أحدها بلجام فضي. وقد جلس في التراس ولد بدين في السادسة عشر، في حزامه خنجر ذهبي. لوح لي وضحك. كان أرسلان أغا، ولد من مدرستنا. والده يمتلك حقولاً غنية

بالبترو، ولم تكن صحة الولد على ما يرام، ولذا كثيرًا ما ذهب إلى منتجعات كِسْلوفودسك، تعرفت عليه بصعوبة، فقد كان أصغر مني بكثير. لكني هنا، وحيدًا بين الجبال، عانقته كأخ. احمر وجهه وقال في زهو: "كنت أمر بهذا الطريق مع خدمي، ففكرت في رؤيتك".

ربت بيدي على كتفه: "لتكن ضيفي يا أرسلان أغا. نحتفل الليلة على شرف بلدتنا". ثم ناديت بصوت عالٍ في الكوخ: "قاسي ملا، جهز وليمة. معي ضيف من باكو". بعد نصف ساعة كان أرسلان أغا يربع على الحصيرة، يتناول لحم الضأن المشوي والكيك، في سعادة مفرطة.

"أنا سعيد جدًا لرؤيتك يا علي خان. تعيش كبطل في تلك القرية النائية، مختبئًا من الشار. لا تقلق. لن أبوح بمكانك". لم أكن قلقًا، من الواضح أن أهل باكو جميعًا يعرفون مكاني.

"كيف عرفت مكاني؟"

"أخبرني سيد مصطفى. عرفت أن القرية في طريقي، فطلب مني أن أبلغك تحياته".

"وإلى أين أنت ذاهب يا أرسلان أغا؟"

"إلى كِسْلوفودسك. وهذان الخادمان ذاهبان معي". ابتسمت. بدا شديد البراءة: "أوه أخبرني يا أرسلان أغا، لماذا لم تذهب بالقطار مباشرة؟"

"حسنًا، أنا في حاجة إلى هواء الجبال. نزلت في ماكتش كليه وأخذت الطريق المباشر إلى كِسْلوفودسك". حشا فمه بالكيك ومضغ بسعادة.



"لكن الطريق المباشر إلى كِسْلوفودسك على مسيرة ثلاثة أيام من هنا".

بدا أرسالان أغا في دهشة شديدة: "حقاً؟ أعطوني معلومات خطأ. لكنني سعيد، على الأقل لأنني رأيته". كان من الواضح أن العفريت غير طريقه لهدف ما، ليلبغهم في البيت أنه رأي. بدا أن سمعتي حسنة في باكو. صبت له نبيذاً، شرب جرعات كبيرة. ثم اقترب أكثر: "هل قتلت أي شخص آخر منذ ذلك الوقت يا علي خان؟ أخبرني من فضلك، أقسم لن أبوح لأحد".

"أوه نعم، عشرات".

"هل قتلتهم حقاً؟" ابتهج، وواصل شرب النبيذ، وواصلت الصب. "هل ستتزوج نينو؟ إنهم يراهنون على ذلك في جميع أنحاء البلدة. يقول الناس إنك مازلت تحبها". ضحك بابتهاج وواصل الشرب: "تعرف، اندهشنا. ولم نتحدث في أي شيء آخر على مدى أسابيع وأسابيع".

"ألم تفعلوا؟ حسناً، ما أخبار باكو يا أرسالان أغا؟"

"أوه، في باكو - لا شيء. ثمة جريدة جديدة. العمال مضربون. المدرسون يقولون إنك كنت دائم الاندفاع. أخبرني - كيف جئت إلى الحياة؟"

"عزيزي أرسالان، صديقي العزيز، كفى أسئلة. جاء دوري. هل رأيته نينو؟ أو أي شخص من آل نشارارين؟ ماذا يقول آل كيباني؟"

كادت قطعة الكيك تقف في حلق الولد المسكين. "لكني لا أعرف شيئاً،

لا شيء على الإطلاق. لم أر أحداً. لا أخرج إلا بصعوبة".

"لماذا يا صديقي؟ هل أنت مريض؟"

"نعم، نعم. كنت مريضاً، مريضاً جداً. مصاباً بالدفتيريا. تخيل - ثلاث حقن شرجية يومياً".

"بسبب الدفتيريا؟"

"... نعم..".

"استمر، اشرب يا أرسلان أغا. إنه مفيد جداً لك".

شرب. ملت عليه وسألته: "صديقي العزيز، متى تقول الحقيقة؟"

نظر إليّ بعينين واسعتين بريئتين وقال بأمانة: "في المدرسة، وأنا لا أزال أعرف حاصل ضرب ثلاثة في ثلاثة". النبذ الحلو جعل الولد العزيز في حالة سكر تام. كان صغيراً، وقد وصل إلى مرحلة سيجيب فيها على أسئلتى ببعض الصدق. اعترف بأنه حضر بدافع الفضول، واعترف بأنه لم يصب بالدفتيريا في يوم من الأيام، وأنه يعرف كل ما يدور في باكو. قال بسعادة: "آل نشارارين سيقتلونك، لكنهم في انتظار الفرصة المناسبة. ليسوا في عجلة من أمرهم. ذهبت لرؤية آل كيبياني مرة أو اثنتين. اعتلت نينو فترة طويلة. ثم أخذوها إلى تفليس. وقد عادت. رأيته في ملعب الكرة. تعرف، كانت تشرب النبيذ وكأنه ماء، وتضحك طول الوقت. لا ترقص إلا مع الروس. طلب والداها أن تذهب إلى موسكو، لكنها رفضت. تخرج يومياً وكل الروس يحبونها. تقلد إلياس بج وساماً وجرح محمد حيدر. احترقت فيلا

نشارارين، وسمعت أن الحريق من تدبير أصدقائك. أوه نعم، شيء آخر. عند نينو كلب صغير تضربه يوميًا بلا رحمة. لا أحد يعرف بما تدعوه، البعض يقول علي خان، ويقول آخرون نشارارين. أظن أنها تدعوه سيد مصطفى. رأيت أباك أيضًا. يقول إنه سيقصر أذنيّ إذا لم أكف عن نقل الإشاعات. اشترى آل كيباني ضيعة في تَفليس. ربما يذهبون هناك إلى الأبد". كان كائنًا صغيرًا يثير الشفقة.

"أرسلان أغا، ماذا تصبح على هذه الأرض؟"

رد على نظرتي بنظرة ثملة: "أصبح ملكًا".

"ماذا ستكون؟"

"أريد أن أصبح ملكًا على بلد جميل به الكثير من الفرسان".

"وماذا أيضًا؟"

"أموت".

"لماذا؟"

"وأنا انتزع مملكتي".

ضحكت فتأذى كثيرًا: "احتجزوني ثلاثة أيام، بسبب ذلك الخنزير".

"في المدرسة؟"

"نعم، عليك أن تخمن السبب. لمجرد أني كتبت إلى الجريدة مرة أخرى

عن الأسلوب الوحشي الذي يعاملون به الأطفال. يا الله، أية جلبة حدثت من وراء ذلك".

"لكن يا أرسالن، لا يكتب شخص محترم إلى الجرائد".

"نعم إنهم يفعلون ذلك، وحين أعود سأكتب شيئاً عنك. بدون أن أذكر اسمك بالطبع. أنا صديقك، وأنا كتوم. أكتب شيئاً ما من قبيل: 'هارب من ثأر دموي - بائس في بلادنا'. أتى على بقية القينة، وسقط على الحصيرة ونام في الحال. دخل خادمه وجحدني بنظرة استهجان، وكأنه يقول: اخجل يا علي خان لأنك جعلت الولد الصغير يسكر إلى هذه الدرجة. خرجت في الليل. أي فأر صغير منحط ذلك المدعو أرسالن أغا. من المؤكد أن نصف الحكايات التي قصها مجرد أكاذيب. لماذا تضرب نينو كلبها؟ لا يعلم إلا الله بم تنادى الكلب!

سرت في شارع القرية وجلست على حافة الحقول. بتجهم جحدتني الصخور باحتقار، وكانت معتمة في ظلال القمر. هل تذكرت الماضي أم تذكرت أحلام الرجال؟ في الأعالي تألقت النجوم في السماء كأضواء باكو. آلاف من أشعة الضوء تنبعث من الكون - وتتلاقى في عيني. انتابني دوار وأنا أجلس متطلعاً إلى السماء على مدى ساعة أو أكثر. "ترقص مع الروس"، فكرت، وفجأة انتابني رغبة في العودة إلى البلدة، لانهي من هذا الليل الفظيع. سارت سحلية بجواري فأمسكت بها. دق القلب الصغير في يدي هلعاً حتى الموت. ربت على الجلد البارد. تطلعت عينان صغيرتان إليّ وقد تجمدتا خوفاً وربما حكمة. رفعت المخلوق الصغير إلى وجهي. كان

يبدو كحجر حي عتيق أثرت فيه عوامل التعرية وقد اكتسى بجلد جاف. "نينو"، قلت، وفكرت في الكلب، "نينو، أضربك؟ لكن كيف يضرب المرء سحلية؟" فجأة فتح الكائن الصغير فمه. اندفع لسان صغير حاد خارج الفم واختفى مرة أخرى في ثانية. ضحكت، كان اللسان صغيرًا جدًا وسريعًا جدًا. فتحت يدي، وفرت السحلية. لم يتبق إلا حجارة معتمة. نهضت وعدت إلى الكوخ. مازال أرسلان راقداً على الأرض مستغرقاً في النوم، ورأسه على ركبتَي الخادم الوفي. صعدت إلى السطح ودخنت الحشيش حتى سمعت صوت الآذان.



## 20

أنا نفسي لا أعرف كيف حدث هذا كله. ذات يوم استيقظت فوجدت نينو تقف أمامي. قالت، وجلست على حصيرتي: "صرت حاملاً يا علي خان، وماذا أيضاً، شخير، وهو سلوك سيئ".

قلت بتجهم: "الحشيش الذي أضعه على التبغ هو سبب الشخير".

هزت نينو رأسها: "كف عن تدخين الحشيش".

"لماذا تضربين الكلب، هل أنت تعيسة؟"

"الكلب، أوه، أسحبه من ذيله بيدي اليسرى، وأضربه على ظهره باليمنى حتى يعوي".

"وبم تنادينه؟"

قالت نينو برقة: "أنا ديه كليمنجارو". دعت عيني، وفجأة رأيت كل شيء أمامي واضحًا من جديد: نشارارين، حصان كاراباخ، طريقًا يسطع فيه ضوء القمر، ونيو على صهوة سيد. قفزت صارخًا: "نيو، كيف جئت إلى هنا؟"

"أخبر أرسلان أغا كل من في البلدة أنك تريد قتلي، فجئت". مالت علي بوجهها وعيناها مليئتان بالدموع: "علي خان، افتقدتك بشكل مرعب". غاصت يدي في ظلمة شعرها. قبلتها، فتحت شفيتها، وأسكرتني بدفئها. وضعتها على الحصيرة، وبقبضة واحدة مزقت الحرير الوردي الذي يغطيها. كان جلدنا ناعمًا وعطرًا. ربت عليها بحب، وتنفست بعمق، متطلعة إلى عيني، وثديها الصغير يرتجف في يدي. احتضنتها، تأوهت من شدة العناق. بدت ضلوعها تحت جلدنا رقيقة وهشة. وضعت وجهي على نهدا. قلتُ: "نيو". وبدأ أن لهذه الكلمة قوة سحرية، جعلت كل العالم الواقعي يختفي. لم يتبق إلا عينا جورجيتان نديتان تعكسان الخوف والمتعة والفضول والألم الحاد الفجائي. لم تصرخ، لكنها انتزعت الغطاء فجأة وزحفت تحت الريش الدافئ. دس وجهها في صدري، وكل حركة من جسمها النحيل تشبه نداء الأرض العطشى لوابل من المطر. توقف الزمن في سكون...

تمدنا في هدوء، مرهقين وسعيدين. ثم قالت نينو: "الآن أعود إلى البيت. وأرى أنك لن تقتلني رغم كل شيء".

"هل جئت بمفردك؟"



"لا، أحضرني سيد مصطفى. وقال إنه سيأخذني ويقتلني إذا أغضبتك". قبلتها بدل أن أدعوه.

"وهذا كل ما جئت من أجله؟"

ردت بصدق: "لا".

"أخبريني يا نيو".

"بم أخبرك؟"

"لماذا صمت في تلك الليلة وأنت جالسة على صهوة سيد؟"

"كان ذلك زهوًا".

"ولماذا أنت هنا الآن؟"

"وهذا زهو أيضًا".

"أخذت يدها ولعبت في أصابعها الوردية: "ونشارارين؟"

قالت ببطء: "نشارارين، لا تظن أنه خطفني رغم إرادتي. كنت أعرف ما أفعله، وظننته صحيحًا. لكنها غلطة. غلطتي، وأستحق الموت. لذا صمت، ولذا أنا هنا الآن. الآن تعرف كل شيء". قبلت كفها. قالت الحقيقة مع أن الآخريات والحقيقة خطر عليها. نهضت، تطلعت في الغرفة وقالت عابسة: "الآن أعود إلى البيت. ألا تريد الزواج مني. أذهب إلى موسكو". ذهبت إلى الباب وفتحته بما يكفي لرؤية صديقي المغضن الوجه يجلس في الخارج، إحدى رجله على الأخرى، وبندقية في يده. والحزام الأخضر

محكم على بطنه. قلت: "سيد، استدع الملا وكل الشهود الآخرين. سأزوج الآن".

قال سيد: "لن أستدعى أي ملا، سأكتفي باستدعاء شاهدين، وأزوجك بنفسي. أنا مخول بذلك".

أغلقت الباب. نينو تجلس منتصبه في السرير، وشعرها الأسود ينساب على كتفيها. ضحكت: "علي خان، هل تدرك ما تفعل؟ تتزوج امرأة ساقطة".

استلقيت معها، والتصق جسدا. سألت نينو: "هل تريد أن تتزوجني حقاً؟"

"إذا وافقت. تعرفين أنني طريد. يبحث الأعداء عني".

"أعرف. لكنهم لن يأتوا إلى هنا. سنبقى في مكاننا".

"نيو - هل تعين أنك ستبقين معي هنا؟ في هذه القرية الجبلية، في هذا الكوخ، بدون أي خدم؟"

قالت: "نعم، أريد البقاء هنا، لأنك يجب أن تبقى هنا. سأقوم بأعمال البيت، أخبز وأكون زوجة طيبة".

"ولن تسأمي؟"

قالت ببساطة: "لا، كيف أسأم - ونحن ننام معاً تحت غطاء واحد؟" طرق شخص على الباب. اندست نينو في ردائي. دخل سيد مصطفى وقد

أحكم وضع عمامته الخضراء، وأدخل الشاهدين. جلس على الأرض. أخرج من حزامه محبرة نحاسية وقلماً. على المحبرة نقش: "سبحان الله". فتح ورقة ووضعها على كفه اليسرى. غمس قلمًا من البامبو في الحبر. كتب بخط أنيق: "بسم الله الرحمن الرحيم". ثم اتجه لي: "ما اسمك أيها السيد؟"

"علي خان شرفنشير، ابن سفر خان من عائلة شرفنشير".

"ما دينك؟"

"مسلم شيعي على مذهب الإمام جعفر".

"ماذا تريد؟"

"أرغب في اتخاذ هذه المرأة زوجة".

"ما اسمك أيتها السيدة؟"

"الأميرة نينو كيباني".

"ما دينك؟"

"أرثوذكسية يونانية".

"ماذا تريد؟"

"أن أكون زوجة هذا الرجل".

"هل تريد البقاء على دينك أم التحول إلى دين زوجك؟"

ترددت نينو لحظة، ثم رفعت رأسها وقالت بزهو وتصميم: "أود البقاء على ديني". كان سيد مصطفى يكتب. والورقة تنزلق على كفه وقد امتلأت تدريجياً بخط عربي مزخرف بصورة جميلة. جهز عقد الزواج. قال سيد مصطفى: "وقعا". وقعت.

تساءلت نينو: "بأي اسم أوقع؟"  
"باسمك الجديد".

بيد واثقة كتبت: "نينو هانم شرفنشير". وقع الشاهدان. أخرج سيد مصطفى الختم الذي يحمل اسمه وختم الورقة. وكان بخط كوفي جميل: "حافظ سيد مصطفى مشدي، خادم رب العالمين". أعطاني الوثيقة، وعانقني وقال بالفارسية: "لست رجلاً طيباً يا علي خان. لكن أرسلان أغا أخبرني أنك بدون نينو ستنهار بين الجبال، وتصبح سكيراً. وهذا أثم. طلبت نينو أن أصحبها إلى هنا. حبها إذا كان ما تقوله حقيقياً. إذا لم يكن كذلك فسنقتلها غداً".

"لم يعد حقيقياً، يا سيد، ولن نقتلها، حتى لو كان غير حقيقي". نظر إليّ بارتباك. ثم تطلع إلى الغرفة وضحك. بعد ساعة ألقينا بايب الحشيش بشكل احتفالي إلى الهاوية. وهذا كل ما كان في عرسنا.

بصورة غير متوقعة تماماً صارت الحياة مدهشة مرة أخرى. ابتسمت القرية بالكامل وأنا أسير في الشارع، ورددت على الابتسامات، لأنني كنت سعيداً سعادة لم أعشها من قبل. وددت أن أقضي حياتي كلها هنا على السطح، وحيداً مع نينو ذات القدمين الضئيلتين، وهي ترتدي بنطلوناً داغستانياً

ناصر الحمرة تجتمع رجلاه عند الركبتين. تكيفت ببراعة. ما كان لأحد أن يظن أنها اعتادت على حياة أخرى تجعلها تفكر وتعمل بطريقة تختلف عن كل النساء الأخريات في الأول. لم يكن لدى أحد خدم في قريتنا، ورفضت نينو أن يكون لديها خدم. كانت تعد وجباتنا وتتحدث مع النساء وتخبرني بكل ما يدور في القرية من إشاعات. ركبت الحصان، واصطدت، وتناولت كل الأطباق الغريبة التي تفتقت عنها مخيلتها ورفضتها ذائقتها.

كان هذا يوماً في حياتنا: في الصباح الباكر رأيت نينو تجري حافية إلى النبع حاملة إبريقاً فخارياً فارغاً. ثم عادت، ووضعت كعبها الحافين بعناية على حجر حاد. حملت إبريق الماء على كتفها الأيمن، وبيدها النحيلتين قبضت على الإبريق. مرة واحدة فقط، في أيامها الأولى، تعثرت وسقط الإبريق. بكت بمرارة - كان الأمر مهيناً إلى هذه الدرجة. لكن الأخريات واسينها. كل يوم كانت نينو تجلب الماء مع كل نساء القرية. كن يصعدن الجبل في صف واحد، وكنت أستطيع عن بعد رؤية رجلي نينو حافيتين، وعينيها تتطلعان إلى الأمام بجدية. لم تنظر إليّ، وأنا أيضاً تجاوزتها بنظراتي. فهمت على الفور قانون الجبال: لا تفصح أبداً، تحت أي ظرف، عن حبك أمام الآخرين. دخلت الكوخ المظلم، أغلقت الباب ووضعت الإبريق على الأرض. قدمت لي كوباً من الماء، ومن أحد الأركان أحضرت خبزاً وجبناً وعسلاً. أكلنا بأيدينا، كما يأكل كل الناس في الأول. بسرعة أتنقت نينو الفن الصعب، فن التربع على الأرض. وحين انتهينا من تناول الطعام لحست نينو أصابعها، كاشفة عن أسنان بيضاء لامعة. وقالت: "العرف هنا يتطلب مني الآن أن أغسل قدميك. وحيث أننا وحدنا، وسأذهب إلى

النبع، فستغسل الآن قدميَّ". وضعت الدميتين الصغيرتين الجميلتين اللتين تدعوها قدميها في الماء، طرطشت في الماء فتطايرت القطرات على وجهي. جلسنا على السطح، أنا على الوسائد، ونيو عند قدميَّ، تترنم بأغنية أو تجلس صامتة، وتنظر إليّ؛ ولم أتعب أبدًا من النظر إلى وجه سيدي.

كل ليلة تجثم في الفراش كحيوان صغير. سألتني ذات ليلة: "هل أنت سعيد يا علي خان؟"

"سعيد جدًا. وأنت؟ ألا تريدان العودة إلى باكو؟"

قالت بجدية: "أوه لا، أريد أن أبين أنني أستطيع عمل كل ما تعمله الآسيويات: أخدم زوجي".

وحين تنطفئ لمبة الجاز ترقد محملقة في الظلام، تفكر في أمور مهمة: هل عليها حقًا وضع المزيد من الثوم على اللحم المشوي، وهل كان الشاعر رُستافلي على علاقة غرامية بالملكة تامار؟ وماذا تفعل، في هذه القرية، إن أصابها ألم الأسنان الرهيب فجأة؟ ولماذا أخذت المرأة في البيت المجاور يد المقشاة وضربت زوجها بكل هذه العنف؟ قالت بحزن: "الحياة مليئة بالألغاز"، وغرقت في النوم. استيقظت أثناء الليل، تحبط كوعي وتتمتم بزهو وغرور شديدين، "أنا نينو". واصلت النوم، غطيت كتفيها النحيلتين بالبطانية. فكرت: "نينو، أنت جديرة بحياة أفضل من الحياة في قرية داغستانية".

ذات يوم ذهبت إلى أقرب بلدة صغيرة، تدعى شُنْشَاش. عدت أحمل منتجات الحضارة: لمبة جاز، عودًا، جراموفون، ووشاحًا من الحرير. أضاء وجهها حين رأت الجراموفون. مما كان يدعو للشفقة أنني لم أعثر في شُنْشَاش

على أكثر من أسطوانتين: رقصة من رقصات أهل الجبل ولحن من عايده. أدرناهما وأدرناهما حتى لم نعد نستطيع الاستغناء عنهما. الأخبار التي تأتي من باكو قليلة وعلى فترات متباعدة. حين لم يكن والدا نينو يصبان علينا اللعنة كانا يتوسلان إلينا لنذهب إلى بلد أكثر تحضرًا. زارنا والد نينو مرة واحدة فقط. حين رأى الحياة التي تعيشها ابنته انفجر: "لأجل الرب، ابعدا عن هنا في الحال! ستسقط نينو ضحية المرض في هذا المكان الوحشي!"

قالت نينو: "لم أكن أبدًا أفضل مما أنا عليه. ألا تفهم يا أبي، لا يمكننا الابتعاد عن هنا. لا أريد أن أترمل".

"لكن هناك بلادًا محايدة، أسبانيا على سبيل المثال. لا يستطيع أحد من آل نشارارين أن يصل إليكما هناك".

"لكن يا أبي، كيف نصل إلى أسبانيا؟"

"عن طريق السويد".

قالت نينو بغضب: "لن أذهب إلى السويد. عاد الأمير إلى باكو وبدأ يرسل كل شهر فوطاً نسائية وكيكًا وكتبًا. احتفظت نينو بالكتب وتخلصت من الباقي. جاء والدي ذات يوم. استقبلته نينو بابتسامة حياء، ابتسامتها أيام المدرسة، حين كانت تواجه معادلة كثيرة الحدود. وحلت المعادلة بسرعة: "هل تطبخين؟"

"أطبخ".

"هل تجلين الماء؟"

"أجلبه."

"تعبت من طول الطريق. أتغسلين قدمي؟"

أحضرت الإبريق وغسلت قدميه.

قال: "شكرًا"، وأخرج من جيبه عقدًا طويلًا من أجود حبات اللؤلؤ ووضعته حول عنق نينو. تناول وجبة من إعدادها ونطق برأيه: "زوجتك طيبة يا علي خان، لكنها طباحة رديئة. سأرسل لك طباحة من باكو".

صرخت نينو: "من فضلك لا، أريد أن أخدم زوجي". ضحك وأرسل إليها قرطاً كبيراً من الماس.

كانت الأمور هادئة جداً في قريتنا. مرة واحدة فقط جاء قاسي ملا يعدو ومعه أخبار مهمة: تم القبض على غريب مسلح في ضواحي الأول، من الواضح أنه أرمني. هاجت القرية كلها، كنت ضيفهم. سيكون موتي وصمة أبدية في شرف كل واحد منهم. خرجت لألقي نظرة على الرجل. كان أرمنيًا حقًا. وبالطبع كان من المستحيل أن يعترف إن كان من آل نشارارين أم لا. عقد حكماء القرية اجتماعًا، تناولوا فيه الموضوع وقرروا ضربه علقه ساخنة وطرده من القرية. إن كان من آل نشارارين فسيحذر الآخرين، وإن لم يكن فإن الله مطلع على النية الحسنة للفلاحين وسيغفر لهم. في مكان ما كانت تدور رحى حرب عالمية. لم نسمع عنها شيئًا ولم نر منها شيئًا. امتلأت جبالنا بالأساطير وحكايات العفاريت من أيام شامل.



لم تصادفنا أخبار الحروب أبدًا. من وقت لآخر كان الأصدقاء يرسلون بعض الجرائد لكنني كنت أرميها قبل قراءتها. "هل تعتقد أن الحرب مازالت مستمرة؟" تساءلت نينو ذات يوم. ضحكت. "بصدق، يا نينو، نسيت كل ما يتعلق بها". لا يمكن أن أعيش حياة أفضل مما أعيش الآن حتى لو كانت مجرد مرحلة بين الماضي والمستقبل: هبة الله الطارئة لعلي خان شرّ فشير.

ثم جاءت رسالة. جاء بها إلى بيتنا شخص على حصان مجهد. لم تكن من أبي أو من سيد مصطفى. كتب عليها "من إرسال أغا إلى علي خان".

"ماذا يريد؟" تساءلت نينو باستغراب.

رد ذلك الشخص: "رسائل عديدة في الطريق إليك يا خان. أعطاني إرسال أغا مبلغًا كبيرًا يريد أن تكون رسالته هي الأولى".

"هذه نهاية الحياة في الأول"، فكرت وأنا أفتح الرسالة. قرأت: "بسم الله. تحياتي يا علي خان. كيف حالك وحال جياذك ونبذك ومنّ تعيش بينهم؟ أنا وجيادي ونبذي وأهلي بخير. اسمعني. جرت أمور عظيمة في بلدتنا. ترك المساجين السجن ويتجولون الآن أحرارًا. أسمعك تقول: "أين البوليس؟" اسمع - البوليس الآن مكان المساجين: في السجن قرب بحر. والجنود؟ لم يعد هناك جنود. أراك يا صديقي تهز رأسك في دهشة وتتساءل كيف يسمح الحاكم بهذا كله؟ أرد: أمس قرر حاكمنا الحكيم أن يهرب. تعب من حكم هؤلاء الفاسدين. خلف وراءه بنطلونات قديمة وشريط قبعة. تضحك الآن يا علي خان وتظن أنني أكذب. أسمعك تتساءل: 'لماذا لا يرسل القيصر قوة بوليس جديدة وحاكمًا جديدًا؟' أرد: لم يعد

هناك قيصّر. باختصار لم يعد هناك شيء. لا أعرف ماذا يسمى هذا كله، لكننا أمس ضربنا الناظر علقه ساخنة ولم يتدخل أحد. أنا صديقك يا علي خان، وأريد أن أكون أول من يخبرك بكل هذه الأحداث، حتى لو كتب كثيرون إليك اليوم. هذا ما يجري هنا: رحل آل نشارارين إلى وطنهم، ولم يعد هنا أي بوليس. السلام عليكم يا علي خان. أنا صديقك وخادمك أرسلان أغا".

تطلعت حولي. شحبت نينو تمامًا. قالت بصوت مرتجف: "علي خان، المسألة واضحة، سنذهب! سنذهب!"

بنشوة غريبة أخذت تردد هذه الكلمات مرة بعد أخرى. تعلق في عنقي متنهدة "سنذهب!" وقدمها الحافيتان تضربان الرمل في الفناء. "نعم. نينو، بالطبع سنذهب". كنت سعيدًا وحزينًا في الوقت ذاته. الصخور الجبلية الجرداء تلمع في روعة صفراء. أكواخ بسيطة معلقة على الهاوية وكأنها خلايا نحل، ومثذنة صغيرة، تدعو بصمت للصلاة والعبادة. وكان آخر أيامنا في الأول.

## 21

كشفت الوجوه في الزحام عن مزيج من الخوف والسعادة. انتشرت عبر الشوارع رايات قرمزية بشعارات جوفاء. اجتمعت نساء السوق في زوايا الشوارع مطالبات بالحرية لهنود أمريكا وبوشمين أفريقيا. انقلبت الأمور في الجبهة: اختفى الدوق الكبير وتسكع حشد من الجنود في البلدة في حالة رثة. انطلقت طلقات في الليل، وفي النهار نهبت الجموع المتاجر.

انحنى نينو على الأطلس. قالت وإصبعها يعبر الكثير من خطوط الحدود الملونة: "أبحث عن بلد يعيش في سلام". قلت مازحًا: "ربما موسكو أو بطرسبرج". هزت كتفها وغطى إصبعها على النرويج.

قلت: "أنا متأكد أنه بلد يعيش في سلام، لكن كيف نصل إلى هناك؟" تنهدت نينو: "لا نعرف، أمريكا؟"

قلت في مرج: "الغواصات".

"الهند، أسبانيا، الصين، اليابان؟"

"بعضها في حالة حرب والبعض الآخر لا نستطيع الوصول إليه".

"علي خان، نحن في مصيدة".

"أنت محقة تمامًا يا نينو، لا معنى للهروب. يجب أن نعرثر على طريقة للتعايش إلى حد ما مع ظروف بلدتنا، على الأقل حتى يأتي الأتراك".

قالت نينو بلهجة تأنيب: "ما معنى أن يكون الزوج بطلاً! لا أحب الرايات والشعارات والخطب. لو استمر هذا الوضع فسأنتقل إلى عمك في بلاد فارس".

قلت: "لن يستمر". وغادرت البيت. كنا بصدد الإعداد لاجتماع في مقر الجمعية الخيرية الإسلامية. لم يكن بين الحضور أحد من علية القوم الذين كانوا في بيت أبي منذ بضعة أشهر وكانوا معنيين بمستقبل شعبنا. ازدحمت الغرفة بشباب مفتول العضلات. قابلت إلياس بج عند الباب. عاد هو ومحمد حيدر من الجبهة. تحررا من القسم بتنازل القيصر عن العرش، عادا متوردين ومزهوين وقويين. أفادتتهما الحرب. كانا كمن ألقيا نظرة على عالم آخر وسيحملانها في قلوبهم إلى الأبد. قال إلياس بج: "علي خان، علينا أن نفعل شيئاً. العدو على أبواب المدينة".

"نعم، يجب أن ندافع عن أنفسنا".

صعد إلى المنصة وتكلم بصوت عالٍ وأمر: "لا، علينا أن نهاجم. أيها

المسلمون! سأوضح موقف بلدتنا من جديد. تمزقت الجبهة منذ بداية الثورة. يخيم هاربون روس من كل الأحزاب السياسية حول باكو، مسلحون في شوق للغنيمة. يوجد تنظيم إسلامي عسكري واحد في البلدة: نحن، متطوعي 'القسم البري'، أقل من الروس عددًا وعتادًا. التنظيم العسكري الثاني في بلدتنا هو الرابطة العسكرية للحزب القومي الأرمني دَشَنك توتون. يقوده ستِبا لالاي وأدرونيك، وقد اتصلوا بنا. إنها يشكلان جيشًا من الأرمن الذين يعيشون هنا، ويريدان أخذ هذا الجيش إلى كاراباخ وأرمينيا. وقد وافقنا على تكوين هذا الجيش وخروجه إلى أرمينيا. وهكذا سيقدم الأرمن، معنا، إنذارا للروس. نطالب بعدم مرور مزيد من الجنود والمهاجرين الروس عبر بلدتنا. إذا رفض الروس إنذارنا يمكننا، مع الأرمن، تحقيق هدفنا بالوسائل العسكرية. أيها المسلمون، التحقوا 'بالقسم البري'، اشهروا أسلحتكم. العدو على بابنا". استمعت إليه. فاحت رائحة الدم والحرب. تدرت لعدة أيام على البندقية الآلية في ساحة العرض. وحن موعد الاستفادة مما تعلمته. كان محمد حيدر يقف بجانبني، يلعب بخرطوش الطلقات. التفت إليه: "تعال إلى بيتي مع إلياس بج بعد الاجتماع. سيأتي سيد مصطفى أيضًا. نناقش الموضوع". هز رأسه وعدت إلى البيت.

جاء أصدقائي مسلحين، حتى سيد مصطفى وضع خنجرًا في حزامه الأخضر. أعدت نينو الشاي. أطبق علينا صمْتُ غريبٌ. كانت البلدة ليلة المعركة في حالة غير مألوفة وقد عمها الحزن. مازال الناس يسرون في الشوارع، يذهبون لقضاء أعمالهم أو يتمشون، لكن إلى حد ما بدا كل

ذلك وكأنه وهم أو شبح، كما لو كانوا يشعرون بأن الحياة كلها ستصبح عبثية عما قريب".

تساءل إلياس بج: "هل حصلت على أسلحة كافية؟"

"خمس بنادق، وثمانية مسدسات وبندقية آلية وذخيرة. وهناك قبو للنساء والأطفال".

رفعت نينو رأسها وقالت بحزم: "لن أذهب إلى القبو. أدافع عن وطني معكم". كان صوتها حادًا وحازمًا.

قال محمد حيدر بهدوء: "نينو، نطلق النار وتعالجين الجراح".

حنت نينو رأسها وهزت كتفيها. "أوه يا رب - تصبح شوارعنا ساحات حرب، ويكون المسرح مركز القيادة، ويكون من المستحيل عبور شارع نيقولاوي وكأن المرء ذاهب إلى الصين. علينا أن نغير سياستنا أو نهزم جيشًا ليسمح لنا بالذهاب إلى ليسيوم تامار المقدسة. أراكم زاحفين على بطونكم عبر حديقة الحاكم، مدججين بالسلاح، وستكون هناك بندقية آلية قرب البحيرة حيث اعتدت أن أقابل علي خان. نعيش في بلدة غريبة".

قال إلياس بج: "أنا متأكد من أنه لن يكون هناك قتال. سيقبل الروس إنذارنا".

ضحك محمد حيدر ضحكة مدوية. "نسيت أن أخبركم بأني قابلت أسد الله وأنا في طريقي إلى هنا. يقول إن الروس رفضوا الإنذار. يطلبون منا إلقاء السلاح. لن ينالوا مني".

قال إلياس بج: "إذن فهي الحرب، بالنسبة لنا ولحفائنا الأرمن".

كانت نينو تطل من الشباك في صمت. عدل سيد مصطفى عمامته، وقال: "الله، الله، لم أذهب إلى الجبهة، ولست بمهارة علي خان، لكنني أعرف الشريعة. من غير المستحب أن يعتمد المسلمون على ولاء الكفار في القتال. من غير المستحب أبدًا أن تعتمد على أحد. هذا ما تقوله الشريعة، وهذه هي الحياة. من قائد قوات الأرمن؟ ستبا لالاي! أعرفه. في 1905 قتل المسلمون أبويه. كيف يمكن أن ينسى ذلك؟ لا أعتقد أن الأرمن يمكن أن يجاربوا في صفنا ضد الروس على أية حال. من هؤلاء الروس؟ ليسوا سوى رعا، لصوص همج. قائدهم يدعى ستيفان شوميان، وهو أرمني أيضًا. الهمج الأرمن والقوميون الأرمن سيقمون بينهم صداقات أسرع بكثير من القوميين المسلمين والقوميين الأرمن. هذا هو لغز الدم. سيكون هناك صدع، وأنا على يقين من ذلك بقدر يقيني من أن القرآن يقول الحق دائمًا".

قالت نينو: "سيد، لا يوجد دم فقط، هناك أيضًا الحس العام. إذا انتصر الروس فلن يكونوا شديدي التعاطف مع ستبا لالاي وأندرونك".

قهقهه محمد حيدر، وقال: "معذرة أيها الأصدقاء، فكرت منذ لحظة في الطريقة التي نتعامل بها مع الأرمن إذا انتصرنا. إذا اجتاحت الأتراك أرمينيا، فمن المؤكد أننا لا يمكن أن نتخيل أننا ندافع عنها".

اهتاج إلياس بج: "ليست هذه طريقة للكلام أو التفكير. ستحل مسألة الأرمن ببساطة شديدة: كتائب لالاي تنزح إلى أرمينيا ومعهم عائلاتهم. بعد عام لن يترك أرمني واحد في باكو. يكون لهم وطنهم ويكون وطننا لنا. نكون شعبين متجاورين".

قلت: "إلياس بج، سيد محق. تنسى لغز الدم. المسلمون قتلوا والديّ لالاي، وسيكون وغداً إذا نسى واجبه نحوهما".

"أو سياسياً، يا علي خان، الذي يستطيع التحكم في نداء القرابة لينقذ شعبه من نزيف مميت. إذا كان ماهراً فسيكون في صفنا، لمصلحته ومصلحة شعبه". تشاجرنا حتى الفجر. ثم قالت نينو: "سواء كنتم سياسيين أو مجرد رجال، أمل أن تكونوا هنا مرة أخرى خلال أسبوع آمين وأصحاء. لأنه لو كان هناك قتال في البلدة..". وصمتت فجأة.

في الليل تمددت بجواري، ولم تنم. كانت شفتاها مشققتين ونديتين. حدقت في النافذة في صمت. عانقتها. التفتت إليّ وسألت: "هل أنت ذاهب للقتال يا علي خان؟"

"بالطبع يا نينو".

قالت: "نعم، بالطبع". فجأة أخذت وجهي بين يديها وضغطته على صدرها. قبلتني في صمت وعيناها مفتوحتان. سيطرت عليها عاطفة وحشية. عصرت جسمها في جسمي مفعمة بالشهوة والخضوع والخوف من الموت. بدا وجهها وكأنها في عالم آخر، عالم عليها أن تمضي إليه وحدها. تراجعت فجأة، وهي تقرب رأسي من عينيها وتقول برقة شديدة بحيث كان من الصعب أن أسمعها: "سأسمي الولد علي". صمتت مرة أخرى، وتحولت عيناها الغامضتين إلى النافذة. ترتفع المئذنة القديمة، نحيلة وأنيقة، في ضوء القمر الشاحب. العتمة والتهديد جثما على ظلال جدار الحصن القديم، أتى عن بعد صوت طرق حديد على حديد؛ شخص ما يسن خنجره، بدا الصوت



وكأنه وعد. ثم رن جرس التليفون. نهضت متعثرًا في الظلمة. جاء صوت إلياس بج عبر الساعة: "انضم الأرمين إلى الروس. وطلبوا من المسلمين إلقاء السلاح قبل الساعة الثالثة بعد ظهر الغد. نرفض بالطبع. ستكون بالبندقية الآلية عند الجدار، على يسار بوابة زيزياناشفيلي. سأرسل إليك ثلاثين رجلًا آخر. جهز كل شيء للدفاع عن البوابة". وضعت الساعة. كانت نينو تجلس منتصبه في السرير تحديقًا. أخذت خنجري وحاولت أن أسنّه.

"ماذا هناك يا علي؟"

"العدو على البوابة يا نينو". ارتديت ملابسي واستدعيت الخدم. جاءوا، كانوا عريضي الأكتاف، أقوياء وأفظاظًا. أعطيت بندقية لكل واحد منهم، ونزلت إلى أبي. كان واقفًا أمام المرأة وأحد الخدم ينظف معطفه الشرکسي بالفرشاة.

"أين مكانك يا علي خان؟"

"عند بوابة زيزياناشفيلي".

"رائع، وأنا في ردهة الجمعية الخيرية، على المدرج". كان سيفه يبرق، سوى شارب به بأصابعه. "كن شجاعًا يا علي. يجب ألا يسيطر العدو على الجدار. إذا وصلوا إلى الميدان خارج الجدار استخدم بندقيتك الآلية. أسد الله سيزحف في الحقول من القرى، وسيهاجمون الأعداء من آخر شارع نيقولاي". وضع مسدسه في الجراب وعينه تنهات عن الإجهاد. "آخر قارب يبحر إلى بلاد فارس في الثامنة. يجب التأكد من ذهاب نينو. إذا انتصر الروس فسيغتنصبون النساء كلهن".

عدت إلى غرفتي. نينو تتحدث في التلفون. سمعتها تقول: "لا، ماما، سأبقى هنا. تعرفين، لا يوجد خطر حقيقي. شكرًا بابا، لا تقلق، عندنا كمية كافية من الطعام. لن آتي، لن آتي!" رفعت صوتها في الكلمة الأخيرة، صرخت. تركت السماعه. قلت: "أنت محقة يا نينو، لن تكوني في أمان في بيت أبويك. في الثامنة آخر قارب يرحل إلى بلاد فارس. احزمي أمتعتك".

امتنع لونها بعمق: "هل تبعدي يا علي خان؟"

لم أرها أبدًا ممتعة إلى هذه الدرجة. "تكونين آمنة في طهران يا نينو. إذا انتصر الأعداء فسيغتصبون النساء كلهن".

رفعت رأسها وقالت بتحد: "لن يغتصبوني يا علي خان- ليس أنا. لا تقلق".

"اذهبي إلى بلاد فارس، نينو، من فضلك! مازال هناك وقت".

قالت بحدة: "كفى. علي، أنا في خوف فظيع من العدو ومن المعركة ومن كل الفظائع التي ستحدث. لكني سأبقى هنا. لا أستطيع مساعدتك، لكنني انتمي إليك. يجب أن أبقى هنا، هذا كل ما في الأمر". وقد كان. قبلت عينيها وشعرت بزهوٍ شديد. كانت زوجة طيبة حتى وهي تتحداني. غادرت البيت. بزغ الفجر. الهواء مغبر. تسلقت الجدار. ربض الخدم خلف الفتحات الصخرية واستعدوا بالبنادق. إلياس بج وثلاثون رجلًا يراقبون ميدان دوما الخالي. كانوا هناك، بشواربهم السوداء ووجوههم البنية، مرعبين وصامتين وثابتين. بدت البندقية الآلية بفوهتها الصغيرة وكأنها أنف روسي، أفطس وعريض. كل شيء كان هادئًا من حولنا. من وقت لآخر يتبادل

العسس المجيء حول الجدار يعدون في صمت، ومعهم رسائل قصيرة. في موضع ما كان رجال مسنون وقساوسة لا يزالون يحاولون التفاوض لتحقيق معجزة التصالح في الدقيقة الأخيرة.

أشرق الشمس وتدفقت الحرارة من السماء المتوهجة لتغرق في الصخور. تطلعت إلى بيتي. نينو مازالت واقفة على السطح تتطلع بوجهها إلى الشمس. في منتصف النهار جاءت إلى الجدار، ومعها طعام وشراب. تطلعت إلى البندقية الآلية بفضول مخيف، ثم جثمت في الظل صامتة حتى طلبت منها أن تذهب إلى البيت. كانت الساعة الواحدة. من المئذنة أذن سيد مصطفى للصلاة في حزن وجلال. ثم التحق بنا، وهو يجرب بندقية وراءه بصورة خرقاء. وضع المصحف في حزامه. تطلعت عبر ميدان دوما، خارج الجدار. يسرع بعض الناس عبر الغبار، منحنين في قلق، وكأنهم خائفون من هجمة وشيكة. جرت امرأة منقبة صارخة وراء أطفالها الذين يلعبون وسط الميدان. واحد، اثنان، ثلاثة. رنت أجراس صالة البلدة، محطة الصمت. وفي اللحظة ذاتها، وكأن هذه الأجراس فتحت بمعجزة باب عالم آخر، سمعنا الطلقات الأولى من ضواحي البلدة.



## 22

لم يسطع القمر في تلك الليلة. انزلق القارب الشراعي بهدوء على المياه الراكدة في بحر قزوين. من وقت لآخر أصبتنا قطرات من الزبد مرة ومالحة. كجناحي طائر ضخيم كان الشراع الأسود مشرعاً فوقنا. استلقيت على ألواح القارب المبللة، الملفوفة بجلد الأغنام. يتطلع النوتي، تكين، بوجهه الأرمرد إلى النجوم. رفعت رأسي، لمست يدي ثوباً مجمداً. تساءلت: "سيد مصطفى؟" مال عليّ بوجهه الممتلئ بالندوب. حبات مسبحة الحمراء تنزلق بين أصابعه... وكأن يده، وقد اعتنت بها عناية شديدة، تلعب بقطرات من الدم. وقال: "أنا هنا يا علي خان، ارقد بهدوء. رأيت الدموع في عينيه، انتصب. قلت: مات محمد حيدر، رأيت جثمانه في شارع نيقولاي. قطعوا أنفه وأذنيه".

اتجه سيد إليّ: "جاء الروس من بيلوف وحاصروا المنتزه. أقصيتهم وهم عن ميدان دوما".

تذكرت: "نعم؟ جاء أسد الله وأصدر أمراً بالهجوم. وكنت تتلو سورة يس".

"وأنت - شربت دم الأعداء. هل تعرف من وقف عند زاوية أشوم؟ كل عائلة نشارارين، أُبيدوا".

كررت: "أُبيدوا. كان معي ثماني بنادق آلية على سطح بيت أشوم. سيطرنا على الحي كله".

حك سيد مصطفى جبهته. بدا وجهه وكأنه مغطى بالرماد: "استمرت الشرثرة طوال اليوم. البعض قال إنك مت. سمعت نينو ذلك ولم تتفوه بكلمة. جلست في غرفتها صامتة. قعقت البنادق الآلية. فجأة غطت وجهها بيديها وصرخت: "توقف! توقف! توقف!" وقعقت البنادق الآلية. ثم نفدت الذخيرة، والعدو لا يعلم، ظن أنها خدعة. مات موسى ناجي أيضاً. شنته لالاي". لم يكن هناك ما أقوله. حلق التكين من صحراء الرمال الحمراء في السماء. رفر في الهواء قفطانة الحريري كثير الألوان. قال سيد: "سمعت بوقوع مناوشة معك عند بوابة زيزياناشفيلي. هل هذا صحيح؟ كنت في الناحية الأخرى من الجدار".

"نعم. كانت هناك سترة جلدية سوداء. غرست فيها خنجري فاحمّرت. ماتت عائشة ابنة عمي أيضاً". البحر كالمرآة، فاحت رائحة القطران من القارب. لم يكن له اسم وكان يبحر بجوار شاطئ لا اسم له، شاطئ في صحراء الرمال الحمراء. قال سيد مصطفى برقة: "لبسنا، نحن رجال المسجد، أكفاننا. سحبنا خناجرنا وانقضضنا على العدو. مات معظمنا.

لكن الله نجاني. إلياس أيضًا عاش، وهو مختبئ في البلاد. كيف اغتصبوا بيتك! لم يتركوا سجادة أو قطعة من الأثاث أو إناء فخاري. تركوا الحوائط الجرداء". أغلقت عيني. اعتصرني الألم. رأيت العربات مكتظة بالجنث، ونينو تحمل صرة في الظلام، على شاطئ يبيي إبيات المشبع بالبترول. ثم ركبنا القارب مع رجل من الصحراء. كانت أنوار برج جزيرة تَرْجِين تتساقط. اختفت البلدة في الظلام. وبدت منصات البترول السوداء وكأنها حراس سجن متجهمون. استلقيت هناك ملتفًا في جلد الماعز، أعاني من ألم ممض في صدري. نهضت. كانت نينو مستلقية في ظلال قطعة صغيرة من نسيج الشراع. وجهها هزيل وشاحب جدًا. أخذت يدها الباردة وشعرت بأصابعها ترتجف قليلًا. كان أبي يجلس خلفنا بجوار النوق. سمعت جملة من هنا وجملة من هناك: "... تعتقد حقًا أن المرء في واحة تَشْرُجوي يستطيع تغيير لون عينيه كيفما شاء؟"

"نعم يا خان. لا يوجد في العالم سوى مكان واحد يمكن للمرء أن يفعل فيه ذلك - واحة تشرجوي. تنبأ رجل مبارك..".

قلت: "نينو، يتحدث أبي عن معجزات واحة تشرجوي. تلك هي الطريقة المناسبة للحياة في هذا العالم".

قالت نينو: "لا أستطيع، لا أستطيع يا علي خان، كان رماد الشارع مصبوغًا بالدم". غطت وجهها يديها وبكت في صمت. ارتجف كتفها... جلست جوارها، أفكر في ميدان دوما خارج الجدار، وفي محمد حيدر، يرقد ميتًا في شارع نيقولاوي - الذي سار فيه كل تلك السنوات في الطريق

إلى المدرسة - وفي السترة الجلدية السوداء التي احمرت فجأة. من المؤلم أن أبقى حياً. بدا صوت أبي كأنه قادم من بعيد: "هل هناك أفاع في جزيرة تشلكين؟"

"نعم، يا خان، ثعابين سامة بالغة الطول... لكن لم ترها عين إنسان. فقط رجل مبارك من واحة ماري قال ذات مرة..". لم أعد أحتمل أكثر من ذلك. صعدت إلى عجلة القيادة وقلت: "ماتت آسيا، مات أصدقائنا، ونحن منفيون. نزل علينا غضب الله، وأنت تتحدث عن الأفاعي في جزيرة تشلكين". كان وجه أبي هادئاً. مال على الساري الصغير ونظر إليّ طويلاً: "آسيا لم تمت. تغيرت حدودها فقط، تغيرت إلى الأبد. باكو الآن أوروبية. الأمر ليس صدفة. لم يعد هناك آسيويون في باكو".

"أبي، ثلاثة أيام وأنا أدافع عن آسيا بالبندقية الآلية والحرية والخنجر". "أنت رجل شجاع يا علي خان. لكن ما الشجاعة؟ الأوروبيون شجعان أيضاً. أنت وكل من قاتلوا معك لم تعودوا آسيويين. لا أكره أوروبا. لا أبالي بها. تكرهها، لأن فيك شيئاً أوروبياً. دخلت مدرسة روسية، تعلمت اللاتينية، تزوجت أوروبية. كيف تبقى آسيوياً؟ لو انتصرت، أنت نفسك كنت ستدخل أوروبا في باكو، حتى دون أن تدرك ذلك أو تسعى إليه. لا يهم إذا بنينا نحن المصانع الجديدة والطرق السريعة أو بناها الروس. الأمور لا تبقى على حال. كون المرء آسيوياً طيباً لا يعني قتل الكثير من الأعداء، أو الرغبة الوحشية في الدماء".

"إذن من الآسيوي الطيب؟"



"أنت نصف أوروبي يا علي خان، لهذا تطرح هذا السؤال. لا أستطيع شرح الأمر لك، لأنك لا ترى إلا الأشياء الواضحة في الحياة. تتجه إلى الأرض، لذا تؤلمك الهزيمة، ولذا تراها". صمت أبي، وبدت عيناه منسحبتين. كان يعرف أكثر من عالم الواقع: كان، شأنه شأن كل المسنين في باكو وفي بلاد فارس، على دراية بعالم آخر، يستطيع أن ينسحب إليه، حيث لا يمكن أن يُهاجم. كان شعوري مبهمًا تجاه هذا العالم من السلام الأخرى، حيث يمكن للمرء أن يدفن الأصدقاء، ويتحدث مع النوتي عن معجزات جزيرة تشرجوي. طرقت باب هذا العالم، ولم يسمح لي بالدخول. انغمست في واقعنا المؤلم. لم أعد آسيويًا. لم يلمني أحد على ذلك، وبدأ أن الجميع يعرفونه. اشتقت أن أكون في وطني مرة أخرى، في عالم الحلم الآسيوي، لكنني صرت غريبًا. وقفت وحيدًا في القارب، أتطلع إلى المرأة السوداء، إلى البحر. مات محمد حيدر، ماتت عائشة، دمر بيتنا. أبحر في قارب صغير إلى أرض الشاه، إلى الهدوء العظيم في بلاد فارس. فجأة وقفت نينو بجانبني. قالت: "بلاد فارس، ماذا نفعل هناك؟"

"نستريح".

"نعم، نستريح - أريد أن أنام، يا علي خان، شهرًا أو عامًا. أريد أن أنام في حديقة زاخرة بالأشجار الخضراء. على ألا يكون هناك إطلاق نار".

"أنتِ ذاهبة إلى البلد المناسب. بلاد فارس نائمة منذ ألف سنة، وإطلاق النار هناك ليس كثيرًا". مضينا إلى ظهر القارب. نامت نينو

في الحال. استلقت يقطاً لمدة طويلة، أطلع إلى خيال سيد، وقطرات من الدم تسيل من أصابعه. كان يصلي. عرف العالم الخفي، العالم الذي يبدأ حيث ينتهي الواقع. كانت الشمس مشرقة، وبلاد فارس خلفها. كنا نستطيع شم نسيمها ونحن نأكل السمك ونشرب الماء، جاثمين على ألواح القارب. كان التكين الوحشي يتحدث إلى أبي، متطلعاً إليّ في لا مبالة، وكأني مجرد شيء.

في مساء اليوم الرابع رأينا في الأفق شريطاً أصفر. بدا كغيمة، لكنه كان بلاد فارس. اتسع الشريط. رأيت أكواخاً من الطمي ومراسي بائسة. تلك هي مدينة إنسلي - ميناء الشاه. ألقينا الهلب على دعامة خشبية بالية. استقبلنا رجل في معطف صباحي. كان الأسد الفضي يبرق على قبعته العالية المصنوعة من جلد الماعز، رفع قدمه، ومن خلفه كانت الشمس المشرقة. تجول اثنان من رجال الشرطة البحرية خلف الموظف، حافيين غاضبين. تطلع إلينا بعيون كبيرة مستديرة وقال: "أستقبلكم كما يستقبل طفل أولي أشعة الشمس يوم مولده. هل معكم وثائق؟" قال أبي: "نحن من آل شرفشير".

"هل أسد الدولة شرفشير، الذي تفتح له بوابة الشاه الماسية، محظوظ ليحمل دماءكم في عروقه؟"

"إنه أخي". نزلنا من القارب. اصطحبنا الرجل، وحين وصلنا إلى المستودع قال: "أسد الدولة توقع مجيئكم، وأرسل آلة أقوى من الأسد، وأسرع من حصان لم يروض، وأجمل من النسر، وآمن من قلعة على

صخرة". تحولنا إلى ركن. في الشارع تقف عربة فورد قديمة واهية تلهث. الإطارات ملحومة في عدة مواضع. ركبتها وبدأ الموتور يرتج. كانت عينا السائق زائغة وكأنه قبطان سفينة في المحيط. لم يستغرق الأمر سوى نصف ساعة لتنطلق السيارة، وبدأنا رحلتنا إلى طهران عن طريق رشت.



## 23

إنسلي -رِشت- صهد هواء الصحراء يلفح الشوارع والقرى. من وقت لآخر يظهر في الأفق أبو يزيد، شيطان الماء، فتى مرجان الفارسي. يحملنا الطريق الرئيسي إلى رِشت بموازة مجرى نهر ممتلىء بالوحل، لم يعد نهراً. ليس هناك ماء جار في أنهار بلاد فارس، مجرد برك ومستنقعات هنا وهناك. تنتصب صخور على الشواطئ الجافة، تلقى بظلالها على الرمال، وتبدو كعمالقة من عصور ما قبل التاريخ ببطون هائلة، تنام هادئة. يأتي من بعيد صوت أجراس قافلة من الإبل. تخفف عربتنا من سرعتها، فنرى إبلًا تسير بموازة سلسلة الجبال الشاهقة. القائد يسير في المقدمة، وفي يده عصا، يتبعه رجال في ثياب سود. تسير الإبل قوية وثابتة. الأجراس في أعناقها ترن ببطء مع كل خطوة من الخطى الدقيقة. تتدلى أكياس طويلة غامقة من على ظهور الإبل في الجانبين. هل تحمل حريراً من أصفهان؟ أم صوفاً من

جِليان؟ تتوقف العربية، جثث معلقة. مئة جثة أو مائتان ملفوفة في ملاءات سود. تمر بنا الإبل، تهتز رؤوسها كسيقان في حقل الذرة تدفعها الرياح، عبر الصحراء والجبال، عبر الزخرفة البيضاء لسهل الملح، عبر كثير من الواحات الخضراء، مرورًا ببحيرات هائلة، تحمل القافلة حمولتها. بعيدًا، على الحدود التركية، تنيخ الجمال. ينخس موظفون، بطرايش حمراء، الجثث، وتتحرك القافلة من جديد إلى قباب بلدة كربلاء المقدسة. يتوقفون بالقرب من مدفن الشهيد الحسين. تحمل أيد ماهرة الجثث إلى قبور معدة لها، حيث تستريح في رمال كربلاء حتى توقفهم الصيحة الأخيرة من نومهم. انحنيا عليهم، وأيدينا تغطي عيوننا: "ادعوا لنا عند قبر الشهيد!" نصرخ، يرد قائدهم: "نحن أنفسنا في حاجة للدعاء!" تواصل القافلة سيرها في صمت، كظل، كأبي يزيد، فتى مرجان الصحراء الهائلة...

ننطلق في شوارع رشت. تغطي الغابات والوحل الأفق. هنا يمكن للمرء أن يشعر بقرون طويلة انقضت منذ تأسيس البلدة. تحتشد بيوت الطين في أزقة ضيقة، وكأنها تخشى الاتساع. لا ألوان سوى لون الطين والفحم المتوهج. كل الأشياء ضئيلة، ربما تشير بصورة رمزية للقدر. من المدهش أن ترى مسجدًا يرتفع فجأة بين كل هذه الأكواخ المنكمشة. يضع الرجال على رؤوسهم الحليقة طواقي مدورة، تبدو كنبات اليقطين، وتبدو وجوههم كالأقنعة. الرماد والقذارة في كل مكان. ولا يعود ذلك إلى أن الفرس يحبون الرماد والقذارة، إنهم فقط يتركون الأشياء كما هي لأنهم يعرفون أن كل الأشياء تتحول في النهاية إلى رماد. استرحنا في مقهى بسيط.

تفوح في الغرفة رائحة الحشيش. ينظر الرجال إلى نينو بأطراف عيونهم. يقف درويش في ركن، يلتف في أسمال، فمه مفتوح، يغطي اللعاب شفثيه، وفي يده إناء من النحاس. يتطلع إلى الجميع ولا يرى أحداً، كأنه ينصت لوجود غير محسوس، كأنه ينتظر إشارة من الغيب. يشع صمتاً لا يحتمل. فجأة يقفز، بفم مفتوح يصرخ: "أرى الشمس تشرق من الغرب!" يرتعد الجمهور. يظهر أحد رسل الحاكم عند الباب. "أمر سيادته بحارس بسبب المرأة العارية". يعني نينو، التي لا تلبس النقاب. تبقى نينو هادئة فهي لا تعرف الفارسية. نقضي الليل في بيت الحاكم. في الصباح يسرج حراسنا جيادهم. يصحبوننا طوال الطريق إلى طهران، لأن نينو ترفض ارتداء النقاب، وتعتبر عارية، وأيضاً لأن قطاع الطرق يطوفون بالبلاد. ببطء، ببطء تزحف السيارة عبر الصحراء. نمر بكسفين بأطلالها القديمة. هنا حشد الشاه شهبور جيوشه. هنا تقاضى السيفيد الضعفاء والفنانون وحماة الفنانين والإصلاحيون.

ثمانون ميلاً أخرى، سبعون، ستون - الطريق يلتف كحية طويلة. تظهر بوابة طهران، بقرميدها الرقيق متعدد الألوان. بقوة تنتصب أربعة أبراج مقابل جليد ديمافند البعيدة. يحدق المدخل العربي الأسود، والحكم المنقوشة عليه، في كعين عفريت. يستلقى المتسولون في التراب تحت البوابة الكبيرة. تمتد لنا أيديهم ذوات الأصابع الأرستقراطية النحيلة. يغنون لعظمة طهران الملكية، بأصوات آسية حزينة. منذ زمن طويل جاءوا أيضاً بآمال عريضة إلى البلدة ذات القباب الكثيرة. الآن يستلقون مغبرين في التراب، يغنون أغاني حزينة لهذه البلدة التي لفظتهم. تشق السيارة الصغيرة طريقها في

ربكة الأزقة، عبر ميدان المدفع، مرورًا ببوابة الإمبراطورية الماسية، وتخرج مرة أخرى، إلى الطريق الواسعة، إلى ضواحي شمران. انتصبت بوابة قصر شمران مفتوحة على مصراعيها، ونحن نمر بها فاح عطر الورود باتجاهنا كأنه غيمة. بدت ألواح القرميد على الجدران باردة وودودة. بسرعة سرنا عبر الحديقة، حيث تضخ نافورة ماء بلون الفضة في الهواء. كانت الغرفة المعتمدة بستائر نوافذها كئيب بارد. سقطنا أنا ونيو على الوسائد الناعمة ورحنا في سبات عميق.

نمنا، استيقظنا، هجعنا، حلمنا، واصلنا النوم. كان وجودنا في هذه الغرفة الباردة بنوافذها وستائرهما أمرًا مدهشًا. الأرضية والأرائك المنخفضة مغطاة بأعداد لا تحصى من الوسائد والحصى والحشايا. في أحلامنا تغني العنادل. كان الاستغراق في النوم في هذا البيت الكبير الهادئ، بعيدًا عن كل الأخطار، بعيدًا عن جدار باكوا المتداعي، أمرًا غريبًا. مضت الساعات في هدوء. من وقت لآخر تتهدد نينو وتنهض نعسانة وتضع مؤخرة رأسها على بطني. ألقيت وجهي بين الوسائد الناعمة، التي تفوح منها رائحة عطر الحريم الفارسي. شعرت بكسل لا متناه. عانيت ساعات بسبب حكة في أنفي، وتراخيت لدرجة لا تجعلني أرفع يدي لأهرشه. في النهاية توقف الحك وغرقت في النوم من جديد. استيقظت نينو فجأة، نهضت قائلة: "علي خان، أموت من الجوع". خرجنا إلى الحديقة. تفتحت الورود حول النافورة، وارتفعت أشجار السرو في السماء. وقف طاووس، بذيله الدائري متعدد الألوان، بلا حراك، متطلعًا إلى شروق الشمس. من بعيد ارتفعت قمة ديمافند أمام الأحمر والذهبي. صفقت، اندفع نحونا مخفي



منتفخ الوجه، ومن خلفه امرأة عجوز، تتعثر تحت حمل من السجاجيد والوسائد. جلسنا في ظل شجر سرو. أحضر المخصي آنية وماء وغطى السجاجيد بأطعمة من أشهى المأكولات الفارسية. قالت نينو: "حسنًا - الأكل بالأصابع أفضل من الاستماع إلى صوت البنادق الآلية"، وضعت يسراها في إناء أرز يتصاعد منه البخار. علت علامات الرعب وجه المخصي - تطلع بعيدًا، حتى لا يرى عار سيده. وضحت لنينو طريقة أكل الأرز في بلاد فارس: باستخدام ثلاثة من أصابع يدها اليمنى. ضحكت للمرة الأولى منذ غادرنا باكو، وشعرت بسكينة وهدوء. اندهشت لوجودي في قصر شمران، في سلام أرض الشاه، أرض الشعراء والحكماء المخلصين. فجأة تساءلت نينو: "أين أسد الدولة، وحريره؟"

"في قصر المدينة، على ما أعتقد، مع زوجاته الأربع. والحرير؟ هذا هو الحرير، هذه الحديقة، والغرف التي حولها."

ضحكت نينو: "هكذا سجنتم في حرير رغم كل شيء. هذا ما اعتقدته". جاء مخصي آخر، عجوز نحيف، يسألني إن كنا نحب أن يغني لنا. رفضنا. لفت ثلاث فتيات السجاجيد، حملت العجوز ما تبقى، وبدأ ولد صغير في إطعام الطاووس.

"علي خان، من هؤلاء الناس؟"

"خدم".

"يا إلهي، كم عدد الخدم هنا إذن؟" لم أكن أعرف فناديت المخصي.

استغرق وقتاً طويلاً في التفكير وشفته تتحركان في صمت. حوالى ثمانية وعشرين شخصاً يرعون الحريم.

"وكم امرأة تعيش هنا؟"

"بقدر ما تأمر يا خان. في الوقت الحالي لا توجد إلا من تجلس بجانبك. لكن لدينا غرف كثيرة. أسد الدولة في البلدة مع نسائه. هذا هو حريمك الخاص". جلس على مقعده وواصل بأدب شديد: "اسمي يحيى كولي. أنا حارس سعادتك يا خان. أعرف القراءة والكتابة والحساب. أعرف كل شيء عن طريقة التصرف مع النساء. يمكنك الاعتماد عليّ. أعرف أن هذه وحشية، بمرور الوقت سأعلمها السلوك القويم. أخبرني عن موعد دوراتها الشهرية لأدونه وأذكره، أعرفه لأحكم على حالاتها المزاجية. أنا على يقين من أنها قد تكون معتلة المزاج. سأحییها وأزيل شعرها بنفسي. أرى أنها لم تزل شعر إبطها. إن إهمال تعليم النساء في بعض البلاد مفرع. غداً سأصبغ أظافرها بالأحمر، وأفحص فمها قبل أن تذهب للنوم".

"يا الله، لماذا؟"

"تسوس الأسنان يجعل رائحة أنفاس النساء كريهة، وعليّ أن أرى أسنانها وأشم نفسها".

تساءلت نينو: "عم يثرثر هذا المخلوق؟"

"ينصح بطبيب أسنان. يبدو شخصية غريبة". بدا ذلك مربكاً. قلت للمخصي: "يحيى كولي، أرى أنك رجل مجرب، يعرف كل شيء

عن الثقافة. لكن زوجتي حامل، ويجب التعامل معها بحرص شديد. وسنؤجل التعليم حتى تضع طفلها". خجلت. كانت نينو حاملاً حقاً، إلا أنني كذبت. قال المخصي: "أنت حكيم جداً يا خان، الحوامل يتعلمن ببطء شديد. بالمناسبة، يوجد دواء يجعله ولدًا. لكن -" نظر إلى نينو متأملاً نحافتها - "أعتقد أن الوقت مازال مبكراً".

في الخارج، في الفراندة، كان هناك صوت جر شباشب كثيرة. أتى الخصيان والنساء بإشارات سحرية. خرج يحيى كولي وعاد، ووجه يحمل ثنايا الجدية. "خان، العلامة المبجل حافظ سيد مصطفى يريد مقابلتك. لم أجرؤ أن أزعجك يا خان، وأنت تستمتع بلذة حريمك، لكن السيد رجل متعلم من نسل النبي. ينتظرك في جناح السيد". عند كلمة "سيد" رفعت نينو رأسها. رددت: "سيد مصطفى؟ ليدخل، نتناول الشاي سوياً". نجت سمعة بيت شرفنشير من الضياع فقط لأن المخصي يجهل الروسية. ليتخيل - زوجة خان تستقبل رجلاً آخر في الحريم!! قلت في ارتباك وخجل: "لا يمكن أن يدخل سيد مصطفى هنا. هذا الحريم". ردت: "أوه. لهم تقاليد مضحكة هنا. حسناً، نراه في الخارج".

"نينو، أنا خائف... لا أعرف كيف أشرح الأمر... الأمور مختلفة في بلاد فارس. ما أقصده... إن سيد رجل، أليس كذلك؟"

اتسعت عينا نينو: "تقصد أن تقول إن سيد يجب ألا يراني - سيد الذي اصطحبني طوال الطريق إلى داغستان؟"

"أنا خائف بسبب ذلك، يا نينو، على الأقل المسألة مسألة وقت".

قالت نينو: "حسنًا"، وأضافت فجأة ببرود تام: "الأفضل أن تذهب الآن".

ذهبت مغتما إلى حد ما. جلست في المكتبة الكبيرة مع سيد مصطفى، نشرب الشاي. حدثني عن خطته في الذهاب إلى مشهد، ليبقى هناك مع عمه الشهير، حتى تتحرر باكو من الكفار. وافقته واستحسنّت الخطة. كان سيد رجلاً مهذباً، لم يسأل عن نينو، ولم يتلفظ حتى باسمها. فجأة فتح الباب. "مساء الخير يا سيد". حاولت نينو التحكم في صوتها لكنه حمل نبرات الاكتئاب. قفز سيد. بدا على وجهه الممتلئ بالندوب ما يشبه الهلع. جلست نينو على الحصير: "تريد كوباً آخر من الشاي يا سيد؟" من البهو سمعنا عدداً لا يحصى من الشبشب ينطلق ذهاباً وحيثاً. استغرق سيد عدة دقائق ليبرأ من هلعه. تبسّطت نينو أمامه: "لم أخف من البنادق الآلية، هل أخاف من خصيانكم". هكذا جلسنا معاً لساعات، كان سيد مهذباً ولبقاً. قبل أن نذهب للنوم اقترب المخصي مني في تذلل: "سيدي، عاقبني. رأيته. لكن من يستطيع التنبؤ بأنها بهذه الوحشية - هذه الوحشية. إنها غلطتي". عبّر وجهه السمين عن أعظم درجات تأنيب الذات.

## 24

كان غريب أنني حين انطلقت آخر الطلقات على شاطئ بيبي إيبات الغني بالبترو، اعتقدت أني لن أعرف السعادة مرة أخرى، إلا أنني وبعد مرور أربعة أسابيع فقط في أريج حدائق شمران كنت أعيش في سلام تام. شعرت كأنني في بيتي، وعشت كنبات، أتنفس الهواء البارد في هذا المكان الهادئ قرب طهران. لم أذهب كثيرًا إلى البلدة، ذهبت فقط لزيارة الأصدقاء والأقارب من وقت لآخر، والتجول في ظلمة أزقة البازار، في صحبة خدمي. أزقة ضيقة، أكشاك تشبه الخيام، كلها مغطاة بسقف مقبب، كمظلة من الطين، مصابيح تحترق في زوايا معتمة، أناس يرتدون ثيابًا فضفاضة أو بنطلونات واسعة أو أسفالًا. بحثت في الورود والجوز والسجاد والكوفيات والمنسوجات الحريرية والمجوهرات. عثرت على أباريق مزخرفة بالذهب، عقود وأساور قديمة مزركشة، عطور مميزة، ووسائل من الجلود

المغربية. العملات الفضية الثقيلة تندس في جيوب التجار. يحمل خدمي كل عجائب الشرق - كلها من أجل نينو. لا أحتمل ظهور الهلع الشديد على وجهها الصغير في حديقة الورد. تنحني ظهور الخدم تحت وطأة ما يحملون. أوصل السير. في إحدى الزوايا يبيعون مصاحف مغلقة بجلد رقيق، ونمنات: فتاة تجلس تحت شجرة سرو، بالقرب منها أمير لوزي العيين، يصطاد، رمح، وأيل يهرب. ومرة أخرى ترن العملات الفضية. بعد مسافة قصيرة يجثم تاجران على طاولة منخفضة. يأخذ أحدهما عملات كبيرة من جيبه ويعطيها للآخر، يفحصها بدقة، يقبض عليها، يزنها على ميزان صغير ويضعها في حقيبة كبيرة. مئة مرة أو ألف وربما عشرة آلاف مرة يضع التاجر يده في جيبه، قبل دفع الدين. يتحرك بهدوء وشموخ. شيدرت! تجارة! ألم يكن محمد نفسه تاجرًا؟

البازار متاهة. بالقرب من التاجر ينجلس حكيم في كشكه، يقلب صفحات كتاب. يبدو وجهه كصخرة نمت عليها نقوش باهتة وطحالب. أصابعه النحيلة الطويلة دءوبة وبارعة. يفوح من الصفحات الصفراء الباهتة عطر ورود شيراز، أغنية، أغنية العنادل الفارسية، أنغام مرحة، رؤية العيون اللوزية والرموش الطويلة. يقلب العجوز بيده الجميلة الصفحات بحب. همسات، ضجيج، صراخ. بدأت المساومة على سجادة قديمة رقيقة الألوان من كرمان. نينو تعشق رقة خطوط هذه الحدايق المنسوجة. بالقرب مني شخص يبيع ماء الورد وزيت الورد. تمتاز آلاف الورد في نقطة واحدة من زيت الورد النفيس، بالضبط كما يجتمع آلاف من البشر معًا في الممرات الضيقة في بازار طهران. أتخيل نينو تنحني على وعاء صغير يمتلئ بزيت الورد.

الخدم مرهقون. "خذوا هذا كله إلى شمران، بسرعة، سآتي بعد قليل". اختفوا في الزحام. أنحني وأدخل عبر باب منخفض إلى مقهى فارسي مزدحم بالناس. رجل بلحية حمراء يجلس في المنتصف. عيناه نصف مغمضتين، ينشد إحدى قصائد حافظ في الحب. تنهد المستمعون بهجة. ثم يقرأ في جريدة: "اخترع شخص في أمريكا آلة تنقل الكلام المنطوق إلى المستمع. استقبل جلالة الإمبراطور، ملك الملوك، الذي تتجاوز عظمته الشمس، وتصل يده إلى المريح، وعرشه أعلى من العالم، استقبل مندوب ملك إنجلترا في الوقت الحالي في قصره في بجاشاه. ولد في أسبانيا طفل بثلاثة رؤوس وأربعة أقدام. تعتقد الجماهير أن هذا فآل سيئ". يطرق المستمعون ألسنتهم في ذهول. يطوي ذو اللحية الحمراء جريدته. أغنية أخرى! هذه المرة عن الفارس رستم وابنه سوراب. أسمع بصعوبة، أتطلع إلى الشاي الذهبي الساخن وأفكر: الأمور ليست على ما يرام.

أقنع، أنا في بلاد فارس وأعيش في قصر. نينو تعيش في القصر ذاته، وهي أبعد ما تكون عن القناعة. عرفت السعادة الحقيقية في داغستان، مع أنها تحملت كل مشقات الحياة في البرية. هنا لا تستوعب آداب السلوك الفارسية. تريد أن تمشي معي في الشوارع، والبوليس يمنع هذا منعًا باتًا. ببساطة لا يمكن لرجل وزوجته أن يخرجًا معًا. تطلب مني أن أفرجها على البلدة وتزعج حين أحاول أن إقناعها بالعدول عن الأمر: "نينو، أود أن أفرجك على البلدة. وعلى ألا أفرجك على البلدة". تتطلع عيناها الكبيرتان الداكتتان إليّ في تأنيب وارتباك. كيف أفهمها أن زوجة خان لا تستطيع ببساطة أن تسير في الشوارع سافرة؟ اشترى أغلى أنواع الحجاب: "نينو،

انظري كم هو جميل. يحمي الوجه من الشمس والتراب. بأمانة، أود لو أرتدى واحدًا أنا نفسي". تبتسم ابتسامة حزينة وتنحي الأحجة جانبًا: "علي خان، أحتقر المرأة التي تغطي وجهها. سأحتقر نفسي إذا لبسته". أطلعها على تعليمات البوليس. تمزقها فأطلب عربة مغلقة بنوافذ من الكريستال. هكذا أخذها عبر البلدة. رأت أبي في ميدان المدفع وكانت تريد أن تحبيه. كنت في حالة هلع، اشتريت نصف البازار لأرضيها... الآن أجلس هنا وحدي اطلع في كوب الشاي. نينو يقتلها السأم، ولا أستطيع مساعدتها. تريد أن تلتقي بزوجات الأوروبيين وبناتهم، وهذا لا يجوز. لا يمكن لزوجة خان الاختلاط بزوجات الكفار. سيتأسين لها لأنها تعيش في الحريم، وفي النهاية ستشعر بنفاد قدرتها على الاحتمال.

منذ عدة أيام ذهبت لترى عماتي وبناتهن، وعادت في ذهول مرعب. صرخت في يأس: "علي خان، سألن كم مرة في اليوم تشرفني بممارسة الحب معي. يقلن إنك معي دائمًا. رجالهن يخبرهن بذلك، ولا يتخيلن أننا نفعل أي شيء آخر. قدمن لي تعويذة ضد العفاريت وتميمة مؤكدة لحمايتي من أي منافسة. سألتني عمك سلطان هانم إن كان مرهقًا جدًا أن أكون زوجة وحيدة لرجل في سن الشباب، وأردن جميعًا أن يعرفن ماذا أفعل لأمنعك من الذهاب إلى الراقصين. سألت سواتا ابنة عمك إن كان قد أصابك مرض قدر. يقلن إنني سأحسد. علي خان، أشعر وكأنهن رمينني بقاذورات". حاولت أن أهدئ من روعها قدر ما أستطيع. جثمت في الركن كطفل مرتعد، وأخذت تنظر فوق كتفها في رعب. استغرق الأمر وقتًا طويلاً لتهدأ.



يبرد كوب الشاي. أجلس هنا في غرفة للشاي ليرى الناس أني لا أقضي كل حياتي في الحريم. غير مستحب أن يبقى المرء مع زوجته طوال الوقت - بالفعل أبناء عمي يجرون رجلي. للمرأة ساعات معينة فقط من اليوم، الباقي كله للرجل. بالنسبة لنينو أنا كل شيء: الجريدة والمسرح والمقهى ودائرة الأصدقاء والزوج، كل ذلك في الوقت ذاته. لهذا فقط لا يمكن أن أتركها تجلس وحيدة في البيت، واشتري فعليًا البازار كله، لأن عمي يقيم الليلة حفلاً كبيراً على شرف والدي. سيحضر أمير إمبراطوري، وتبقى نينو في البيت، وحيدة مع المخصي الذي يريد أن يعلمها.

أترك البازار وأنطلق إلى شمران. نينو تجلس في بهو كبير مغطى بالبساط والسجاجيد، تفكر بعمق، وتتطلع إلى جبل الحلقان والعقود والأوشحة وزجاجات العطر. تقبليني بهدوء ورقة، ويغرق قلبي في اليأس. يجلب المخصي مشروباً بارداً ويرمقني باستهجان. على الرجل ألا يدلل زوجته بهذا الشكل. في بلاد فارس تبدأ الحياة في الليل. النهار لا يطاق من الحر والقذارة والغبار. وحين يحل الليل تدب حياة جديدة في الناس، وتصبح الأفكار حرة وسهلة، وتتدفق الكلمات من جديد. يبدأ تشاشوت، شعائر غريبة لبلاد فارس. أعشق هذه الطريقة في الحياة وأقدرها، مع أنها مختلفة تماماً عن عالم باكو وداغستان وجورجيا. في الثامنة جاءت مركبتا احتفال عمي إلى الباب، واحدة لأبي، وأخرى لي. بهذا يقضي الذوق. وقف ثلاثة من البشמיד أمام كل مركبة، ينادون ويعدون، يحملون فوانيس ألقت بضوئها على تلك الوجوه المكرسة لخدمتنا. حين كان هؤلاء الرجال أولاداً، نزع طحال كل منهم، وصار دورهم الوحيد في الحياة هو الجري أمام مركبة

والنداء بجديّة: "انتبه!" الشوارع خاوية، ومع ذلك ظل العداءون يقولون "انتبه!" لأن ذلك من الذوق. انطلقنا في أزقة ضيقة، بجوار جدران رمادية من الطين ممتدة بلا نهاية. ربما كانت وراء هذه الجدران أكواخ أو قصور، ثكنات أو مكاتب. لكن الجدران الطينية وحدها تطل على الشوارع، لتحمي خصوصية الحياة الفارسية. في بياض ضوء القمر بدت قباب البازار الدائرية كبالونات لا تحصى تمسك بها يد خفية. توقفنا أمام بوابة نحاسية مقوسة بشكل جميل، في جدار عريض. فتحت البوابة ودخلنا إلى بهو القصر.

في الأيام العادية، حين كنت آتي إلى هذا البيت بنفسني، كان يقف عند البوابة عجوز يرتدي معطفًا رثًا. في تلك الليلة زينت واجهة القصر بأكاليل الزهور وفوانيس ورقية، ووقف ثمانية رجال انحنوا حين توقفت المركبتان. كان البهو الفسيح مقسمًا إلى جزأين. الحريم في جانب، حيث تتدفق النافورة وتغني العنادل. في الجزء المخصص للرجال، لم يكن هناك إلا بركة مستطيلة، يسبح فيها بتكاسل سمك ذهبي اللون.

نزلنا. جاء عمي إلى الباب لاستقبالنا. غطى وجهه بيده الصغيرة وهو ينحني مرحبًا ونحن ندخل البيت. كانت هناك فواصل من الخشب المنقوش وقوائم مذهبة في الردهة الكبيرة، وقد ازدحمت بأناس يرتدون قبعات سوداء من جلد الأغنام، وعمائم، وأروابا واسعة من نسيج رقيق غامق. جلس في المنتصف عجوز بأنف كبير معقوف وشعر أشيب وحاجبين يشبهان أجنحة الطيور؛ إنه الأمير صاحب السمو. نهض الجميع حين دخلنا. سلمنا على الأمير في البداية، ثم سلمنا على بقية الحضور جميعًا، وغصنا في الوسائد الناعمة. تبعنا الآخرون مباشرة. جلسنا صامتين دقيقة أو اثنتين. ثم قفزنا

جميعاً وانحنى كل منا للآخر مرة أخرى. وفي النهاية جلسنا وعم صمت جليل. أحضر الخدم أكواباً زرقاء باهتة بها شاي معطر. دارت علينا سلال الفاكهة. كسر سموه الصمت: "سافرت بعيداً وعرفت بلاداً كثيرة. ولم أر في أي مكان كخوخ بلاد فارس وخيارها". قشر خياره، ورشها بالملح، وأكلها ببطء، وعيناه تعبران عن حزن شديد.

قال عمي: "سموك على حق، سافرت إلى أوروبا واندعشت من صغر حجم فواكه الكفار وبشاعتها".

"أطمئن تمامًا حين أعود إلى بلاد فارس"، قال رجل يمثل الإمبراطورية الفارسية في بلاط أوروبي. لا يجب أن نشعر نحن الفرس بالغيرة من أي شيء على الأرض. يمكن للمرء أن يقول عن حق إن العالم ينقسم إلى فرس وبربر".

قال الأمير: "يمكن وضع بعض الهنود في الاعتبار. حين زرت الهند منذ بضع سنين قابلت أناساً متمدنين تماماً وربما اقترب مستواهم الثقافي من مستوانا. لكن مرة أخرى - من السهل أن نخطئ. عرفت هندياً من أصول عريقة، واعتبرته واحداً منا، وثبت أنه بربري. دعاني إلى بيته لتناول الغداء، وتخللوا فقط، أنه أكل الأوراق الخارجية لسلطة خضراء".

فزعنا. قال ملا وجنتاه متغضتان ويرتدي عمة ثقيلة، بصوت رقيق ومجهد: "الفرق بين الفرس وغير الفرس هو: لا أحد غيرنا يقدر الجمال". قال عمي: "صحيح، صحيح. أفضل دائماً قصيدة جميلة على مصنع يثير الضجيج. أسامح أبو سعيد على هرطقته، لأنه أول من أدخل أحب أشكال

الشعر إلى نفوسنا، أعني الرباعيات، إلى أدبنا".

سلك حنجرتَه وتلا:

"قبل فتح المسجد والمدرسة إلى الأبد

يبقى الباحث عن الحقيقة في كمد

قبل أن ينفصل المؤمن والكافر إلى الأبد

لا يمكن أن يكون أحد مسلمًا إلى الأبد".

قال الملا: "رهيب، رهيب. لكن هذا الإيقاع..". وردد في عشق: "لا يمكن أن يكون أحد مسلمًا إلى الأبد". نهض، وتناول علبة ماء فضية أسطوانية بعنق ضيق وأخذ يتهدى. بعد برهة عاد ووضع العلبة على الأرض. نهضنا لنحييه، لأن جسمه تخلص من المواد الزائدة. وحينها تساءل والدي: "هل صحيح، سموك، أن فوسوه الدولة، رئيس وزرائنا، على وشك عقد معاهدة جديدة مع إنجلترا؟"

ابتسم الأمير: "عليك أن توجه هذا السؤال إلى أسد الدولة - مع أن المسألة لم تعد سرًا".

قال عمي: "نعم. إنها معاهدة رائعة، سيصبح البربر من الآن عبيدًا لنا".  
"حقًا؟ كيف؟"

"الأمر على النحو التالي: يعشق الإنجليز العمل ونعشق الأمن. يعشقون القتال ونعشق السلام. وقد توصلنا إلى اتفاق: لن نخاف على أمن حدودنا

بعد الآن. انجلترا تحميها، وتمد الطرق وتشيد المنازل وفوق ذلك تدفع لنا مقابل كل ذلك. لأن الإنجليز يعرفون أننا جلبنا الثقافة إلى العالم".

كان ابن عمي بهرام خان شرفشير يجلس بجوار عمي. رفع رأسه وقال: "هل تعتقد أن الإنجليز يقدرّون ثقافتنا أم بترولنا؟"

قال عمي بلا مبالاة: "الاثنان يضيئان العالم ويحتاجان إلى الحماية. ومن المؤكد أننا لا نستطيع أن نكون جنودًا؟"

تساءلت: "لماذا؟ إذا قاتل المرء مرة من أجل شعبه، فمن الممكن أن يقاتل من جديد". تطلع إليّ أسد الدولة باستنكار، وترك الأمير كوب الشاي. وقال بغطرسة: "لم أعرف أن هناك جنود في عائلة شرفشير".

"لكن سموك! كان ضابطًا بالفعل".

"سيان، أسد الدولة. ضابط". كرر بسخرية ومط شفثيه. بقيت صامتًا. نسيت أن الجندي في عيون نبيل فارسي من طبقة أدنى. بدا أن ابن عمي بهرام خان شرفشير الوحيد الذي تختلف أفكاره عن الآخرين. كان صغيرًا. كان مشير الدولة، نبيل محمل بالأوسمة، يجلس بجوار الأمير، حدثه بإسهاب طويل عن أن إيران في حماية الله، وليست في حاجة لل سيف لتسطع في العالم. كثيرًا ما أثبت شجاعته في سالف الأيام. وقال في نهاية حديثه: "في خزانة الملك كرة من الذهب. كل بلد في هذه الكرة مرصع بالمجوهرات، كل بلد بحجر مختلف. لكن إيران البلد الوحيدة المغطاة بأنقى الألماس وأكثره تألقًا. إنها أكثر من مجرد رمز؛ إنها الحقيقة". فكرت في كل الجنود الأجانب الذين عسكروا في البلاد وفي رجال الشرطة، الذين غطتهم الأسمال، في

ميناء إنسيلي. تخشى آسيا، وقد تخلت عن سلاحها أمام أوروبا، أن تصبح أوروبية. احتقر الأمير الجنود - إلا أنه هو نفسه كان من نسل الشاه الذي كان جدي أحد قاداته الذين فتحوا قفليس. في تلك الأيام عرفت إيران كيف تستخدم السلاح وتحافظ على مكائنها. لكن الزمن تغير، وتدهورت إيران، مثلما كانت تحت حكم السيفيد الفنانين. فضل الأمير القصيدة على البندقية الآلية، ربما لأنه يعرف عن القصائد أكثر مما يعرف عن البنادق الآلية. كان الأمير وعمي عجوزين. كانت إيران تحتضر، تحتضر برشاقة. قفزت فجأة قصيدة لعمر الخيام إلى شفتي:

"رقعة الشطرنج ليل ونهار

يستخدمها القدر، عليها يلعب لعبته

مع الرجال، يرفعهم ويستخف بهم ثم

يعيدهم إلى حيث كانوا".

لم أدرك، مستغرقاً في التفكير، أنني نطقت الأبيات بصوت عالٍ. رق وجه الأمير وقال بلطف: "أظنك أصبحت جندياً بالصدفة إلى حد ما، إنك شخص متعلم. لو سنحت لك فرصة لتقرر مصيرك، هل كنت تهتم حقاً بأن تصبح جندياً؟" انحنيت: "تسأل سموك، ماذا كنت أختار؟ أربعة أشياء فقط: شفاه حمراء كالياقوت وصوت الجيتار ونصيحة حكيم ونبذ أحمر". كسبت تأييد الجميع بالأبيات الشهيرة التي نظمها الدقيقي. حتى الملا ذو الوجنتين الضامرتين ابتسم لي ابتسامة تقدير.

فتحت أبواب غرفة العشاء في منتصف الليل فدخلنا. وضع مفرش هائل على السجاجيد. في الوسط إناء نحاسي كبير ممتلئ بالبيلاف. أرغفة بيضاء كبيرة في كل مكان، وآنية لا تحصى بأحجام مختلفة، فارغة أو مليئة بمشهيات مغرية. وقف الخدم في الأركان ثابتين كالتماثيل يحملون فوانيس تنشر ضوءاً رقيقاً. جلسنا وبدأنا نخدم أنفسنا، كل واحد كما يجب. أكلنا بسرعة، كما تقضى التقاليد، فالأكل هو العمل الوحيد الذي ينجزه الفرس بسرعة. تلا الملا دعاءً قصيراً. جلس ابن عمي بهرام خان بجانبني. لم يأكل إلا القليل، ونظر إليّ بفضول: "هل تحب بلاد فارس؟"

"نعم، أحبها حباً جماً".

"كم من الوقت تمكث هنا؟"

"حتى يستولى الأتراك على باكو".

"أحسدك يا علي خان". كان صوته مفعماً بنبرات الإعجاب. لف لقمة من الخبز المفروود وملاها بالأرز. "جلست خلف بندقية آلية ورأيت الدموع في عيون أعدائك. سيف إيران علاه الصدا. نتحمس لقصائد كتبها الفردوسي منذ أربعمئة سنة، ونميز بسهولة بين بيت للدقيقي وآخر للروذكي. ولا نعرف كيف نمهد طريقاً للسيارات، أو كيف نقود كتيبة".

"طريقاً للسيارات". كررت، وفكرت في حقول البطيخ على ضوء القمر على الطريق إلى مَرْدَكْيَانِي. كان أمراً طيباً جداً أن لا يستطيع أحد في آسيا تمهيد تلك الطرق. لو فعلوا لما استطاع حصان كاراباخ اللحاق بسيارة أوروبية أبداً، أبداً.

"بهرام خان، فيم تحتاج الطرق الممهدة؟"

"لنقل الجنود في شاحنات، حتى لو قال رجال دولتنا إننا لا نحتاج جنودًا. لكننا نحتاج! نحتاج بنادق آلية ومدارس ومستشفيات ونظامًا دقيقًا للضرائب وقوانين جديدة، وأنا سأملك. الشعر القديم آخر ما نحتاج إليه. إيران تتمزق والمسنون يجلسون لإنشاد الشعر. لدينا الآن أغان أخرى: هل تعرف أشعار الشاعر أشرف، شاعر يعيش في جليان؟" انحنى إلى الأمام وأنشد برقة: "هاجم الحزن والأسى بلادنا. انهض، اتبع كفن إيران. قُتِلَ شباب فارس في هذه الصحوة. القمر والحقول والهضاب والأودية حمر. حمر بدمائهم".

"إيقاعات بشعة، بهذا قد يصفها الأمير. قد تجرح إحساسه بالجمال جرحًا عميقًا".

قال بهرام خان بتصميم: "ثمة قصيدة أخرى، قد تكون أجمل، لشاعر اسمه ميرزا أغا خان. استمع: 'لتفلت إيران من مصير يجعل كافرًا يحكمها. على العروس الإيرانية ألا تشارك العريس الروسي في السرير. يجب ألا يكون جماها السماوي دمية اللوردات الإنجليز'".

قلت بابتسامة: "ليس سيئًا جدًا". بدا أن الاختلاف الأساسي بين بلاد فارس الشابة وبلاد فارس القديمة يتمثل في نظم شعر ركيك. "أخبرني، يا بهرام خان، ماذا تريد حقًا؟"

جلس جامدًا على سجادة حمراء باهتة وأجاب: "هل رأيت ميدان ميداني؟ هناك مئة مدفع قديم صدئ، تتجه فوهاتنا إلى الجهات الأربع. هل تعلم



أن هذه الآثار الغبية المغبرة هي كل ما في بلاد فارس من سلاح؟ وليس هناك أي حصن أو محارب أو جندي - بالطبع باستثناء القوقاز الروس، والجنود الإنجليز، وأربعمائة من البهدوران البدينين لحراسة القصر؟ فقط انظر إلى عمك أو الأمير أو كل هؤلاء النبلاء البارزين بسماتهم العجيبة: العيون الخافتة، الأيدي الضعيفة، مسنون وصدئون مثل مدافع ميدان ميداني سيبه. أيامهم معدودة، والوقت مناسب لرحيلهم. لسنوات طويلة جدًا كانت بلادنا في أيد مرهقة، أيدي الأمراء والشعراء. بلاد فارس تشبه يدا ممدودة لمتسول عجوز. أود لو تصبح قبضة محكمة لرجل شاب. ابق هنا يا علي خان. سمعت عنك. كيف كنت آخر من بقى ببندقيتك الآلية تدافع عن الجدار القديم لباكو، كيف قتلت عدوًا بعض رقبته على ضوء القمر. هنا ما هو أكثر من جدار قديم للدفاع عنه، ومعك أكثر من مجرد بندقية آلية. أليس هذا أفضل من الجلوس في الحريم، أو شراء كل ما طاب من البازار؟ "صمت، أفكر بعمق. طهران! أقدم مدينة في العالم. "روجاري" الاسم الذي أطلقه عليها أهل بابل، روجاري، مدينة الملوك. غبار الأساطير القديمة، الذهب المتلاشي في القصور القديمة - أعمدة متعرجة في البوابة الماسية، خطوط شاحبة على سجاجيد قديمة، إيقاع هادئ في الرباعيات القديمة - هنا، بدا كل ذلك أمامي، في الماضي والحاضر والمستقبل.

قلت: "بهرام خان، افترض أنك حصلت على ما تبغى. حين ترصفون الطرق وتشيدون الحصون، وترسلون أسوأ الخدم إلى أحدث المدارس؛ ماذا يبقى من روح آسيا؟"

تساءل مبتسمًا: "روح آسيا؟ سنشيد بيتًا كبيرًا في نهاية ميدان المدفع.

هناك ستسكن روح آسيا: رايات المساجد، مخطوطات الشعراء، النمنمات، الأولاد الراقصون، لأنهم أيضا جزء من روح آسيا. وعلى واجهة المبنى سنكتب بخط كوفي مزخرف: كلمة "متحف". يمكن أن يكون العم أسد الدولة مسؤولاً عن المتحف وجمالة الإمبراطور مديره. هل تساعدنا في بناء هذا الصرح الهائل".

"سأفكر في هذا يا بهرام خان".

انتهت الوجبة. جلس الضيوف في مجموعات غير منتظمة. نهضت وذهبت إلى الشرفة المفتوحة، كان الهواء بارداً ومنعشاً. من الحديقة جاء عير الورود الفارسية. جلست، تنزلق مسبحة بين أصابعي، وتطلعت إلى الليل. هناك، خلف القباب الطينية في البازار، كان شمران. هناك حبيتي نينو ترقد مغطاة بالبطاطين والمخدات. ربما كانت نائمة، وشفاتها مفتوحتان، وجفونها متورمة من الدموع. لفني حزن عميق. كل كنوز البازار لم تكف لإعادة البسمة إلى عيني نينو. بلاد فارس! هل أبقى؟ بين الخصيان والأمرأ، بين الدراويش والحمقى؟ لرصف الطرق، وتكوين جيوش، لجلب المزيد من أوروبا إلى قلب آسيا؟ شعرت فجأة أن لا شيء، لا شيء في الدنيا أعز عندي من ابتسامة في عيني نينو. متى رأيت تلك الابتسامة آخر مرة؟ ذات يوم، منذ وقت بعيد، في باكو قرب الجدار. جرفتني موجة وحشية من الحنين للوطن. استعدت صورة الجدار المغبر، والشمس تغرب خلف جزيرة تَرْجِين. سمعت الذئب تعوي في ضوء القمر تحت بوابة الذئب الرمادي، في رمال الصحراء التي تغطي السهل حول باكو. كان التجار يسامون قرب برج الميدان، وحين سرت في شارع نيقولاوي أتيت إلى ليسيوم

الملكة تامار المقدسة. وتحت الأشجار في بهو اليسيوم وقفت نينو، في يدها كتاب الاختبارات، عيناها كبيرتان مشدوهتان. فجأة تلاشى عبير الورود الفارسية، وهب هواء صحراوي نقي من باكو ومشهد باهت للبحر والرمال والبترول من حولي. دعوت وطني كما يدعو طفل أمه، وانتابني شعور باهت بأن هذا الوطن لم يعد له وجود. أبدأ، أبدأ أكان عليّ أن أغادر البلدة التي شاء الله أن أولد فيها. كنت مقيدًا في الجدار القديم، ككلب في وجاره. تحولت عيناها إلى السماء. النجوم الفارسية كبيرة وبعيدة، كالمجوهرات في تاج الشاه. لم أشعر هنا بالغربة كما شعرت في تلك اللحظة. كنت انتمي إلى باكو، حيث ابتسمت لي عيون نينو في ظل الجدار القديم.

لمس بهرام خان كتفي: "علي خان، هل تحلم؟ هل فكرت فيما قلته - هل تساهم في بناء بيت إيران الجديدة؟"

قلت: "بهرام خان، يا ابن العم، أحسدك. المهاجر وحده يعرف معنى الوطن. لا أستطيع بناء إيران. سننت خنجري على حجر في جدار باكو".

نظر إليّ في حزن. "مجنون" قالها بالعربية، وتعني العاشق كما تعني المختل عقليًا. كان قريبي وقد خمن سري. نهضت. كان أصحاب المقام الرفيع ينحنون للأمير في البهو الكبير. رأيت يديه ذات الأصابع الطويلة الذابلة والأظافر الحمراء. لا، لم أخلق لاستعراض أبيات الفردوسي وحسرات حافظ في الحب واقتباسات سعدي. دخلت البهو وانحنيت على يد الأمير. كانت عيناها حزينتين وذاهلتين، مفعمتين بنذير وخيم. ثم انطلقت إلى

شمران وفكرت في الميدان الذي تقف فيه المدافع الصدئة، وفي عيني الأمير  
المرهقتين. هدوء نينو وطاعتها ولغز الخراب الذي لا مفر منه.

## 25

تداخلت الألوان الساطعة المتشابكة على الخريطة. اختلطت أسماء البلدات وسلاسل الجبال والأنهار واستحال فهمها عملياً. فتحت الخريطة على الديوان، حيث جلست، وأعلام صغيرة ملونة في يدي. كان معي جريدة أيضاً، كانت أسماء البلدات وسلاسل الجبال والأنهار مشوشة في أعمدها بالضبط كما في الخريطة الملونة. انحنيت على الورقتين، محاولاً بجد العثور على حل صحيح بين أخطاء الجريدة واستحالة فهم الخريطة. رسمت دائرة صغيرة حول علم أخضر صغير، مطبوع بالقرب منه "إلسابثول (جنجا)". كانت آخر خمسة حروف مطبوعة على جبال زَنْجُلْدَك. طبقاً لما قالته الجريدة أعلن المحامي فتح علي خان من شوشا في جنجا جمهورية أذربيجان الحرة. صف من الأعلام الخضراء الصغيرة شرق جنجا صورت جيش عنبريه الذي أرسل لتحرير بلادنا. من اليمين تتحرك كتائب نوري باشا باتجاه بلدة

أجداش. على اليسار احتل مرسل باشا أودية إلسو. كتائب من متطوعي أذربيجان الجديدة يقاتلون في الوسط. اتضحت الخريطة تمامًا وصارت مفهومة. ببطء تغلق الدائرة التركية حول باكو التي يحتلها الروس. احتاج وضع الأعلام الخضراء الصغيرة تعديلًا بسيطًا، تجتمع الأعلام الحمراء في كتلة واحدة على البقعة الكبيرة التي تشير إلى "باكو".

وقف يحيى كولي، المخصي، خلفي وتتبع لعبتي الغريبة باهتمام بالغ. بدا له أن كل هذه الحركة حول الأعلام الصغيرة على ورقة ملونة هي بالضرورة سحر أسود غريب لساحر رهيب. ربما أخطأ السبب والنتيجة وظن أن كل ما أفعله لتحرير وطني من الكفار هو التأكد من مساعدة قوى غيبية بلصق أعلام خضراء صغيرة في البقعة الحمراء التي تمثل باكو. لم يشأ أن يقلقني وأنا أمارس هذا العمل السري، لكنه قدم تعليقًا، يخص مهمته، قال بصوت رتيب وجاد: "أوه علي خان، حين حاولت صبغ أظافرها بالحنة ألفت بالإناء وخربشتني، مع أنني اشتريت أغلى أنواع الحنة. في الصباح الباكر قدتها إلى النافذة، وأخذت رأسها بذوق بين يدي وطلبت منها أن تفتح فمها. من المؤكد أن الاهتمام بأسنانها مسئوليتي، يا خان، لكنها تراجعت بفضاعة، ورفعت يمناها وصفعتني على خدي الأيسر. لم تؤذني الصفعة كثيرًا، لكنها أهانتني. سامح عبدك يا خان، لكنني لا أجرؤ على إزالة الشعر من على جسمها. إنها امرأة غريبة. لا ترتدي تيممة، ولا تتخذ أي احتياطات لوقاية طفلها. لا تغضب مني يا خان، إذا جاءت بنتًا، اغضب من نينو هانم. ربما لبستها روح شريرة فهي ترتجف حين ألمسها. أعرف عجوزًا تعيش قرب مسجد عبد العظيم، خبيرة في طرد الأرواح

الشريرة. قد تكون دعوتها إلى هنا فكرة طيبة. فكر يا خان، في الصباح تغسل وجهها بهاء بارد لتتلف بشرتها. تغسل أسنانها بفرشاة ناشفة، فتنزف اللثة، بدل أن تغسلها بسبابة يدها اليمنى، بعد وضعها في معجون معطر كما يفعل الآخرون. لا يمكن أن تأتيها هذه الأفكار إلا من روح شريرة".

لم أسمعه. يأتي كل يوم تقريبًا إلى غرفتي ليقدم لي هذه التقارير المملة. كان قلقًا، لأنه شخص أمين يريد أن يؤدي واجبه، ويشعر بالمسؤولية عن طفلي القادم. شنت نينو الحرب عليه، بمزاح وعناد. رمت بالوسائد، مشت على القمة الواسعة لجدار البيت بدون حجاب، رمت تعاويذه من النافذة، وغطت الجدران بصور لأبناء أعمامها الجورجيين الذكور! ذكر لي هذا كله، بحزن ورعب، وكل مساء تجلس نينو معي على الديوان وتخطط لمعركة اليوم التالي. قالت وهي تحك ذقنها مفكرة: "ماذا تظن يا علي خان، أصب الماء على وجهه في الليل من خرطوم رفيع، أم ألقي قطعة عليه في النهار؟ لا، سأقوم بتمرينات يوميًا في الحديقة بجانب النافورة. وسأجعله يقوم بها أيضًا، إنه بدين جدًا. الأفضل أن أدغده حتى الموت. سمعت أنك تستطيع قتل الناس بدغدغتهم، وهو حساس جدًا للدغدة". كانت تستغرق في خطط شريرة للانتقام، حتى يغلبها النوم، وفي اليوم التالي قال المخصي فزعًا: "علي خان، نينو هانم تقف قرب النافورة وتأتي بحركات بالغة الغرابة بيديها ورجليها. أنا خائف، يا إلهي. تشني جسدها إلى الخلف وإلى الأمام، وكأن جسمها بلا عظام. ربما تصلي لرب مجهول. تطلب مني أن أقلد حركاتها. لكنني مسلم مخلص، يا خان، أتمرغ في التراب أمام الله فقط. أخاف بشدة على عظامها وعلى سعادتي".

لم يكن طرد المخصي حلاً. فلا بد أن يحل آخر مكانه، لأنه لا يمكن تخيل أسرة بدون مخصي. لا أحد غيره يمكن أن يشرف على نساء يقمن بالأعمال المنزلية، لا أحد غيره يمكن أن يقوم بالحسابات والحفاظ على النقود ومراجعة النفقات. يمكن للمخصي وحده أن يقوم بذلك، فهو يفتقر لل رغبات ولا يمكن أن يرشى. لذا لم أنطق بكلمة، ونظرت للخط الأخضر في الأعلام الصغيرة حول باكو. سلك المخصي حنجرتة، رغبة في القيام بواجبه: "هل أدعو السيدة العجوز في مسجد عبد العظيم لزيارتنا؟"

"لماذا، يا يحيى كولي؟"

"لتطرد الأرواح الشريرة من جسد نينو هانم". تنهدت، وكنت أعتقد أن عجوز مسجد عبد العظيم لا تستطيع مبارزة أرواح أوروبا.

"لا أظن أن هناك ضرورة لذلك يا يحيى كولي. أنا نفسي أعرف كيف أمنع الأرواح. سأرتب كل شيء في الوقت المناسب، والآن أريد التركيز بكل قوتي في هذه الأعلام الصغيرة". ظهر الفضول والخوف في عيني المخصي.

"حين تحل الأعلام الخضراء محل الأعلام الحمراء تتحرر بلدتك، أليس كذلك يا خان؟"

"بلى يا يحيى كولي".

"إذن لماذا لا تضع الأعلام الخضراء حيث تريد؟"

"هذا ما لا أستطيع أن أفعله، قوتي لا تكفي".



تطلع إليَّ باهتمام: "ادع الله ليمنحك القوة. في الأسبوع القادم يبدأ مهرجان محرم. إذا دعوت الله في محرم فمن المؤكد أن يمنحك القوة". طويت الخريطة، في ارتباك وحزن. كان الاستماع إلى ثرثرة المخصي يشير أعصابي. لم تكن نينو في البيت. جاء والداهما إلى طهران وكانت تقضي ساعات طويلة في الفيلا الصغيرة التي استأجرتها الأسرة المرموقة. التقت هناك بأوروبيين آخرين، وحاولت أن تتكلم الأمر. لكنني بالطبع سمعت عن ذلك، ولأنني كنت حزيناً من أجلها، تجاهلت كل شيء. وقف المخصي ثابتاً، في انتظار أوامري. فكرت في سيد مصطفى، صديقي، الذي جاء إلى طهران في زيارة تستغرق عدة أيام. لم أره إلا نادراً، لأنه كان يقضي وقته في المساجد، وأضرحة الأولياء، ويجري مناقشات حكيمة مع الدراويش ذوي الملابس الرثة. أخيراً قلت: "يحيى كولي، اذهب إلى سيد مصطفى. إنه يعيش بجوار مسجد سبْهَلَسار. اطلب منه أن يشرفني بالزيارة". ذهب المخصي وبقيت وحيداً. لم تكن قوتي كافية لجلب الأعلام الخضراء إلى باكو. في مكان ما من سهول وطني كانت كتائب الترك تقاتل، ومعهم جنودنا المتطوعون تحت راية أذربيجان الجديدة. كنت أعرف الراية وعدد الجنود والمعارك التي خاضوها. كان إلياس بج معهم، وكنت تواقاً للتواجد في ساحة المعارك معه في برد الصباح. لكن الطريق إلى الجبهة مغلقة أمامي. القوات الإنجليزية والروسية تحرس الحدود. والجسر الواسع على نهر أركسيس، الذي يربط إيران بمسرح العمليات محاط بالأسلاك الشائكة والبنادق الآلية والجنود. كانت بلاد الشاه متوقعة في هدوء كقوقعة في محارة. لم يكن مسموحاً لإنسان أو فأراً أو حتى ذبابة بالعبور إلى المنطقة

الموبوءة حيث الحرب القذرة وطلقات الرصاص، وكان من المستحيل إلقاء الشعر. جاء من باكو عدد كبير من المهاجرين، من بينهم أرسلان أغا، الثرثار. كان يندفع من مقهى إلى مقهى ويكتب مقالات شبه فيها انتصارات الترك بانتصارات الاسكندر الأكبر. منع أحد هذه المقالات من النشر، لأن الرقيب اعتقد أن تعظيم الإسكندر يغضب أهل فارس التي قهرها الاسكندر ذات يوم. ومن ذلك اليوم اعتبر أرسلان أغا نفسه شهيداً لمعتقداته. زارني، وحكى لي بتفصيل هائل كل المآثر البطولية التي كان من المتوقع أن أقوم بها دفاعاً عن باكو. وقد تخيل فيالق الأعداء تسير أمام بندقيتي الآلية، وأنا أقتلهم. هو ذاته قضى وقت المعركة في قبو مكتب للطباعة، حيث انشغل بكتابة خطابات وطنية مثيرة، لم تُسلم أبداً. قرأها لي وطلب مني أن أصف له مشاعر بطل في غمار المعركة. ملأت حلقه بالحلوى ورافقته حتى الباب. خلف وراءه رائحة حبر المطابع، ونسخة ضخمة من كتاب جديد يفترض أن أضيف إليه مشاعر البطل. نظرت إلى الصفحات البيضاء، وأنا أفكر في نظرات نينو الحزينة الغائبة، وفي حياتي المتشابكة وتناولت القلم. لا لأصف مشاعر البطل، لكن لأسجل على الورق الطريق التي قادتنا، أنا ونيو، إلى حديقة شِمْران الفيحاء، حيث فقدت ابتسامتها.

جلست أكتب بقلم فارسي من الخيزران. وضعت أوراق متناثرة لأبدأ منذ كنا في المدرسة، وانبثق الماضي مرة أخرى، حتى جاء سيد مصطفى إلى الغرفة، وضغط وجهه الممتلئ بالندوب على كتفي. قلت: "سيد، أنا في ورطة. الطريق إلى الجبهة مسدودة، نسيت نينو الضحك، وأنا أنزف حبراً بدلاً من الدم. ماذا أفعل يا سيد مصطفى؟" نظر إليّ صديقي بهدوء

وتأمل. كان يرتدي عباءة سوداء ووجهه ضامر. بدا جسده النحيل منحنيًا تحت وطأة لغز. جلس وقال:

"لا يمكن أن تفعل شيئًا بيدك يا علي خان. لكن الإنسان ليس مجرد يد. انظر إلى عباءتي تعرف ما أقصد. الغيب يحكم الإنسان. افرك اللغز تهبط قوته عليك".

"لا أفهمك يا سيد مصطفى. أتألم وأبحث عن طريق للخروج من الظلمة".

"تنظر إلى العالم يا علي خان وتنسى الغيب الذي يحكم العالم. في عام 680، عام الفرار، طارد الأعداء الحسين، حفيد النبي، قرب كربلاء. كان المخلص واللغز. بدمه حدد القدير سطوع الشمس وغروبها. اثنا عشر إماما تولوا أمر الشيعة، أمرنا نحن الشيعة: الحسين هو الأول، والأخير هو إمام اليوم الأخير، الغائب، الذي ربما كان اليوم يقود سرًا أهل الشيعة. أعمال الإمام الغائب محسوسة ومن المستحيل مهاجمته. أراه في الشمس المشرقة، في معجزة البذرة، وفي البحر الهائج. أسمع صوته في صوت البندقية الآلية وتنهّد المرأة وعصف الريح. ويحدد الغيب أن الحداد قدر الشيعة! الحداد على دم الحسين، الذي هدر في رمال صحراء كربلاء. شهر في العام مخصص للحداد: شهر محرم. من يعاني فليصرخ في شهر محرم. في العاشر من محرم يتحقق مصير الشيعة، لأنه يوم موت الشهيد. وحيث قطعت رأس الحسين الشاب يكون على أتباعه المخلصين حمل هذه المعاناة على كواهلهم. من يتحمل جزءًا من هذه المعاناة ينل جزءًا من النعيم. ويعاقب الإنسان المخلص

نفسه في شهر محرم، ويإيلا م الذات يرى الإنسان المتورط في مشاكل هذا العالم طريق الرحمة ومتعة الخلاص. هذا سر محرم."

قلت وأنا أعانى من التعب والتوتر: "سيد، سألتك كيف أستعيد السعادة في بيتي، لأنني أشعر بهلع رهيب، وأنت تطعمني حكايات حكيمة من التعاليم الدينية التي درسناها في المدرسة. هل أجري إلى المسجد وأسلخ ظهري بسلاسل من الحديد؟ أنا مخلص وأؤدي الواجبات الدينية. أو من بسر الغيب، لكنني لا أو من بأن الطريق إلى سعادتي يمر باستشهاد الإمام الحسين".

"لكنني أو من بذلك يا علي خان. سألت عن الطريق فبينته لك، لا أعرف طريقاً غيره. إلياس بج يبذل دمه في الجبهة في جنجا. وأنت لا تستطيع الذهاب إلى جنجا. عليك أن تكرر دمك للغيب، الذي يطلبه منك في العاشر من محرم. لا تقل إن التضحية المقدسة بلا معنى؛ لا شيء في وادي الدموع بلا معنى. خض معركة من أجل الوطن في محرم، كما يفعل إلياس بج في جنجا". لذت بالصمت. دخلت العربة إلى الفناء، وكان وجه نينو حزيناً عبر النوافذ الكريستال. فتح باب الحريم، وانتابت سيد مصطفى رغبة ملحة في الانصراف. "تعال غداً إلى مسجد سبهلسار لتحدث من جديد".

## 26

استلقينا على الديوان وبيننا رقعة الطاولة المطعمة بعرق اللؤلؤ وقطع من العاج. منذ علمت نينو هذه اللعبة الفارسية كنا نرمي الزهر على العملات والأقراط والقبل وأسماء أبنائنا المنتظرين. خسرت نينو، دفعت ديونها وألقت الزهر مرة أخرى. لمعت عيناها بالإثارة، لمست أصابعها القطع العاجية وكأنها جواهر نفيسة. "ستكون سبب إفلاسي يا علي"، تنهدت، ودحرجت الثماني عملات التي كسبتها للتو باتجاهي. نحت الرقعة جانباً، ووضعت رأسها على ركبتي، وبحلقت في السقف وغرقت في حلم.

كان يوم مدهش، لأن نينو كانت سعيدة بالهدوء العميق بعد إشباع روح الانتقام. هذا ما حدث: في الصباح الباكر امتلأ البيت بالعويل والنواح. دخل عدوها، يحيى كولي، إلى الغرفة، بوجنة متورمة ووجه يتلوى من الألم. "أسناني تؤلمني"، قال وبدا كأنه على حافة الانتحار. لمعت نشوة

الانتصار والسعادة في عيني نينو. أخذته إلى النافذة وحدقت في فمه، ورفعت حاجبيها. ثم هزت رأسها، وكأنها منزعة، وتناولت فتلة قوية ولفتها حول سن مجوفة في فم يحيى كولي. ثم ربطت الطرف الآخر للفتلة في أكرة الباب المفتوح. "الآن"، قالت واندفعت إلى الباب وأغلقتة بعنف. صيحة رهيبة؛ سقط المخصي على الأرض، وحدق في سنه وهي تطير باتجاه الباب في منحني رائع وهو يموت من الرعب. "أخبره يا علي خان إن ذلك بسبب تنظيف الأسنان بسبابة اليد اليمنى!" ترجمت ترجمة حرفية، والنقط يحيى كولي سنه من الأرض. لم يهدأ عطش نينو للانتقام. "أخبره يا علي خان بأنه لم يبرأ بعد تمامًا. عليه أن يذهب إلى السرير ويضع كمادات ساخنة على وجنته لست ساعات. ويأكل على أي حال حلوى لأسبوع على الأقل". انصرف يحيى خان وقد هدأ لكنه كان محطماً. قلت: "اخجلي من نفسك يا نينو، لأنك تحرمين هذه الروح البائسة من آخر ما يمكن أن يسعدها". قالت نينو بقسوة: "يخدم بطريقة صحيحة"، وسحبت رقعة الطاولة. خسرت الدور، واستعاد العدل توازنه.

نظرت إلى أعلى وأصابها تداعب ذقني: "متى تتحرر باكوي يا علي؟"

"أقول في حوالي أسبوعين".

تنهدت: "أربعة عشر يومًا. تعرف، لا أستطيع انتظار باكوي والأتراك. تغير كل شيء تمامًا. أنت تحب الحياة هنا، وأنا أهاه يومياً".

"ماذا تقصدين بالإهانة؟"

"يعاملني الجميع كشيء نفيس وهش. لا أعرف كم أنا نفيسة، لكن

لست هشة ولست شيئاً. هل تذكر داغستان؟ كان الأمر هناك مختلفاً تماماً. لا، لا أحب هذا المكان على الإطلاق. نذهب إلى أي مكان آخر إذا لم تتحرر باكو في القريب العاجل. لا أعرف شيئاً عن هؤلاء الشعراء الذين تزهو بهم هذه البلاد، لكن أعرف أن الرجال يخدشون صدورهم في ذكرى الحسين، ويضربون رؤوسهم بالخناجر ويضربون ظهورهم بسلاسل من الحديد. غادر البلدة كثير من الأوروبيين اليوم، لأنهم لا يريدون رؤية هذه الأشياء. الأمر برمته يمرضني. أشعر هنا أنني عرضة لقوة خبيثة تستعصي على التفسير، قد تهاجمني في أي وقت". نظرت إليّ بوجه حزين. كانت عيناها عميقتين وحزيتين بصورة لم أرها من قبل، اتسعت حدقتها وبدت نظرتها وكأنها متجهة للداخل. لم يفش سر حمل نينو سوى عينيها.

"هل أنت خائفة يا نينو؟"

"مم؟" وكان صوتها يعبر عن دهشة حقيقية.

"بعض النساء".

قالت بجدية: "لا، لست خائفة. أخاف من الفئران والتماسيح والامتحانات والخصيان. وليس من ذلك الأمر. قد أخشى أيضاً برد الدماغ في الشتاء".

قبلت جفنيها الباردين. وقفت ومشطت شعرها للخلف. "أنا ذاهبة لزيارة والدي يا علي خان". هززت رأسي موافقاً، وأنا أعرف جيداً أن كل قواعد الحريم تخترق. استقبل الأمير أصدقاء جورجين ودبلوماسيين أوروبيين. شربت نينو الشاي وأكلت البسكويت الإنجليزي وتحدثت مع

القنصل الألماني عن رمبرانت ومشكلة نساء الشرق. مضت، رأيت العربية بالنوافذ الكريستال تغادر الفناء.

كنت وحيداً، أفكر في الأعلام الخضراء الصغيرة، والورقة الملونة، التي لا تزيد مساحتها على عدة بوصات، وقد فصلتني عن وطني. انتشرت الظلمة في الغرفة ببطء. آثار رائحة عطر نينو مازالت تفوح من نعومة وسائد الديوان. انزلقت إلى الأرضية ويدي تبحث عن المسبحة. كان الأسد الفضي، ممسكاً بالسيف في مخلبه الأيسر، يسطع على الحائط. تطلعت إليه فسيطر عليّ إحساس مفاجئ بالضعف واليأس. شعرت بالعار من جلوسي هنا في ظلال الأسد الفضي وشعبي ينزف حتى الموت في أودية جنجا. أنا أيضاً مجرد شيء. شيء نفيس محمي، يجد من يرعاه ويعتني به، أحد أفراد عائلة شرفنشير، مصيره أن ينال لقباً سامياً عاجلاً أو آجلاً، ويعبر عن مشاعر رائعة بعبارات كلاسيكية رائعة. كنت يائساً، والأسد الفضي يكشر لي عن أنيابه من فوق الحائط. أغلق الجسر الحدودي الواقع على نهر أركسيس، ولم يكن هناك طريق من أرض إيران إلى روح نينو. أحرك حبات المسبحة. انقطع الخيط وانفرطت الحبات الكهربائية على الأرض.

من بعيد سمعت ضربات دف تأتي رتيبة عبر الشفق داعية ومهددة، وكأنها تحذير الغيب. مضيت إلى النافذة. كان الطريق المغبر يسطع بأخر أشعة الشمس. أدركت ضربات الطبول، كانت تقترب، إيقاعها مصحوب بصيحات متقطعة، تكررت مرات ومرات، آلاف المرات: "شاه سي... واه سي شاه حسين... واحسرتاه على الحسين!" ثلاثة رايات هائلة مطرزة بكمية كبيرة من الذهب، تترنح فوق الجموع، وتحملها أيد قوية.



مكتوب على أحدها بحروف ذهبية "علي"؛ اسم رفيق النبي على الأرض. وعلى الثانية المصنوعة من القطيفة السوداء كانت الحدود العريضة لكف يسرى، تترحم وترفض، يد فاطمة بنت النبي. وعلى الثالثة، بحروف بدت وكأنها تغطي السماء، كتبت كلمة وحيدة: "حسين" - حفيد النبي، الشهيد والوريث. ببطء مرت الحشود من الشارع. في البداية جاء التائبون المخلصون، بظهور عارية، بعباءات الحداد السود، يحملون سلاسل ثقيلة من الحديد، والسلاسل تلسع أكتافهم الحمراء النازفة. ومن ورائهم نصف دائرة واسعة من رجال عريضي المناكب، يسرون خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الخلف. بأصوات مبحوحة دوى صراخهم عبر الطريق: "شاه سي... واه سي..". ومع كل صرخة تضرب قبضاتهم بقوة وقسوة على صدورهم العارية المشعرة. وقد تبعهم أحفاد النبي، يرتدون الحزام الأخضر الذي يميزهم، ورؤوسهم مخنية. ووراءهم شهداء محرم في عباءات الموت البيضاء، وجوههم حزينة وخرساء، يحملون الخناجر في أيديهم. "شاه سي... واه سي..". اهتزت الخناجر وهوت على الرؤوس الحليقة. غطت الدماء عباءات الشهداء. تردد أحدهم فأبعده أصدقاؤه وابتسامه ابتهاج على شفتيه.

وقفت في النافذة. فجأة يطرأ على إحساس جديد لا يقاوم؛ قبض الصراخ على روحي بتحذيره، وسيطرت عليّ رغبة في الخضوع التام. رأيت قطرات الدماء في تراب الشارع، سمعت صوت الدف، منادياً ومحرراً. كان لغز الغيب، بوابة الأسى، التي تؤدي إلى نعيم المخلص. ضمنت شفتيّ وقبضت يداي على إطار النافذة. رأيت يد فاطمة، وغرق

العالم المنظور برمته بعيداً عني. مرة أخرى سمعت صوت الطبلبة الجوفاء؛ كان إيقاع الصرخات الوحشية في داخلي. صرت جزءاً من الجموع. سرت مع رجال عريضي المناكب، وانهالت قبضاتي على صدري العاري. أخيراً أحسست بالظلمة الباردة لمسجد، وسمعت نداء الإمام الحزين. وضع أحدهم سلسلة ثقيلة في يدي، وشعرت بألم مبرح على ظهري. امتد أمامي ميدان واسع، ومن حنجرتي خرجت الصرخة القديمة الوحشية المبهجة: "شاه سي... واه سي...". وقف أمامي درويش بوجه مهشم. ظهرت ضلوعه تحت الجلد الجاف. آلاف من عيون الجموع الداعية تتحدق في نشوة، والجموع تغني. عبر الميدان وقف حصان صهوته مصبوغه بالدم، حصان الحسين الشاب. صاح الدرويش ذو الوجه المهشم صيحة مفاجئة بصوت حاد وممتد. طار إناءؤه النحاسي بعيداً وألقى بنفسه تحت حوافر الحصان. ارتبكت. قبضات ثقيلة تدق الصدور العارية. "شاه سي... واه سي...". صرخت الجموع مبهجة. كانت عباءة الرجل الذي حمل من قبل ملطخة بالدماء. من بعيد جاء عدد لا يحصى من الكشافات تصحبنا في الظلام، فتبعتهم. أجلس في فناء مسجد مرة أخرى، والناس من حولي في عمام عالية مدورة وعيونهم مفعمة بالدموع. غنى شخص أغنية الحسين الشاب، وغص بأسى فجائي. نهضت. كانت الجموع تتدفق للخلف. كان الليل بارداً. اجتزنا المباني الإدارية، حيث رايات سوداء ترفرف على الأعمدة والأسطح. كان صف الكشافات الذي لا ينتهي يشبه نهراً يعكس النجوم. والأسطح مزدحمة تماماً. أمعن المحجوبون النظر في الزوايا. كان الجنود يحرسون بوابات القنصلية، وحراهم في وضع الاستعداد. مرت

قافلة من الإبل بصفوف المصلين الغارقين في الصلاة. ارتفعت صيحات رهيبة، سقطت نسوة على الأرض، وأطرافهن تنتفض في ضوء القمر الشاحب. جلست عائلة الشاب الكريم في محفات على ظهور الجمال. وراءهم على حصان أسود، الخليفة يزيد المقيت، ووجهه مغطى بقناع عربي- قاتل الحسين عليه السلام. وحين دخل المشهد تطايرت الحجارة عبر الميدان، لكن بعيداً عن قناعه. زاد من سرعته واختفى في فناء قاعة عرض نصر الدين شاه. لتبدأ في اليوم التالي المسرحية الحزينة عن الحسين عليه السلام.

ذهبنا إلى الرواق الماسي في قصر الإمبراطور، حيث الأعلام السوداء تخفق على نصف عمود أيضاً. وقف البهّدورس، حراس القصر، محني الرؤوس، واضعين شارات حداد سوداء. ولم يكن الإمبراطور هناك، لكنه كان يقيم في قصره الصيفي في بجهشاه. تدفقت الجموع في شارع عيد الدولة، وفجأة صرت وحيداً في ظلمة ميدان المدفع. حذقت فوهات البنادق الصدئة فيّ بلا مبالاة. جسدي يؤلمني كأنه جُلد بالسياط ألف جلدة. تحسست كتفي وشعرت بدم كثيف متجمد. اضطرب الميدان أمام عينيّ. وحين استقر مرة أخرى رأيت عربية فارغة. نظر السائس إليّ بتفهم وشفقة وقال وكأنه خبير: "خذ زبل حمام واخلطه بالزيت، ثم ضعه على الجراح. إنها طريقة رائعة". سقطت على الوسائد من شدة الإرهاق. صرخت: "إلى شمران، إلى بيت شرفنشير". هز السائس سوطه وانطلقنا في شوارع متعرجة غير ممهدة. من وقت لآخر كان ينظر حوله ويقول: "يبدو أنك تقي. من فضلك ادع لي. لا أستطيع أن أفعل ذلك بنفسني، ليس لدى

وقت، يجب أن أعمل. اسمي سُرهَاب يوسف."

انسابت الدموع على وجه نينو. كانت تجلس على الديوان، ويدها معقودتان في يأس، تبكي ولا تخفي وجهها. كان فمها مفتوحًا، وزاويتاه متهدلتين، مع تجاعيد عميقة بين الوجنتين والأنف. تنهدت وارتجف جسدها الضئيل. لم تنطق بكلمة، لكن دموعًا براقية سقطت من رموشها على وجنتيها، وانتشرت على وجهها المكشوف. وقفت أمامها، وقد مزقتني شدة حزنها. لم تتحرك، لم تجفف دموعها، ارتجفت شفتها كأوراق في ريح الخريف. أخذت يديها، كانتا باردتين بلا حياة، حاولت سحبها. قبلت عينيها المبتلتين، نظرت إليّ في ذهول وبدون استيعاب. صرخت: "نينو، نينو، ما هذا؟" رفعت يدها إلى فمها، كأنها تريد أن تغلقه. حين نزلت مرة أخرى رأيت بوضوح علامات الأسنان عليها.

قالت بصوت ينم عن هلع عميق: "أكرهك يا علي خان".

"نينو - هل أنت مريضة؟"

"لا، أكرهك". وضعت شفتها السفلى بين أسنانها، وكانت عيناها عيني طفل مستاء. تطلعت برعب إلى ثيابي الرثة وكتفي العاريين الأحمرين.

"ما هذا يا نينو؟"

"أكرهك". زحفت إلى زاوية الديوان ورفعت رجليها ووضعت ذقنها على ركبتيها. توقفت دموعها. نظرت إليّ بعينين حزينتين هادئتين وكأنني غريب.

"ماذا فعلتُ يا نينو؟"

"كشفت لي عن روحك يا علي خان". تحدثت برتابة ونعومة كما في حلم. "كنت في بيت والديّ. نشرب الشاي، دعانا القنصل الألماني إلى بيته في ميدان المدفع. فرجنا على أكثر طقوس الشرق همجية. وقفنا في النافذة، مرّ تحتها سيل المتعصبين. سمعت الدف ورأيت الوجوه الوحشية فمرضت. "مجنون السياط"، قال القنصل وأغلق النوافذ لأن تنانة العرق والقذارة أتت من الشارع. فجأة سمعنا صرخة وحشية وارتقى درويش تحت حوافر حصان. ثم، ثم مد القنصل يده وقال: "أليس ذلك..." ولم يكمل الجملة. نظرت حيث أشار فرأيت أحد أبناء وطني يضرب صدره ويجلد ظهره بين كل هؤلاء المجانين. وكان أنت يا علي خان! أحسست بالعار، بالعار حتى الموت لأنني زوجة بربري متعصب. رأيت كل حركاتك وشعرت بنظرة شفقة في عين القنصل. أظن أننا تناولنا الشاي بعد ذلك أو العشاء. لا أتذكر. فقط حاولت أن أقف على قدمي، لأنني رأيت فجأة أن الهاوية تبتلعنا. علي خان، دمر الحسين الشاب سعادتنا. أراك بربرياً متعصباً، وسأراك كذلك دائماً". جلست هناك في صمت تمزقها المعاناة، لأنني حاولت العثور على الوطن والسلام مع الغيب.

"وما العمل الآن يا نينو؟"

"لا أعرف. لا يمكن أن نذوق طعم السعادة مرة أخرى. أريد أن أرحل إلى مكان يمكن أن أتطلع فيه إلى وجهك مرة أخرى، ولا أرى المجنون في ميدان المدفع. دعني أذهب يا علي خان".

"تذهبين إلى أين يا نينو؟"

لمست أصابعها ظهري الجريح: "أوه، لا أعرف، لماذا، أوه لماذا فعلت ذلك؟"

"فعلت ذلك من أجلك يا نينو، لكنك لا تفهمين ذلك".

قالت بأسى شديد: "لا، أريد أن أرحل. أعاني من إرهاق شديد. آسيا منفرة".

"هل تحبينني؟"

قالت في يأس: "نعم"، وتركت يديها تسقطان في حجرها. حملتها بين يدي إلى غرفة النوم. خلعت عنها ملابسها، كانت تهذي في هلع محموم. قلت: "نينو، بضع أسابيع أخرى ونعود إلى باكو".

هزت رأسها في إعياء وأغلقت عينيها. أخذت يدي وقد غلبها النوم وضغطتها على ضلوعها. جلست وقتاً طويلاً في هذا الوضع، وأنا أشعر بنبضات قلبها في راحة يدي. ثم خلعت ملابسني واستلقيت بجوارها. كان جسمها دافئاً، تمددت كطفلة، على جنبها وركبتها مسحوبتان إلى أعلى ورأسها تحت الغطاء.

استيقظت مبكراً، قفزت من فوقي وجرت إلى الحمام. استغرقت وقتاً طويلاً في الاستحمام، ولم تدعني أدخل... ثم خرجت وتحاشت عيني. حملت إناء صغيراً به مرهم. وبإحساس بالذنب وضعت بعضه على ظهري. قالت كفتاة صغيرة باللغة الطيبة: "اضربني يا علي خان".

"لا يمكن، قضيت يوماً بطوله وأنا أضرب نفسي، وقد فقدت كل قوتي".

وضعت المرهم جانباً، جاء المخصي بالشاي. شربت في استعجال وهي تنظر إلى الحديقة في الخارج في صمت وارتباك. فجأة نظرت في عينيّ بحزم وقالت: "لا فائدة يا علي خان. أكرهك، وسأستمر أكرهك طالما بقينا في بلاد فارس. لا حيلة لي في ذلك". نهضنا، وخرجنا إلى الحديقة وجلسنا صامتين بجوار النافورة. اختال الطاووس أمامنا، ودخل سائس عربة أبي في صخب إلى الجزء المخصص للرجال من البيت. نظرت نينو إليّ شزراً وقالت في خجل: "يمكن أن ألعب الطاولة حتى مع رجل أكرهه". سحبت الطاولة، وفي حزن وإحباط بدأنا رمي الزهر. ثم انحنينا على حافة النافورة وتطلعنا إلى وجهينا المنعكسين على المياه. غمست نينو يدها في الماء فتشوهت صورنا بالقرقة الضعيفة. "لا تحزن يا علي خان. لا أكرهك أنت، أكره هذه البلاد الغريبة وأهلها الغرباء. ينتهي هذا بمجرد العودة إلى وطننا، وبمجرد أن..". وضعت وجهها على الماء لحظة. حين رفعت وجهها انسابت قطرات صافية من المياه على وجنتيها وذقنها: "أثق في أنه سيكون ولدًا- لكن مازال أمامه سبعة أشهر"، صممت وبدأت مزهوة وفي حالة نفسية أفضل إلى حد ما. وهكذا اعتمد مصيرنا على الأفواج التي تسير في وادي أذربيجان المشرق إلى بلدة باكو القديمة، البلدة التي عانت من احتلال الأعداء والتشويه الأبدي بمنصات الزيت. جففت وجه نينو وقبلت وجنتيها الباردتين. ابتسمت. جاء صوت طبول الحسين عليه السلام مرة أخرى من بعيد. قبضت على يدي نينو وأسرعنا إلى داخل

البيت، وأدّرت الجراموفون بأعلى صوت. بدأ صوت عالٍ يصيح بصوت يصم الأذان باللحن "الذهبي" من جونود "فاوست". ربما كانت أعلى الأسطوانات صوتاً، وبينما التصقت نينوبي مرتجفة من الرعب غطى الصوت الهائل على الصرخة القديمة "شاه سي واه سي..".



## 27

في الأيام الأولى من الخريف في بلاد فارس زحف جيش عنبر بيه لاحتلال باكو، بهذا جرت الأخبار في البازارات والمقاهي والوزارات. نزل آخر المدافعين الروس عن المدينة إلى موانئ بلاد فارس وتركستان جوعى ومعزولين عن وحداتهم. قيل إن العلم الأحمر المرسوم عليه هلال أبيض يرفرف منتصراً على القلعة القديمة. نشر إرسالان أغا تقارير كثيرة الألوان في صحف طهران عن زحف الأتراك، وقد حظر عمي أسد الدولة هذه الصحف، لأنه ظن أنه يقدم خدمة للإنجليز بهذه الطريقة، ولأنه يكره الأتراك. ذهب أبي إلى رئيس الوزراء وبعد تردد سمح رئيس الوزراء بإعادة فتح الخط الملاحي بين باكو وبلاد فارس. سافرنا إلى إنسلي، حمل القارب البخاري نصر الدين جموع المهاجرين، ونحن من بينهم، إلى بلدتهم المحررة.

كان يقف على رصيف باكو جنود بطرايش من الفرو. رحب بنا إلياس بج، رافعاً سيفه، وتحدث الكولونيل التركي، محاولاً أن يبدو صوته التركي بلهجة اسطنبول الرقيقة خشناً بقدر الممكن مثل لهجتنا. وصلنا إلى بيتنا الذي تعرض للتخريب والسطو، ولأيام وأسابيع كانت نينو مجرد ربة بيت. خاضت مناقشات طويلة مع النجارين، دارت كثيراً في محلات الأثاث، وأخذت مساحات الغرف بتركيز شديد. قضت جلسات صعبة مع المنفذين، وامتلاً بيتنا بضجيج العمال ورائحة الدهان، بالخشب والبلاستر. وفي وسط الجلبة المنزلية كانت نينو نشيطة، تدرك مسؤوليتها، وتتمتع بتفويض كامل في اختيار الأثاث، وورق الحائط، والديكور عموماً. في المساء قالت، في خجل وسعادة: "لا تغضب من حبيبتك نينو يا علي. طلبت أسرة، أسرة حقيقية بدلاً من الأرائك. سيكون ورق الحائط فاتحاً، ونفرش سجاجيد مناسبة على الأرض. ستكون غرفة الطفل بيضاء تماماً. سيختلف كل شيء اختلافاً تاماً، تاماً عن الحريم الفارسي". وضعت يديها حول عنقي وحكت وجهها في وجتي، لأن ضميرها يؤنبها. التفت برأسها جانباً وسحبت لسانها الصغير عبر شفيتها وحاولت الوصول به إلى قمة أنفها. كانت تفعل ذلك دائماً حين تواجه موقفاً صعباً أو امتحانات أو أطباء أو جنازات. تذكرت ليلة الحسين، مع أن مشاعري تأذت لأني سأمشي على السجاد بالحذاء، وأجلس على طاولة أوروبية. كان السطح المنبسط ومشهد الصحراء كل ما تبقى لي. لم تقترح نينو تعديلات جوهرية هناك. امتلاً البيت بالغبار والضجيج.

جلست على السطح مع أبي، ملت برأسي جانباً، تركت لساني يتزلق عبر

شفتيَّ على طريقة نينو، وشعرت بالذنب. قال أبي بلطف: "حسنًا - هكذا تسير الأمور يا علي خان. البيت مجال المرأة. كانت نينو باللغة الطيبة في بلاد فارس، مع أن الأمور لم تكن سهلة بالنسبة لها على الإطلاق. والآن جاء دورك. لا تنس أني قلت لك: باكو الآن جزء من أوروبا. إلى الأبد! ظلمة الغرف الباردة والسجاد الأحمر على الحائط ينتميان لبلاد فارس".

"وأنت يا أبي؟"

"أنا أيضًا أنتمي لبلاد فارس، وسأذهب إلى هناك بمجرد أن أرى ابنك. أعيش في بيتنا في شمران، وأنتظر هناك ربما حتى تدخل الحوائط والأسرة البيضاء".

"عليَّ أن أبقى هنا يا أبي".

أوماً بجدية. "أعرف. تحب هذه البلدة، ونيو تحب أوروبا. وأنا لا أحب علمنا الجديد، وضجيج الدولة الجديدة، ولا رائحة الإلحاد التي تسيطر على البلدة". نظر إلى أسفل بهدوء، وبدا فجأة مثل أخيه أسد الدولة: أنا رجل عجوز يا علي خان. لا أحتمل هذه الأشياء الجديدة. أنت شاب شجاع، يجب أن تبقى هنا، ستحتاجك أذربيجان".

حين هبط الشفق تحولت في شوارع بلدتنا. الخفر الأتراك يقفون في الزوايا قساة شامخين بوجوه جامدة. تحدثت مع الضباط، حدثوني عن مساجد اسطنبول وليالي الصيف في تتلي سو. كان العلم الجديد يرفرف على قصر الحاكم، واجتمع البرلمان في مدرستنا. بدت البلدة وكأن حياتها اليومية تحولت إلى حفلة تنكرية. كان فتح علي خان، محامي البلدة، رئيس

الوزراء الجديد، وقد وضع القوانين وأعطى الأوامر. وكان ميرزا أسد الله، أخو أسد الله الذي كان يريد قتل الروس جميعاً، وزيراً للخارجية وقد وقع على المعاهدات مع دول الجوار. تحمست لتحولات بلدي. هزنتي بعمق مشاعر الاستقلال السياسي، وكانت غير مألوفة، وأحببت المعاطف الجديدة التي يرتديها الجنود، والأزياء والقوانين. للمرة الأولى في حياتي شعرت حقاً بأنني في وطني. انسلّ الروس من جانبي في هلع، وحياني المدرسون السابقون بتبجيل. في نادى المدينة عزفت الاوركسترا الأغاني الوطنية طوال المساء، ولم نخلع قبعاتنا، واستضفنا أنا وإلياس بج الضباط الأتراك هناك، القادمين من الجبهة والذاهبين إليها. حدثونا عن حصار بغداد، والرحلة الصعبة في صحراء سيناء. عرفوا كثيات الرمال في تربوليس والأرزقة الموحلة في جليشيا والعواصف الثلجية على جبال أرمينيا. شربوا شمبانيا، مستخفين في وقاحة بشريعة النبي، وتحذثوا عن عنبر ونشأة إمبراطورية توران، حيث تتحد كل الشعوب ذات الدم التركي. استمعت إلى كلماتهم مفعماً بالدهشة والتبجيل، لأن كل ذلك كان وهماً يشبه الظلال، ويشبه حلمًا جميلًا لا ينسى.

وأتى يوم الاستعراض الكبير. سارت فرق عسكرية في البلدة. سار الباشا، وصدره مغطى بالأوسمة والنياشين، على جواده المطهم أمام صفوف الجند وحييَّ العلم الجديد. لفنا شعور بالزهو والامتنان، ونسينا كل الفروق بين الشيعة والسنة، وكنا على استعداد لتقبيل يد الباشا والموت في سبيل الخليفة العثماني. وقف سيد مصطفى وحده بعيداً عن الجموع، بوجه يعبر عن كراهية واحتقار. رأى صليباً عسكرياً بلغارياً بين كل النجوم والأهلة

التي تغطي سترة الباشا، واستاء بعمق من وجود رمز لعقيدة غريبة على صدر مسلم.

بعد الاستعراض جلسنا أنا وإلياس وسيد في المنتزه، حيث تساقط أوراق الخريف من الأشجار. تشاجر الصديقان بعنف حول الأفكار الأساسية للدولة الجديدة. اقتنع إلياس بج، نتيجة الحملات والمعارك في جنجا والحديث مع الضباط الأتراك الشباب وخبراته في الحرب، أن السبيل الوحيد لإنقاذ البلاد من غزوة روسية أخرى تنفيذ إصلاحات أوروبية بأسرع ما يمكن. صرخ في صخب: "أقول يمكن أن نبني الحصون ونمهد الطرق، وندخل إصلاحات، ونبقى مسلمين!" قطب سيد حاجبيه بعينين مرهقتين، وقال ببرود:

"لنتنقل خطوة أبعد، قل يمكن أن نشرب النبيذ ونأكل لحم الخنزير ونبقى محافظين على إسلامنا. اكتشف الأوروبيون منذ زمن بعيد أن النبيذ مفيد لك وأن لحم الخنزير مغذ. بالطبع قد يبقى الإنسان مسلماً، رضوان وحده، على باب الجنة، لن يؤمن بذلك".

ضحك إلياس: "من المؤكد أن هناك فرقاً بين السير في الاستعراض وأكل لحم الخنزير".

"لكن ليس هناك فرق بين أكل لحم الخنزير وشرب النبيذ. الضباط الأتراك يشربون النبيذ علانية، ويعلقون صلبانا على أزيائهم".

استمعت إلى الصديقين وتساءلت: "سيد، هل يمكن أن تكون مسلماً وتنام في سرير وتأكل بالسكين والشوكة؟"

كانت ابتسامة سيد رقيقة: "ستكون مسلماً دائماً. رأيتك يوم عاشوراء". صمت. دفع إلياس بج كابه إلى الخلف.

"هل سيكون بيتك حقاً على الطراز الأوروبي تماماً، وتفرشه بأثاث حديث وتضع ورق حائط ملون وفاتح؟"

"نعم، هذا صحيح يا إلياس بج".

قال في حزم: "رائع. بلدتنا الآن عاصمة. سيأتي القناصل الأجانب إلى بلادنا. نحتاج بيوتاً تصلح لاستقبالهم، وستكون لدينا سيدات يستطعن التحدث إلى زوجات الدبلوماسيين. معك زوجة مناسبة تماماً يا علي خان، وتوث البيت المناسب. يجب أن تعمل في وزارة الخارجية".

ضحكت: "إلياس بج، تحكم على زوجتي وبيتي وعليّ كما لو كنا جياداً على وشك بدء سباق الفهم الدولي. يبدو أنك تعتقد أنني الوحيد الذي يعيد بناء بيته باهتمامات وطنية".

قال إلياس بج بصوت حاد: "هذا ما يجب أن يكون"، بدالي فجأة وكأنه على حق، وأن كل الأشياء وكل الأشخاص يجب أن يكونوا في خدمة هذه الدولة الجديدة التي نريد لها أن تنمو من تربة أذربيجان البائسة التي حرقها الشمس. ذهبت إلى البيت، وحين رأت نينو أنني لا أعترض على الأرضيات الباركية ودهان الحوائط بالزيت ضحكت في سعادة وسطعت عيناها كما سطعتا في تلك الليلة في الغابات في ربيع بيشابور.

في ذلك الوقت كثيراً ما خرجت على صهوة الحصان إلى الصحراء،

ومكثت ساعات، مغطى بالرمال الناعمة، والشمس تغرق في الغرب وكأنها تغرق في نهر من الدماء. مرت بي القوات التركية. كانت وجوه الضباط مضطربة ومشدودة. بالنسبة لنا قضى ضجيج دولتنا الجديدة على أصوات البنادق الآتية من بعيد وعلى عالم الحرب. لكن في مكان بعيد كانت القوات البلغارية، حليفة الأتراك، تنسحب أمام الهجوم الضاري الذي يشنه الأعداء. قال الأتراك: "اختراق، مستحيل إصلاح الجبهة مرة أخرى"، وكفوا عن شرب الشمبانيا. شحت الأخبار، وكانت تشبه صدمات البرق حين تأتي. بعيداً في ميناء مدراس أتى رجل، انحنى ظهره ووهن بصره، على السفينة الحربية البريطانية "أجاممنون". كان حسين رءوف بيه، قائد بحرية سمو الإمبراطور العثماني، مبعوث الخليفة لوقف إطلاق النار. انحنى على طاولة، ووقع باسمه على ورقة، وعينا الباشا، وكان لا يزال سيد بلدتنا، مفعمتان بالدموع. مرة أخرى عزفت أغنية عالم توران في شوارع باكو، وكانت هذه المرة تشبه لحناً جنائزياً. الباشا، منتصباً تماماً على صهوة حصانه، بكامل زيه، بقفازات بيضاء من جلد الماعز، مرة أخرى على صفوف جنوده. خلت وجوه الأتراك من الإحساس والتعبير. تم طى علم البيت العثماني الشريف، قرعت الطبول وألقى الباشا التحية بيد في قفاز أبيض. ثم خرجت صفوف الجنود من البلدة، تاركين وراءهم صور حلم مساجد اسطنبول، الأماكن الجميلة على البسفور، والرجل المحني، الذي وضع الخليفة عباءة النبي على كتفيه.

بعد أيام قليلة كنت واقفاً في المتزّه حين ظهرت السفن الأولى حاملة قوات الاحتلال الإنجليزية خلف جزيرة نرجين. كانت عينا الجنرال زرقاوين

وشاربه مقصوَصًا ويده عريضتين وقويتين. امتلأت بلدتنا بأناس جدد من نيوزيلندا وكندا وأستراليا. رفر العلم البريطاني على بلادنا بجانب علمنا، واتصل فتح علي خان بي وطلب مني مقابلته في الوزارة. حين دخلت إلى غرفته كان يجلس في كرسي وثير وعميق، وعيناه الحادتان ترمقاني: "علي خان، لماذا لا تخدم بلادك حتى الآن؟" لم أكن أنا نفسي أعرف. نظرت للملفات السمكة على مكتبه وجاوبت وقد انتابني شعور بالذنب:

"انتمي بكل جوارحي لبلادنا، يا فتح علي خان. أنا في خدمتك".

"أسمع أنك موهوب في تعلم اللغات الأجنبية. كم من الوقت تحتاج لتعلم الإنجليزية؟"

ابتسمت مرتبكًا إلى حد ما: "فتح علي، لا أحتاج إلى تعلم الإنجليزية، أتحدثها بالفعل". صمت في البداية، وأراح رأسه الكبير على ظهر كرسيه الوثير. وسأل فجأة: "كيف حال نينو؟" صدمت. رئيس وزرائنا يسأل عن زوجتي، ضاربًا عرض الحائط بكل قواعد اللياقة!

"شكرًا لسعادتكم، زوجتي في حالة طيبة".

"وتعرف الإنجليزية هي الأخرى؟"

"نعم".

صمت مرة أخرى ماسحًا شاربه الكث.

قلت بسرعة: "فتح علي خان، أعرف ما تريد. خلال أسبوعين سيكون بيتي جاهزًا، دولا ب نينو ممتلى بكل ملابس السهرة. نتحدث الإنجليزية، وسأدفع ثمن الشمبانيا".



ابتسامة سريعة تحت الشارب: "أتوسل منك العفو، يا علي خان"، زادت ابتسامته رقة، "لم أقصد جرح مشاعرك. نحتاج أمثالك. ليس هناك عدد كبير متزوجين من أوروبيات، ويحملون اسمًا عريقًا، ويتمون لبيت محترم. أنا على سبيل المثال: لم أملك أبدًا نقودًا لتعلم الإنجليزية، أو بيتًا بمفردي أو زوجة أوروبية". بدا مرهقًا وتناول قلمًا: "من اليوم أنت مقيد في قسم أوروبا الغربية. قدم نفسك لأسد الله وزير الخارجية. سيشرح لك طبيعة العمل. ... لا تنزعج من فضلك ... هل تعتقد أن بيتك يمكن أن يجهز خلال خمسة أيام؟ أشعر بالعار لأنني مضطر لتوجيه مثل هذا السؤال".

قلت بحزم: "نعم سعادتك". وشعرت أنني أغرر بصديق قديم يثق فيّ وأتخلى عنه. عدت إلى البيت. يد نينو ملطخة بالطين والدهان. كانت تقف على سلم تدق مسمارًا لتعلق لوحة زيتية. ستندهش كثيرًا إذا سمعت أنها تقدم خدمة للوطن. ولذا لم أخبرها، لكنني قبلت أصابعها الوسخة وسمحت لها بشراء ثلاثة تبريد النييد الأجنبي.



## 28

"هل لك عمة؟ لا ليس لي عمة، لكن خادمي انكسرت رجله. هل تحب الترحال؟ نعم، أحب الترحال، لكنني في المساء أفضل تناول الفاكهة". كانت هذه الجمل شديدة البلاهة في كتاب "تعلم الإنجليزية بدون معلم". أغلقت نينو الكتاب: "أظن أن معرفتنا بالإنجليزية تكفي لكسب المعركة، لكن هل جربت شرب الويسكي؟"

صرخت مشدوهاً: "نينو، تتحدثين مثل الكتاب".

"قد يعني ذلك ببساطة تدهور عقلي مفهوم يا علي خان، ناتج عن رغبة أسوأ فهمها في خدمة الوطن. من يأتي الليلة؟" حاولت أن تبدو غير مبالية فلم تستطع. أخبرتها بأسماء كل الموظفين والضباط الإنجليز الذين سيصرفوننا بوجودهم الليلة. خفضت نينو بصرها بزهو. كانت تعلم أنه لا يوجد وزير أو جنرال في أذربيجان تمتع بما تمتع به زوجها: زوجة مثقفة،

ذات نشأة غربية، وأبوين من أسرة ملكية، وتعرف الإنجليزية. ارتدت ملابس المساء ونظرت في المرأة. قالت بصورة غامضة: "سأحاول شرب الويسكي، طعمه رهيب، مقزز حقًا. ربما لهذا السبب يخلطونه بالصودا". وضعت يدي حول كتفها، نظرت بامتنان: "نحيا حياة غريبة. علي خان، إما أن تحبسني في الحريم أو أكون دليلاً على النهضة الثقافية في بلادنا".

نزلنا إلى غرف الاستقبال. وقف الخدم حولها وتحكموا في مشاعرهم. علقت صور مناظر طبيعية وحيوانات على الحوائط. وضعت مقاعد وثيرة في الزوايا، وزهريات مليئة بالزهور على الطاولات. دفنت نينو وجهها في بتلات ورود عطرة: "هل تتذكري علي خان؟ كيف خدمتك، حاملة المياه من الوادي إلى الأول؟"

"ما الخدمة التي تفضلينها أكثر؟"

رَقَّت عينا نينو وبدتا حالمتين ولم ترد. رن الجرس فارتجفت شفتاها من الحماسة. كان والداها المرموقان، وإلياس بج في ملابس الاحتفال، أول الحضور. تمشى في الردهة فاحصا كل شيء وهز رأسه بحماس وقال بتؤدة: "أعتقد أن علي أن أتزوج أنا الآخر يا علي خان، هل لنيو بنات عم؟"

وقفنا، أنا ونيو، على الباب، نصافح أيادي إنجليزية قوية. كان الضباط طوالاً أحمر الوجوه. لبست السيدات، ذوات العيون الزرق، قفازات، وابتسمن بلطف وكثير من الفضول. ربما توقعن أن يقوم على خدمتهن خصيان ويستمتعن براقصات شرقيات، بدلاً من ذلك ظهر خدم مدربون تدريباً جيداً، قدمت الأطباق من اليسار، وعلقت على الحوائط صور خيول السباق

والمروج الخضر. حبست نينو أنفاسها حين رأت ملازمًا شابًا يتجرع كأسًا من الويسكي مرة واحدة، دون أن يلقي اهتمامًا للصودا. تناثرت المناقشات في الغرفة، وبدت في غباء جمل كتاب "تعلم الإنجليزية بدون معلم":

"هل تزوجت منذ زمن طويل يا سيدة شرفنشير؟"

"منذ عامين تقريبًا".

"قضينا شهر العسل في بلاد فارس". "يهوى زوجي ركوب الخيل".  
"لا إنه لا يلعب البولو".

"هل تحب بلدتنا؟" "أنا سعيد جدًا". "أوه، لكن من فضلك! لسناهمجا! تعدد الزوجات ممنوع في أذربيجان منذ زمن طويل. أما عن الخصيان فلم أسمع عنهم إلا في الروايات". نظرت نينو إليّ عبر الطاولة، واهتزت فتحتا أنفها بضحكة مكتومة. سألتها زوجة رائد إن كانت قد دخلت الأوبرا. ردت بأدب: "نعم، وأعرف القراءة والكتابة أيضًا". كانت الدورة الأولى على نينو، قدمت للسيدة طبقًا من البسكويات.

انحنى الرجال الإنجليز، الموظفون والضباط، أمام نينو، ولمسوا بأيديهم أصابعها الرقيقة، ونظرت عيونهم إلى ظهر نينو المكشوف. تطلعت بعيدًا. كان أسد الله يقف في ركن، يدخن سيجارة، وكأن كل شيء على ما يرام. لم يعرض زوجته أبدًا لعيون هذا العدد من الغرباء، لكن نينو جورجية ومسيحية، ولا يهتم أن تكون يداها وعيناها وظهرها فريسة لنظرات كل هؤلاء الرجال. انتابني شعور بالعار والحنق. طرقت أذني أجزاء من مناقشات بدت سوقية لا تعرف الحياء. أغلقت عيني. نينو تقف في الناحية الأخرى

من الردهة، يحيط بها الغرباء. قالت فجأة بصوت مبحوح: "شكرًا، شكرًا، أنت لطيف جدًا". تطلعت، كانت شديدة الخجل، وبدأت في حالة رعب. قطعت الردهة وجاءت إليّ. أمسكت بكمي، وكأنها تطلب المساعدة. قالت برقة: "علي خان، هل تذكر الآن شعوري حين ذهبت لزيارة عماتك وبناتهن في طهران. ماذا يمثل كل هؤلاء الرجال بالنسبة لي؟ أود ألا ينظروا لي هذه النظرة". ثم تحولت عني وأخذت بيد زوجة الرائد. وسمعتها تقول: "أدعوك لزيارة مسرحنا القومي. ترجم شكسبير إلى لغتنا التتارية. في الأسبوع القادم العرض الأول لمسرحية 'هاملت'". جففت عرق جبهتي وفكرت في صرامة آداب الضيافة: ثمة قول قديم: "إذا دخل ضيف بيتك يحمل رأس ابنك الوحيد، فاستقبله، وقدم له الطعام والشراب واحترمه كضيف". إنها قاعدة حكيمة. إلا أن الالتزام بها صعب في بعض الأحيان.

صبيت الويسكي والكونياك في كؤوس كثيرة. دخن الضباط السيجار، ولم يضع أحد منهم قدميه على الطاولة، مع أننا توقعنا منهم أن يفعلوا ذلك. ضابط شاب: "لك زوجة رائعة وبيت رائع يا علي خان"، فزاد من عذاباتي. ربما دهش كثيرًا إذا عرف أن الاعتبار السياسية وحدها أنقذته من الصفع على الوجه. تجرباً كلب كافر على امتداح جمال زوجتي صراحة! اهتزت يدي وأنا أصب له كأس كونياك، واندلقت بعض القطرات. كان موظف عجوز، بشارب أبيض، يرتدي قميصًا أبيض تحت سترة السهرة، يجلس في زاوية. قدمت له بعض البسكويت. أسنانه طويلة صفراء وأصابعه قصيرة. نظر إليّ بتمعن: "يبدو أن الفروق الثقافية هائلة بين بلاد فارس وأذربيجان".

"أوه نعم. نسبقهم بقرون. تذكر أننا أقمنا صناعات كثيرة، وأنشأنا خطأ للسكك الحديد. لسوء الحظ أحبطت الإدارة الروسية نهضتنا الثقافية. ليس لدينا ما يكفي من الأطباء والمدرسين. لكنني سمعت أن الحكومة تخطط لإرسال الشبان الموهوبين إلى أوروبا ليتعلموا ما كان ينقصهم تحت نير الاحتلال الروسي". واصلت على هذا النحو لبعض الوقت، وكنت على وشك أن أصب له مزيدًا من الويسكي، لكنه رفض.

قال: "كنت قنصلًا في بلاد فارس لعشرين عامًا، وأشعر بأسف شديد لرؤية الأشكال الراسخة القديمة من الحضارة الشرقية تتقوض، ومحاولة الشرقيين المعاصرين تقليدنا، والتخلي عن تقاليد أسلافهم. قديكونون محقين. واختيار طريقة الحياة أمر يخصهم. وعلى أية حال أعترف بأن بلادكم مهياة للاستقلال، لنقل، مثل جمهوريات أمريكا الوسطى. أظن أن حكومتنا ستعترف عاجلاً بدولتكم". كنت غيبًا، لكن موضوع المساء تحقق. كان أسد الله وزير الخارجية واقفًا في الناحية الأخرى من الردهة، مع والدي نينو المرموقين وإلياس بج. انضمت إليهم.

سأل أسد الله بسرعة: "ماذا قال العجوز؟"

"يقول إنني غبي، لكن إنجلترا ستعترف بنا قريبًا".

تنهد ميرزا أسد الله متنفسًا الصعداء: "لست غيبًا يا علي خان، انس ذلك".

"شكرًا سيدي، لكنني أعتقد أنني غبي".

صافحني واستأذن في الانصراف. حين قبل يد نينو عند الباب سمعتها تهمس له بشيء ما، وتبتسم ابتسامة غامضة. هز رأسه، لقد فهم. انصرف الضيوف في منتصف الليل، كانت الردهة معبأة برائحة التبغ والكحول... صعدنا السلم مرهقين وهادئين إلى غرفة النوم، وفجأة انتابتنا حيوية غريبة. رمت نينو حذاء السهرة في ركن، وقفزت على السرير ووقفت على الفراش، وقد دفعتها السوست في الهواء مرة بعد أخرى. عوجت أنفها ومطت شفيتها السفلي وبدت كقرد صغير مسل. نفخت وجتيتها، ودفعته بالسبابة، فانفتحت شفتها بصفارة! وصرخت: "ما مقدار حبك لي في دور مخلص للبلاد؟" ثم قفزت إلى الأرض، وجرت نحو المرأة ونظرت لنفسها بإعجاب: "نينو هانم شرفشير، جان دارك أذربيجان! تفتن زوجات الضباط وترغم أنها لم تر خصيًّا!" صفقت بيديها الصغيرتين وهي تضحك. كانت ترتدي فستان سهرة فاتح اللون بفتحة واسعة على الظهر. وقد وضعت في أذنيها الرقيقتين حلقةً طويلةً. لمع عقد من اللؤلؤ حول عنقها في ضوء المصباح. يدها نحيلة ورقيقة. تدلى شعرها الأسود على عنقها. وقفت أمام المرأة فاتنة بجملها الجديد. اقتربت منها وحدقت في عينيْن سعيدتين لأميرة أوروبية. حضنتها وانتابني شعور وكأنها المرة الأولى. كان جلدها ناعمًا ومعطرًا، وأسنانها تبرق خلف شفيتها كأحجار صغيرة بيضاء. جلسنا على السرير للمرة الأولى، وامرأة أوروبية بين يدي. رمشت بسرعة - الملائكة الحميمة برموشها الطويلة الملتفة على وجتتي - ولم تكن بهذه الروعة من قبل. أخذت ذقنها في يدي ورفعت رأسها. رأيت وجهها الرقيق البضاوي، والشفاه الندية العطشى، والعيون الحاملة وراء الرموش الجورجية شبه المغلقة. ربت على عنقها، سقط رأسها



الصغير في يدي. استسلمت في توق شديد. اختفى فستان السهرة والسريّر الأوروبي بأغطيته المطوية والملاءات الكتانية الباردة من أمام عينيّ. كانت هناك، في الأول، في داغستان، شبه عارية على حصيرة صغيرة تغطي الأرضية الطينية. أمسكت يداي بكتفيها وقد تمددنا بكامل ثيابنا على سجادة باهتة من كَرْمَن، أسفل سريّر أوروبي فخم. حدقت في وجه نينو على السجادة الناعمة، انقبض حاجباها في لذة مؤلمة. سمعت صوت أنفاسها، شعرت باستدارة وركيها النحيلين، نسيت الإنجليزي العجوز والضباط الشبان ومستقبل الجمهورية.

بعد ذلك رقدنا متجاورين في هدوء نحدق في مرآة كبيرة فوق رأسينا. قالت نينو وكأنها تعترف بسعادة عظيمة: "هذا الفستان عفا عليه الزمن". دسّت رأسها في ثنية ثوبي وفكرت بصوت عالٍ: "ماذا تقول زوجة الرائد إذا رأتنا الآن؟ قد تقول: 'هل علي خان لا يعرف لماذا صنعت الأسرة؟'" نهضت وركلت ركبتي بقدمها الصغيرة: "ألا يرغب الملحق السامي أن يكون شخصًا طيبًا ويخلع ملابسه ويأخذ مكانه في سريّر الزوجية، كما تقضي التقاليد العامة في عالم الدبلوماسية؟ من سمع عن ملحقين يتدحرجون على سجادة؟" نهضت، متدمرًا ونعسان، ألقيت بملابسي وركدت بين الملاءات مع نينو.

مرت أيام وأسابيع، جاء ضيوف، شربوا الويسكي وامتدحوا بيتنا. تفتح كرم الضيافة الجورجي عند نينو كالزهرة. رقصت مع ضباط شبان وتحدثت عن النقرس مع ضباط مسنين. حكّت لسيدات إنجليزيات قصصًا من عصر

الملكة تامار، وتركتهن على اعتقادهن في أن الملكة العظيمة حكمت أذربيجان كما حكمت جورجيا. جلست في الوزارة، وحدي في غرفة واسعة، كتبت تقارير، قرأت تقارير من ممثلينا في البلاد الأجنبية وتطلعت إلى البحر. جاءت نينو لتلقاني في المساء، كانت زوجة رائعة مريحة مفعمة بفتنة لا تبالى. بدأت علاقة مدهشة إلى حد ما مع وزير الخارجية أسد الله. قدمت له الطعام والشراب حين جاء لزيارتنا، وقدمت له نصائح عن كيفية التصرف في مجتمع أوروبي، وتصادف أحياناً أن مررت بهما يتها مسان سراً في ركن منعزل في بيتنا. سألت: "ماذا بينك وبين أسد ميرزا؟" ابتسمت وقالت إنها تود أن تكون أول رئيسة للبروتوكول. تراكمت الرسائل والتقارير والمذكرات على مكثبي. الدولة الجديدة تبنى بأسرع ما يمكن، أحبت فض الرسائل والوثائق المختومة بشعارنا.

ذات يوم، قبل الغداء بقليل أحضر الساعي الصحف. فتحت الجريدة الرسمية لحكومتنا فرأيت اسمي في الصفحة الثالثة بالبنط الأسود: "نقل علي خان شرفنشير، الملحق في وزارة الخارجية، إلى قنصليتنا في باريس". مع فقرة طويلة، من الواضح أن كاتبها هو أرسلان أغا، تمتدح قدراتي الهائلة. قفزت، مندفعاً عبر الغرف الموصلة لمكتب الوزير، ودفعت الباب، صارخاً: "ميرزا أسد الله، ما هذا؟"

ابتسم: "آه، مفاجأة يا صديقي. وعدت زوجتك. أنت ونيو الشخصان المناسبان لباريس". ألقيت الجريدة على الأرض، وسيطر علي غضب هائل. صرخت: "ميرزا، لا يوجد قانون في هذا البلد يرغمني على ترك وطني لسنوات في النهاية!"

نظر إليّ مصعوقاً: "بربك ما المشكلة يا علي خان؟ معظم العاملين معنا يسعدون إذا حصلوا على وظيفة في الخارج. وأنت الرجل المناسب لهذه الوظيفة".

"لا أريد الذهاب إلى باريس، وإذا أرغمتني فسأستقيل. أكره العالم الغربي والطرق الغربية والغربيين والتقاليد الغربية. وأظن أنك لن تفهم ذلك أبداً".

قال بأدب: "لا، لا أفهم، لكن إن كنت مصرّاً فابق هنا".

عدوت إلى البيت وصعدت السلم ووصلت مقطوع النفس. قلت: "نيو، لا أستطيع أن أفعل ذلك، فقط لا أستطيع". طفحت كل الألوان على وجهها، وارتجفت يداها.

"لكن لماذا لا تستطيع يا علي خان؟"

"نيو، من فضلك حاولي أن تفهمي. المسألة تتلخص في أنني أحب هذا السطح المنبسط فوق رأسي والصحراء والبحر. أحب هذه البلدة، الجدار القديم والمساجد في الأزقة الضيقة، وبعيداً عن الشرق سأموت كما تموت السمكة إذا خرجت من الماء". أغلقت عينيها لحظة.

قالت: "آسفة"، وبدت في حزن وبؤس شديدين مزقاً قلبي. جلست وأخذت يدها:

"انظري - سأكون تعيشاً في باريس بقدر ما كنت تعيشة في بلاد فارس. حينها أشعر بأني معرض لقوة خبيثة. تذكرني إحساسك في حريم

شمران. بالنسبة لي من المستحيل أن أعيش في أوروبا كما كان من المستحيل أن تعيش في آسيا. لنبق في باكو، حيث تتقابل آسيا وأوروبا. لا أستطيع الذهاب إلى باريس حيث لا توجد مساجد ولا الجدار القديم ولا سيد مصطفى. عليّ أن أحس بأسيا في كل لحظة لأصبر على كل هؤلاء الغرباء الذين يأتون إلى هنا. سأكرهك في باريس كما كرهتني بعد شهر محرم. ليس بعد ذهابنا مباشرة، لكن بعد أيام، بعد حفلة تنكرية، أو حفلة راقصة، قد أكرهك فجأة في هذا العالم الغريب الذي تدفعيني إليه. لهذا أريد البقاء هنا مهما كلف الأمر. ولدت في هذه البلاد وأريد الموت فيها". لم تنطق بكلمة. حين توقفت، مالت على وداعبت شعري: "سامح حببتك نينو يا علي خان. كنت شديدة الغباء. لا أعرف لماذا اعتقدت أن التغيير سيكون أسهل بالنسبة لك. نبقى هنا ولن نذكر باريس بكلمة. تحتفظ ببلدتك الآسيوية وأحتفظ ببيتي الأوروبي". قبلتني بحب ولعت عيناها.

"نينو، هل هو أمر بالغ الصعوبة أن تكوني زوجتي؟"

"لا يا علي خان، ليس صعباً على الإطلاق. الأمر يحتاج فقط إلى بعض الإحساس والفهم". ربت أصابعها على وجهي. كانت حبيتي نينو امرأة قوية. كنت أعرف أنني حطمت حلم حياتها. أخذتها على ركبتيّ: "نينو، حين يولد الطفل سنذهب إلى باريس أو لندن أو برلين أو روما. مازلنا في انتظار شهر العسل. وسنقضيه حيث تحبين، صيفاً كاملاً. وكل عام نزور أوروبا، تعرفين أنني لست مستبداً. لكنه وطني، أود أن أبقى في البلاد التي أنتمي إليها، لأنني ابن صحرائنا وشمسنا ورملنا".

قالت: "نعم، وابن بار جدًا أيضًا. ننسى أوروبا. لكن طفلك الذي أحمله  
لن يكون طفل الصحراء أو الرمال، سيكون ابن علي ونينو".  
قلت: "نعم"، وأنا أعرف أنني وافقت على أن أكون أبًا لأوروبي.



## 29

"كان ميلادك بالغ الصعوبة يا علي خان، وفي تلك الأيام لم نكن نستدعي أطباء أوروبيين لعلاج نساءنا". جلس أبي معي على سطح بيتنا، وكان صوته رقيقاً وحزيناً: "حين اشتدت آلام الولادة أتينا لأمك بمسحوق من أحجار الفيروز والماس. ولم يجد نفعاً. حين ولدت وضعنا الحبل السري بجوار الحائط الشرقي للغرفة مع سيف ومصحف، لتصبح مخلصاً وشجاعاً. بعد ذلك وضعت تعويذة حول عنقك، وكنت دائماً في صحة جيدة. رميتها وأنت في الثالثة فساءت صحتك. في البداية حاولنا إغواء المرض بالبعد عنك، فوضعنا نبيذاً وحلوى في غرفتك. ووضعنا ديكاً ملوناً يجري في الغرفة وخارجها، لكن المرض لم يجر وراءه إلى خارج الغرفة. ثم جاء رجل حكيم من الجبال وأحضر بقرة. ذبحنا البقرة، وفتح الرجل الحكيم بطنها وأخرج الأحشاء. ووضعك في بطن البقرة. حين

أخرجك بعد ثلاث ساعات كان جلدك أحمر تمامًا. لكنك لم تعرف المرض منذ ذلك الوقت". خرجت صرخة طويلة مكتومة من البيت. كنت منتصبًا بلا حراك مركزًا بكل كياني فيما أسمع. دوت الصرخة مرة أخرى، طويلة وحزينة. قال أبي بهدوء: "تلعنك الآن. كل النساء يلعن أزواجهن وقت الولادة. في العصور السابقة بعد ولادة الطفل، كانت المرأة تذبح كبشًا وترش حصير زوجها وطفلها بالدم، لتبعد المصائب التي دعت بها عليهما أثناء الولادة".

"كم تستغرق من الوقت يا أبي؟"

"خمس ساعات أو ست وربما عشر ساعات. وركاها نحيلان". صمت. ربما كان يفكر في زوجته، أمي، التي ماتت حين ولدتني. ثم نهض. قال "تعال". وذهبنا إلى سجادي صلاة هراوين مفروشتين وسط السطح، باتجاه مكة حيث الكعبة. خلعنا الأحذية، ووقفنا على السجادتين، ويدا كل منا متشابكتين، بحيث تغطي راحة اليمنى ظهر اليسرى: "هذا كل ما نستطيع، لكنه أهم مما يمكن أن نحققه حكمة الأطباء". انحنى إلى الأمام وبدأ الصلاة: "بسم الله الرحمن الرحيم..". تبعته. سجدت على سجادة الصلاة وجبهتي تلمس الأرض: "الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين..". جلست على السجادة، ويدي تغطيان وجهي. وصراخ نينو مازال يصل من أسفل، يصم أذني، لكنني لا أستوعب. كانت شفتاي تتحركان بالآيات القرآنية وكأنهما ليسا مني: "إياك نعبد وإياك نستعين..". ويدي على ركبتي. كان الهدوء شديدًا حين سمعت همسات أبي: "اهدنا الصراط المستقيم



صراط الذين أنعمت عليهم..". لمس وجهي سجادة الصلاة، استلقيت عليها، واختفت الرسوم الحمراء من أمام عيني.

"غير المغضوب عليهم ولا الضالين..". وهكذا رقدنا في التراب لوجه الله. وكررنا تلاوة الفاتحة، كلمات أنزلها الله على نبيه بلسان أجنبي، لسان البدو العرب. جلست على السجادة مربع الساقين، والمسبحة بين أصابعي، ولساني يردد ثلاثة وثلاثين اسمًا من أسماء الله الحسنى.

لمس شخص كتفي. رفعت رأسي، رأيت وجهًا مبتسمًا وسمعت كلمات لم أستوعبها. نهضت. شعرت بنظرة أبي ونزلت السلم ببطء. في غرفة نينو الستائر مسدلة. ذهبت إلى السرير. عينا نينو مغمضتان بالدموع ووجنتاها ضامرتان. ابتسمت بهدوء وقالت باللغة المغولية، اللغة البسيطة التي يتحدث بها شعبنا، وكان من الصعب عليها التحدث بها:

"كِسْ دِر، علي خان، توتش جوست بر كِسْ. أوه قَدَر بهْتياريم - إنها فتاة يا علي خان، فتاة رائعة. كم أنا سعيدة جدًا". أمسكت بيدها الباردة فأغلقت عينيها.

قال شخص خلفي: "لا تركها تنام يا علي خان، يجب أن تبقى مستيقظة بعض الوقت". مسست شفتيها الجافتين فنظرت إليّ مجعدة وصادية. اقتربت من السرير امرأة ترتدي مريلة بيضاء وقدمت لي صرة. رأيت دمية صغيرة مجمدة أصابعها صغيرة ووجهها كبير خال من التعبير. صرخت الدمية، وكانت معالم وجهها غير واضحة. قالت نينو في سعادة: "كم هي جميلة". وفتحت أصابعها مقلدة حركات الدمية. رفعت يدي ولمست الصرة بخوف،

لكن الدمية كانت نائمة، وصار وجهها بالغ الجدية. همست نينو: "نسميها تامار، تكريماً للسيوم"، هزرت رأسي موافقاً، لأن تامار اسم جميل، يستخدمه المسيحيون والمسلمون. قادني شخص ما إلى خارج الغرفة. التقت بي نظرات الفضول، وأخذني أبي من يدي. وخرجنا إلى الفناء.

قال أبي: "لننطلق إلى الصحراء، سوف تنام نينو بعد قليل". امتطينا حصانينا وانطلقنا بسرعة عبر كثبان الرمال الصفراء. قال أبي شيئاً ما، ولم أفهم عما كان يتحدث. بدا أنه كان يحاول تعزيتي، ولم أفهم السبب، لأنني كنت مزهواً جداً بأن لي بنتاً مجمدة ونائمة، وجهها جاد وعيناها كبيرتان خاليتان من التعبير.

مرت الأيام كحبات المسبحة. كانت نينو تضع الدمية على صدرها، وفي الليل تغني لها أغاني جورجية رقيقة، وتهز رأسها بجدية لتنظر إلى قرينتها الصغيرة المجمدة. وكانت قاسية ومتغطرة معي بطريقة لم أعرفها من قبل، لأنني رجل، لا يستطيع حمل الأطفال أو رعايتهم أو حتى التغيير لهم. وأنا أجلس في مكتبي في الوزارة، قد تتصل بالتليفون في لطف لتبلغني بأحداث عظيمة ومآثر ثورية: "علي خان، الدمية ضحكت، وفتحت يديها باتجاه الشمس".

"إنها دمية ماهرة جداً يا علي خان، وضعت أمامها كرة زجاجية فنظرت إليها".

"اسمع يا علي خان، الدمية ترسم خطوطاً بأصابعها على بطنها. يبدو أنها طفلة موهوبة جداً".

بينما الطفلة ترسم خطوطاً على بطنها وتتبع كرة زجاجية بعينها، كان الناس في أقصى أوروبا يلعبون بالحدود والجوش والدول. كنت أقرأ التقارير على مكثي وأنظر إلى خرائط عليها حدود المستقبل المثير للجدل. اجتمع رجال غامضون، بأسماء يصعب نطقها، في فرساي، لتحديد مصير الشرق. حاول رجل واحد فقط، جنرال تركي أشيب من أنقرة، حاول يائساً أن يواجه المنتصرين. ورغم أن بلادنا، أذربيجان، نالت اعتراف القوى الأوروبية كدولة ذات سيادة، فلم أستطع مشاركة إلياس بج في حماسه، وكان أمر بشع بالنسبة لي أن أخلصه من وهم الأخبار التي تقول إن الوحدات الإنجليزية ستسحب إلى الأبد من المنطقة التي أصبحت جمهوريتنا ذات السيادة.

صرخ في سعادة: "تحررنا إلى الأبد، لم يعد هناك أجنب على أرضنا!" قلت واصطحبته إلى الخريطة: "انظر هنا يا إلياس بج، حلفاؤنا الطبيعيون تركيا وبلاد فارس، لكنهما الآن بلا قوة. نحن معلقون في الهواء، ومن الشمال مائة وستون مليون روسي يضغطون علينا متعطشين لبترونا. طالما كان الإنجليز هنا، ما كان يجرو روسي، أحمر أو أبيض، على عبور حدودنا. لكن بمجرد أن يغادر الإنجليز، فلن يتبقى إلا أنا وأنت، ووحدتنا القليلة للدفاع عن بلادنا".

هز إلياس بج رأسه متفائلاً: "لا تقلق، عندنا دبلوماسيون لعقد معاهدات صداقة مع الروس. وللجيش مهام أخرى". وأشار إلى الجنوب، "يجب أن نذهب إلى حدود أرمينيا. هناك مشاكل في تلك المنطقة. وقد أصدر

الجنرال مَشْنَدِر، وزير الحرية، الأمر". كان من العبث إقناعه بأن الدبلوماسية لا يمكن أن يكون لها دور إلا إذا كانت مدعومة بذكاء بالقوة العسكرية. رحلت الوحدات الإنجليزية، وامتلات الشوارع بأعلام البهجة، سارت قواتنا إلى حدود أرمينيا، وفي يالاما، محطتنا على الحدود الروسية لم يتبق إلا بعض رجال حرس الحدود وبعض الموظفين. وبدأنا في الوزارة العمل في عقد المعاهدات مع الروس الأحمر والبيض، وعاد أبي إلى بلاد فارس. ودعناه أنا ونيو في الميناء. نظر إلينا بحزن ولم يسأل إن كنا سنتبعه.

"ماذا ستفعل في بلاد فارس يا أبي؟"

قال عفو الخاطر: "ربما أتزوج مرة أخرى". ثم قبلنا بصورة تقليدية وأضاف مفكرًا: "سأتي لزيارتكم من وقت لآخر، وإذا تفككت هذه الدولة - حسنًا، عندي بعض الضياع في مازندران". خطا على الممر، ولوح فترة طويلة لنا وللحائط القديم وبرج الميدان والبلدة والصحراء، كل ذلك تلاشى ببطء أمام عينيه. كان جو البلدة حارًا، والستائر في الوزارة شبه مسدلة. جاء المفاوضون الروس، بوجوه كئيبة وماكرة. بسرعة ولا مبالاة وقعوا معاهدة طويلة من فقرات وأعمدة وملاحق.

غطى التراب والرمال شوارعنا، الريح الساخنة مزقت الورق وطيرته في الهواء، ذهب حمواي المرموقان إلى جورجيا لقضاء الصيف، وفي يالاما لم يتبق إلا حرس الحدود وبعض الموظفين. توجهت إلى الوزير: "أسد الله، ثلاثون ألف روسي يقفون على حدود يالاما".

قال مقطبًا: "أعرف، يظن قائد المدينة أنها مجرد مناورة".

"وإذا لم تكن كذلك؟"

نظر إليّ متوترًا: "لا نستطيع إلا أن نوقع معاهدات. وكل ما عدا ذلك يجري بمشيئة الله". كان بعض الحرس المخلصين مستعدين بحراهم، يحرسون مبنى البرلمان. وفي الداخل يتشاجر ممثلو الأحزاب السياسية، وفي الضواحي يهدد العمال الروس بالإضراب إذا لم توافق الحكومة على تصدير البترول إلى روسيا. اكتظت المقاهي برجال يقرؤون الصحف، ويلعبون الطاولة. تشاجر الأطفال في التراب والحر. صبت الشمس لهبها على البلدة. جاء صوت الأذان من المئذنة: "حى على الصلاة! الصلاة خير من النوم!"

لم أنم، استلقيت على السجادة وعيناى مغلقتان، بقيت أشاهد المشهد المروع للمحطة الحدودية في يالاما وثلاثون ألف جندي روسي يهددوننا. قلت: "نيو، الجو حار، والدمية لم تعد الشمس، وأنت تحبين الأشجار والظلال والماء. هل تودين الذهاب إلى أبويك لقضاء الصيف؟"

قالت بحزم: "لا، لا أود".

لم أنطق بكلمة، لكن نينو قطبت جبهتها واستغرقت في التفكير: "يمكن أن نذهب معًا يا علي خان. الجو حار هنا في البلدة، وضيعتكم في جنجا محاطة بالحدائق والكروم. نذهب إلى هناك وتكون في بيتك، ويمكن للدمية أن تستلقى في الظل". لم أستطع إلا أن أوافق. ركبنا قطارًا عرباته مزخرفة بمجدد الشعار الجديد لأذربيجان.

سرنا في طريق طويل وواسع ومغبر من المحطة إلى بلدة جنجا. كانت الكنائس والمساجد محاطة بمنازل منخفضة. ونهر جاف يفصل الحى الإسلامى

عن الحى الأرميني، فرجت نينو على الحجر الذي مات جدي إبراهيم عليه منذ مئة سنة، بطلقات روسية. في ضيعتنا، خارج البلدة، استلقت العجول في الماء بلا حراك، ولم يظهر منها إلا رؤوسها. انتشرت رائحة اللبن في الهواء، وكانت حبات العنب في العناقيد الكبيرة بحجم عين البقرة. كانت رؤوس الفلاحين مخلوقة من الوسط، وشعورهم الطويلة مفروقة من الأمام على الجانبين. كانت الأشجار تحيط بالبيت الصغير بالفرانده الخشبية. ضحكت الدمية حين رأت الأحصنة والكلاب والكتاكيت.

هدأنا، ولأسابيع نسيت كل ما يتعلق بالوزارة والمعاهدات والمحطة الحدودية في يالاما. استلقينا على العشب، ومضغت نينو سيقان نباتات مرة. تأثر وجهها بالشمس، وكان صافياً وهادئاً كسماء جنجا. كانت في العشرين من عمرها، وما تزال نحيفة بالنسبة للذوق الشرقي. "علي خان، هذه الدمية لي وحدي. في المرة القادمة يكون ولدًا، ويمكن أن يكون لك". ثم وضعت خططاً تفصيلية لمستقبل الدمية، بما في ذلك التنس وأكسفورد، ودروس الإنجليزية والفرنسية، بحيث تكون أوروبية خالصة. لم أقل شيئاً، لأن الدمية لا تزال صغيرة جداً، وهناك ثلاثون ألف روسي في يالاما. لعبنا على العشب وتناولنا وجباتنا على سجادة كبيرة في ظل الشجر. سبحت نينو في النهر الصغير حيث كان الجاموس يستحم. زارنا الفلاحون، وعلى رؤوسهم طواق صغيرة مدورة، وانحنوا أمام خانهم، وأحضروا سلالاً من الخوخ والتفاح والعنب. لم نقرأ صحفًا، ولم نستلم رسائل. بالنسبة لنا انتهى العالم عند حدود ضيعتنا، وصارت الحياة رائعة مثلما كانت في داغستان.

ذات مساء في أواخر الصيف كنا جالسين في غرفتنا عندما سمعت حصاناً يصهل صهيلاً وحشياً. خرجت إلى الشرفة فرأيت رجلاً نحيفاً يرتدي معطفاً شركسياً أسود يقفز من على حصانه. "إلياس بج"، صرخت، وفتحت ذراعِيَّ ترحيباً به. لم يرد، لكنه وقف في ضوء مصباح الجاز، مغبر الوجه.

قال باستعجال: "الروس في باكو".

هزرت رأسي، وكأني أعرف طوال الوقت. كانت نينو تقف خلفي، سمعت صرختها الواهية: "كيف حدث ذلك يا إلياس بج؟"

"جاءت قطارات من يالاما أثناء الليل، مكتظة بالجنود الروس. حاصروا البلدة، واستسلم البرلمان. تم توقيف كل الوزراء الذين لم يستطيعوا الفرار وتم حل البرلمان. انضم العمال الروس إلى أبناء وطنهم. كانت البلدة خالية من الجنود، والجيش في موقع خطأ على حدود أرمينيا. أجمع محاربين". استدرت. اختفت نينو في البيت، وجاء الخدم مسرعين يضعون الجياد في العربة. كانت تحزم المتاع، وتحدث برقة إلى الدمية بلغة الأجداد. انطلقنا عبر الحقول، وإلياس بج على حصانه بجانبنا. كانت أنوار جنجا تسطع عن بعد، وللحظة اندمج الماضي والحاضر في كياني. رأيت إلياس بج، والخنجر في حزامه، شاحباً وجاداً، ونينو هادئة وفخورة، كما كانت في حقول البطيخ في مَرْدَكياني، منذ زمن بعيد، بعيد. وصلنا جنجا منتصف الليل. الشوارع مزدحمة، ووجوه الناس مستثارة ومتوترة. وقف الجنود، وبنادقهم في وضع الاستعداد، على الجسر الذي يفصل الحى الإسلامي

عن حى الأرمن، والكشافات تعكس أضواءها على علم أذربيجان في بلكونة مبنى الحكومة.

هنا أجلس، ساندًا ظهري على حائط المسجد الكبير في جنجا، وفي يدي طبق من الشربة، أنظر إلى الجنود المرهقين، مستلقين في الفناء. البنادق الآلية تدوي، وصوتها البشع يخترق الفناء، لم يتبق لجمهورية أذربيجان على قيد الحياة سوى أيام معدودة. أجلس هنا وحدي. وكتابي أمامي، أملاً السطور على عجل، لتسجيل الماضي مرة أخرى. هذا ما كان منذ ثمانية أيام، في فندقنا المتواضع في جنجا:

قال إلياس بج: "أنت مجنون". كانت الساعة الثالثة صباحًا، ونيو نائمة في الغرفة المجاورة. كرر: "أنت مجنون"، وأخذ يزرع الغرفة ذهابًا وإيابًا. كنت جالسًا إلى الطاولة، ورأي إلياس بج آخر ما يهمني في العالم.

تكلمت برقة وكأني في حلم: "سأبقى هنا. سيأتي المقاتلون، لن أفر من بلادي". وقف إلياس بج أمامي، ينظر إليّ، بحزن واعتزاز.

"علي خان، ذهبنا إلى المدرسة سوياً، وسوياً قاتلنا الروس في الفسح الكبيرة. كنت وراءك حين تتبعت نشاراين. أخذت نينو إلى البيت على صهوة حصاني، وقاتلنا سوياً على بوابة زيزيانا شفيلى. والآن عليك أن تذهب - من أجل نينو، من أجل نفسك، من أجل بلادنا التي قد تحتاج إليك مرة أخرى".

"ستبقى هنا يا إلياس بج، وسأبقى أنا الآخر".

"سأبقى لأنني وحيد في العالم، لأنني أعرف قيادة الجنود، ولأنني أستطيع



أن أقدم لبلادي خبرة حملتين. اذهب إلى بلاد فارس يا علي خان".

"لا أستطيع الذهاب إلى بلاد فارس، ولا الذهاب إلى أوروبا". ذهبت إلى النافذة. تحت في الشارع كانت الكشافات تشتعل والحديد يدوي.

"علي خان، لم يبق أمام جمهوريتنا على قيد الحياة سوى أيام معدودة". هزرت رأسي بلامبالاة. الناس يمرون تحت النافذة حاملين السلاح. سمعت خطوات في الغرفة المجاورة فالتفت. كانت نينو واقفة بالباب نعسانة.

قلت: "نيو، آخر قطار يذهب إلى تفليس بعد ساعتين".

"نعم. لنذهب يا علي خان".

"لا، تذهبين مع الطفلة. آتي فيما بعد. أبقى هنا بعض الوقت، عليك أن تذهبي. المسألة هذه المرة لا تشبه ما جرى في باكو من قبل. تختلف اختلافًا تامًا هذه المرة، ولا يمكن أن تبقي هنا يا نينو. معك طفلة الآن". كنت أتحدث والكشافات تشتعل في الشوارع، وإلياس بج يقف في الزاوية، محني الرأس. اختفى النوم من عيني نينو. ذهبت ببطء إلى النافذة ونظرت إلى الشارع. نظرت إلى إلياس بج، وكان ينظر بعيدًا. جاءت إلى وسط الغرفة وعلقت رأسها.

قالت: "الدمية، وأنت لن تأتي؟"

"لا أستطيع يا نينو".

"مات جدك على جسر جنجا. أعرف تلك الصخرة منذ أديت الامتحانات". فجأة سقطت نينو على الأرض وصرخت كحيوان جريح

يصارع الموت. جفت عيناها وارتجف جسدها. صرخت بأعلى صوتها وجرى إلياس بج خارج الغرفة.

"سآتي يا نينو. سآتي، وعد مني، أبقى عدة أيام فقط". تواصل صراخها، في الشارع كان الناس يغنون أغنية وحشية عن الجمهورية التي تحتضر. هدأت تمامًا فجأة ونظرت أمامها بعينين ميتتين. ثم نهضت. تناولت الحقيبة. صرة الطفل في يدي، نزلنا السلام في صمت. إلياس بج ينتظر في العربة. انطلقنا عبر الشوارع المزدهمة إلى المحطة.

قال إلياس بج: "ثلاثة أيام أو أربعة فقط، ثلاثة أيام أو أربعة فقط ويكون علي خان معك".

هزت نينو رأسها في هدوء: "أعرف، نمكث في تفليس ثم نذهب إلى باريس. يكون عندنا بيت بحديقة، والطفل التالي ولد".

"سيجري الأمر على هذا النحو يا نينو، بالضبط على هذا النحو". كان صوتي صافياً ومتفائلاً. أمسكت بيدى ونظرت بعيداً. كانت القضبان كشعابين طويلة، وخرج القطار من الظلمة كغول شرير. قبلتني بسرعة: "إلى اللقاء يا علي خان. نلتقي ثانية خلال ثلاثة أيام".

"بالطبع سنلتقي يا نينو، ثم نذهب إلى باريس".

ابتسمت وكانت عيناها كالقطيفة الناعمة. وقفت على الرصيف عاجزاً عن الحركة، كأني مدقوق في الإسفلت الجامد. اصطحبها إلياس بج إلى المقصورة. نظرت من النافذة هادئة وشاردة، كطائر صغير خائف. حين

تحرك القطار لاحت لي، وقفز إلياس بج من القطار.

انطلقنا إلى البلدة، البلدة كأنها في مهرجان. جاء فلاحون من القرى النائية بالبنادق الآلية والذخائر التي يخبئونها. من الناحية الأخرى من النهر، في ضاحية الأرمن، سمعنا بعض الطلقات. كانت مقاطعة روسية. غمر فرسان الجيش الأحمر الأرض، وظهر فجأة في البلدة رجل بحواجب كثة وأنف معقوف وعينين عميقتين: الأمير منصور ميرزا كجار. لم يكن أحد يعرف من يكون أو من أين أتى، كان كل ما نعرفه عنه أنه من بيت إمبراطوري، من آل كجار، وعلى كابه يسطع الأسد الفضي. تولى القيادة بالميلاد باعتباره أحد ورثة أغا محمد. تركزت الكتائب الروسية باتجاه جنجا، وازدحمت البلدة بالمهاجرين من باكو. تحدثوا عن وزراء أعدموا، وأعضاء في البرلمان سجنوا، وجثث ربطت بحجارة وغاصت في أعماق بحر قزوين. "مسجد تازاير صار نادياً، وحينما حاول سيد مصطفى أن يصلي عند الحائط ضربه الروس. قيدوه ووضعوا لحم الخنزير في فمه. بعد ذلك خطط للهروب إلى بلاد فارس، إلى عمه في مشهد. قتل الروس أباه". أتى أرسالن أغا بهذه الأخبار. وقف أمامي ينظر إلى الأسلحة التي أوزعها.

"أريد أن أقاتل أنا أيضاً يا علي خان".

"أنت؟ أنت خنزير صغير ينثر الخبر".

"لست خنزيراً صغيراً يا علي خان، أحب بلادي كأبي شخص آخر. أبي هرب إلى تفليس. اعطني سلاحاً". كان وجهه جاداً وعينه ترمشان. أعطيته أسلحة، وانضم إلى الصفوف التي كنت أقودها للغارة على الجسر.

سيطر الجنود الروس على الشوارع في الجانب الآخر. التحمنا معاً في قتال مباشر. رأيت أقنعة عريضة وتألفت حراب مثلثة، وسيطر عليّ غضب وحشي. "إرالي - إلى الأمام!" صرخ شخص ما، فخفضنا حرابنا. امتزجت الدماء بالعرق. رفعت طرف عقب بندقيتي، اخترقت طلقة كتفي. انفجرت جمجمة الروسي بضربة مني. تدفقت أدمغة رمادية في التراب. الخنجر في يدي وقعت على عدو، ورأيت وأنا أسقط أرسالن أغا يدفع خنجره في عين جندي روسي...

من بعيد سمعنا نداء بوق معدني. كنا مستقلين خلف زاوية شارع، نطلق النار بشكل عشوائي على بيوت الأرمن. أثناء الليل زحفنا للخلف على الجسر، حيث كان إلياس يج جالساً، يعد الخراطيش ويحشو البنادق الآلية. ذهبنا إلى ساحة المسجد، وعلى ضوء النجوم حكى لي إلياس بج كيف حدث له ذات مرة وهو طفل أن أوشك على الغرق. كان يعموم في البحر، وجرفه التيار. ثم أكلنا حساءاً وخوخاً. كان أرسالن أغا جائماً أمامنا، وفجوات في أسنانه تنزف. أثناء الليل زحف حتى وصل إليّ، وجسده كله يرتجف. "أنا خائف جداً يا علي خان، يا لي من جبان."

"اترك سلاحك إذن واجرّ عبر المروج إلى نهر بولا، ثم إلى جورجيا". "لا أستطيع، أحب بلادي كأبي إنسان آخر، حتى لو كنت جباناً". صمت وأشرق فجر يوم جديد. عن بعد كانت أصوات البنادق تدوي وبجوار المئذنة وقف إلياس بج بنظارة الميدان، بجانب الأمير الذي ينحدر من بيت إمبراطوري من آل كجار. بدا صوت الأبواق حزناً ومتحدياً،

كان العلم يرفرف على المئذنة، وبدأ شخص ما يغني أغنية عالم توران. قال رجل بعينين حالمتين في وجه مكرس للموت: "سمعت بعض الأخبار، ظهر في بلاد فارس رجل اسمه رضا، يقود عددًا كبيرًا من الجنود ويصطاد العدو كما يصطاد صيادًا أيلًا. كمال يجلس في أنقرة. جمع جيشًا. نحن لا نقاتل هباء. خمسة وعشرون ألف رجل يزحفون لمساعدتنا".

قلت: "لا، ليسوا خمسة وعشرين ألف رجل - بل مائتين وخمسين مليون رجل يزحفون إلينا، كل مسلمي العالم. لكن لا يعلم إلا الله إن كانوا سيأتون في الوقت المناسب". ذهبت إلى الجسر، جلست خلف بندقية آلية، والطلقات تنساب بين أصابعي وكأنها حبات المسبحة. يجلس أرسلان أغا بجاني، يعطي الطلقات إلى جاري. كان وجهه شاحبًا، وكان يتسم. ظهر تحرُّك في صفوف الروس، وانطلقت بندقيتي الآلية بجنون. كانت الطبول تدق للهجوم. من مكان ما من صفوف الأرمن جاءت نغمات المارش البوجيني. نظرت إلى أسفل فرأيت مجرى النهر الجاف المشقق. يسرع الجنود الروس عبر الميدان، يزحفون، يحددون الهدف، ويطلقون النار، أصابت طلقاتهم الجسر. رددت بطلقات وحشية. سقط الروس كالدمى، فقامت من خلفهم صفوف جديدة، تجري باتجاه الجسر، تتساقط في رماد ضفة النهر. كانوا بالآلاف، وكان صوت بندقيتي الآلية الوحيدة يبدو شاحبًا على قنطرة جنجا.

صرخ أرسلان أغا، بصوت عال وحزين، وكأنه طفل. نظرت إليه. كان مستلقيًا على القنطرة، والدماء تتدفق من فمه. ضغطت على زناد بندقيتي الآلية. سقط وابل من النيران على الروس، ودوت أبواقهم للهجوم مرة

أخرى. سقط كابي في النهر، ربما أصابته طلقة، ربما طيرته رياح في وجهي. مزقت ياقتي ومعطفي. كان أرسلان أغا مستلقيًا بيني وبين العدو. قد يكون الرجل جبانًا ويموت ميتة الأبطال من أجل بلاده. دوت الأبواق للانسحاب، صمتت البنادق الآلية، كنت أجلس على الجسر غارقًا في العرق، جائعًا انتظر الفرج.

والآن أجلس هنا في ظل حائط المسجد أشرب حساء. هناك، عند مدخل المسجد، يقف الأمير منصور، وإلياس بج محني على خريطة. خلال ساعتين أقف مرة أخرى على الجسر. لم يبق أمام جمهورية أذربيجان على قيد الحياة سوى أيام معدودة. كفى. سأنام حتى تستدعيني الأبواق إلى النهر مرة أخرى، حيث بذل جدي إبراهيم خان شرفنشير حياته من أجل حرية شعبه.

سقط علي خان شرفنشير في الخامسة والربع على قنطرة جنجا خلف بندقيته الآلية. سقط جسده في قاع النهر الجاف. نزلت. اخترقت جسده ثماني طلقات. إنها إرادة الله، سأخذه إلى زوجته. دفناه في الصباح الباكر، قبل أن يبدأ الروس هجومهم الأخير بقليل. انتهت حياة جمهوريتنا، كما انتهت حياة علي خان شرفنشير.

كابتن إلياس بج، ابن سينال أغا، من قرية بينيادي قرب باكو.



